وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جـامـعة كـربلاء
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

الرسائل المتبادلة بين الإمام علي (عليه السلام) وخصومه
دراسة في ضوء نظرية المعرفة

أطروحة تقدم بها الطالب

ثامر جاسم محمد علي الدلفي

إلى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية – جامعة كربلاء
وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها / الأدب

بإشراف
الأستاذ الدكتور
حسن حبيب عزر الكريطي

١٤٤٢هـ ٢٠٢٠م

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

صَدَقَ اللهُ العلي العظيم

فصلت الآية : ٥٣

إلى

سيد المرسلين

وسيد العارفين

ونبي هذه الأمة

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم

أهدي أطروحتي هذه

الباحث

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٩	التمهيد : نظرية المعرفة (نظرة عامة)
١٠	النظرية
١١	المعرفة
١٣	نظرية المعرفة
١٤	١-المفهوم
١٥	٢-التطور التاريخي
١٨	٣-في القرآن
٢١	٤-الأدب وفق نظرية المعرفة
٢٣	٥-نظرية المعرفة والإبستمولوجيا
٢٥	الفصل الأول : منطلقات المعرفة
٢٦	مدخل
٢٨	معرفة الخالق
٤٩	معرفة الأنبياء
٦٤	المعاد
٨١	الفصل الثاني : حجب المعرفة وآفاتها
٨٢	مدخل
٨٥	١- اتباع الهوى
٩٩	٢- الإعلام المضلّل
١٠٥	٣- التقليد الأعمى

٤- الأماني والطموحات	١١٢
٥- الترف	١١٥
٦- التعصب	١٢١
٧- التكبر	١٣١
٨- حب الدنيا	١٣٦
الفصل الثالث : الأبعاد المعرفية	١٤٧
مدخل	١٤٨
البعد التربوي	١٥٠
البعد السياسي	١٧١
البعد الاقتصادي	١٩٨
الفصل الرابع : الحقيقة والوهم	٢٢٣
مدخل	٢٢٤
١- الاستشراف	٢٢٧
٢- الأفضلية	٢٣٣
٣- إلصاق التهم	٢٥٠
٤- السلم والحرب	٢٥٨
٥- السلوك والحقيقة	٢٧٣
٦- المهاجرون	٢٨٧
٧- الناكثون	٢٩٣
الخاتمة	٣٠١
المصادر والمراجع	٣٠٥
ملخص باللغة الانكليزية	٣٣٦

المقدمـــــة

المُقدِّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المحمود لنعمته ، والمعبود لقدرته ، المطاع في سلطانه ، الموهوب لجلاله ، المرغوب إليه فيما عنده ، النافذ أمره في جميع خلقه ، لا تضبطه العقول ، ولا تبلغه الأوهام ، ولا تدركه الأبصار ، ولا يحيط به مقدار ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وأكرمهم أبي القاسم محمد وعلى آلهِ سفن النجاةِ الذين من تمسك بهم نجا، ومن تخلف عنهم غرِقَ في بحرِ الضلالة والظلمات .

وبعدُ :

يُعد فن الرسائل من فنون الأدب العربي التي حفل بها على مر العصور بتفاوت في الأهمية والدرس ، فطرق هذا الفن أبواب مختلفة وفئات متفاوتة ، فدخل قصور الملوك والأمراء كما وقف على عتبات طين أبواب الفقراء ، فازدهر تارة ، وأفل نجمه تارة أخرى ، ويبدو أنَّ سبب هذا التذبذب جاء لاختلاف المضمون والغاية التي من أجلها كتب .

وعلى الرغم من هذا السبب وغيره ، كانت رسائل الإمام علي (عليه السلام) تخالف تلك القاعدة وتحمل صفة الديمومة والحركة والازدهار إذ لا يحدها زمان ولا يحيطها مكان .

كانت تلك الرسائل ليست رائداً لجيل أو قرن فحسب ، وإنما رائد لكل الأجيال، ولكل القرون ، إذ لم يكرس بيانها المعجز لمديح سلطان أو لاستجلاب نفع أو لتعبير عن عاطفة في هوى ، أو طريقة لإظهار البراعة في سياسة البلاغة في صناعة البيان والبديع ، فهي خالدة عند الناس أجمعين بما تحمله من إيمان مطلق بكرامة الإنسان ، وحقه المقدس في الحياة الحرة الشريفة ، ومن عجائب هذه الرسائل التي اقتفت آثار القرآن، حتى طبع بصفاته وسماته ؛ لأنَّه وخلافا للمدارس الفكرية والأخلاقية والسياسية التي يبليها الزمان ، فإنها تحمل في طياتها صفات العصرنة والتجدد ، وكأن تلك الرسائل تقرع سمع إنساننا المعاصر .

وبما أنَّ عصرنا ليس عصرَ تبعيةٍ وتقليدٍ ومُحاكاة ، إنما هو عصر المنهجية العلمية، ومنطق التحليل المعمق ، وهو عصر الصراع الفكري والتنافس المعرفي ، أو ما يسمى بعصر الثورة الصناعية الرابعة (ثورة المعرفة) ، وأن مقياس تقدم البلدان والأفراد ، هو مقدار حصولها على المعارف ، التي تمثل غاية البشرية ، ومبحثها (نظرية المعرفة) الذي يحتل المكانة المرموقة بين العلوم البشرية ؛ كونه الحجر الأساس لكل معرفة ونظرية يتبناها الإنسان .

إن أهمية هذا المبحث ليست وقفاً على علم دون آخر ، ولا على فئة من العلماء والمثقفين دون أخرى ، ولا على بلد معين من بلاد العالم دون آخر ، ولكنه ضرورة علمية وتربوية وأدبية يتطلبها عصر المعرفة .

وبما أنَّ الأدب الإسلامي ، أدب رفيع ينطلق من فلسفة خلق الإنسان في خلافة الأرض ، وتسخير طاقاتها ، فهو أدب لم يكن أدباً عادياً يقتصر على جمال الكلمة ، وحلاوة اللفظة ، وسبك الجملة ، وإنما يحمل خصائص العقيدة ، ويلتمس العلم ولا ينطق من جهل ، إنه أدب يحمل رسالة ، ويمضي على نهج ويسعى إلى مغزى ، ولا يقبل أن يكون هدفاً لذاته ؛ إنه دعوة الإسلام في التفكر والتدبر والسعي إلى المعرفة ، ويقف أمام الانكسار والضياع وأن يقول كلمته ويجعلها العليا في هذا المعترك وهذا الصراع الفكري والتنافس المعرفي في عالم اتحدّت فيه الجهود على محاربة الإسلام والتقت على عدائه .

أمام هذا العداء الواحد المكشوف لا بد أنْ تتضافر الجهود وأن يستمد هذا الأدب غذاءه وقوته ، من معارف الإسلام وأهدافه وغاياته ، ويتسع باتساع الحياة وتتعدد جوانبه ونواحيه كما تعددت جوانب الحياة ونواحيها .

ومن ذلك وغيره نحتاج إلى خطوة جريئة ، وشيء من الثورة في التفكير، ومغامرة في سبيل الوصول إلى تلك الغايات والأهداف ولعل أستاذي المشرف كان في مقدمة من خطا هذه الخطوة الجريئة وشجعني على سلوك هذا الطريق لدراسة موضوعي : « الرسائل المتبادلة بين الإمام علي (عليه السلام) وخصومه ، دراسة في ضوء نظرية المعرفة » ، عنواناً لأطروحتي ، ولا يخفى ما للجنة العلمية لقسم اللغة العربية من بلورة هذه الدراسة بشكلها النهائي ، ووضعها في مسارها الصحيح .

وقد تبنت الدراسة المنهج التحليلي لعرض نظرية المعرفة وذلك في تحليل الرسائل التي دارت بين الطرفين ، وإظهار الحقيقة والأبعاد التي تسعى تلك الرسائل لإظهارها فضلا عن إظهار منطلقات المعرفة التي تبنتها نظرية المعرفة بمنظورها الإسلامي ، من خلال الوقوف على مبادئ المعرفة وقيمتها في النصوص الأدبية للرسائل وإظهار العلاقة القائمة لأدراك الأديب من جهة ، وبين حقائق الوجود والحياة أو أوامر الوحي من جهة أخرى ، أي متابعة عملية الإبداع الأدبية وكيفية هُضم العالم معرفياً عند الأديب .

ولكي نؤصِّل لطفرة إلى أمام كان لابد أن نحدث تغيراً في دراسة النشاط الأدبي والوصول إلى غايات معرفية ، لأنَّ المعرفة هي غاية الإنسان وهي هدفه الأسمى الذي يسعى له على مر العصور ؛ لذا كانت الدراسة لا تبحث عن جمالية النص الأدبي بقدر بحثها عن معارف تتضمنها تلك النصوص التي وضِعت من اجلها، وبيان ما يقابلها من وهم ، من اجل ظهار الحقيقة التي تسعى لها نظرية المعرفة .

إن دراسة النصوص الأدبية النثرية على وفق نظرية المعرفة لا تخلو من الصعوبات؛ كون هذه الدراسة تحتاج إلى كثير من المعرفة التخصصية في مجالات العلوم كافة فضلا عن كونها الدراسة الأولى في مجال نظرية المعرفة التي تُعد نظرية متجددة ومتطورة .

ولا يخفى من أن الدراسة اعتمدت على كثير من الكتب والبحوث في مجالات المعرفة كافة ، ولاسيما كتب الفلسفة في ما يخص نظرية المعرفة ، وشروحات نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ، والشيخ ناصر مكارم الشيرازي وغيرها من الشروحات ، فضلا عن كتب التفسير والحديث والسيرة والأخلاق والأدب واللغة والتاريخ والسياسة والإعلام والاجتماع ، والتربية والاقتصاد وغيرها من كتب المعرفة التي ذكرت في قائمة المصادر والمراجع وبعض منها لم يذكر في فهم المراد من نظرية المعرفة .

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يكون من أربعة فصول يسبقها تمهيد ، وتتلوها خاتمة ، وتضمن التمهيد : بيان صورة عامة عن نظرية المعرفة في بيان الاتجاهات الفكرية والمذهبية في ظل هذا الصراع الفكري وبيان كلمة الإسلام في معتركه ، وبعد

هذا التمهيد الموجز ، توجهت الدراسة في فصلها الأول لبيان ما يراه الإسلام من خلال نظريته في أعلى مراتب المعرفة ، وأسمى موضوعاتها ، وأفضلها ضرورة وحاجة هي معرفة الله ، والأنبياء ، والمعاد ، وعقبه الفصل الثاني الذي درس حجب المعرفة وآفاتها ، في ضوء ما نهى عنه القرآن ومعارف الإسلام مسلطاً الضوء فيه على إتباع الهوى ، والإعلام المضلل والاقتفاء الأعمى ، ثم الآمال والطموحات البعيدة ، والترف، والتعصب والتكبر ، وحب الدنيا .

وبما أن نظرية المعرفة تحاول المقارنة وإدراك الأبعاد المستقبلية للتأمل في الظواهر المعرفية ، انطلق الفصل الثالث في رصد الأبعاد المعرفية التي تعد جزءً متمماً للمعرفة الحقة ، وبدونه تعد محاولة النظر إلى الواقع محاولة تخلق الوهم بأننا ننتج معرفة إسلامية ، فدرس البعد التربوي الذي هو الهدف الأسمى في المعرفة الإسلامية وتلاه البعد السياسي ، ثم الاقتصادي .

وبما أنَّ الغرض الأساس من نظرية المعرفة هو البحث عن صحة المعرفة أو مطابقتها مع الواقع فكان الفصل الرابع يتحدث عن الحقيقة والوهم ومدى مصداق تلك القضايا التي أثارتها الرسائل ، ومدى مطابقتها للواقع ، وتشخيص ما هو صحيح منها وما هو كاذب فدرس ظاهرة الاستشراف ، والأفضلية ، وإلصاق التهم ، والسلم والحرب، والسلوك والحقيقة ، و(المهاجرون) ، وأخيراً (الناكثون) .

ثم جاءت الخاتمة لتوجز أهم النقاط الأساسية التي توصل إليها البحث .

وثمَّة ملاحظة لابدَّ من الإشارة إليها ، وهي إنَّ البحث عدَّ رسائل الإمام (عليه السلام) المتبادلة مع بعض ولاته في ما يخص سرقة أموال المسلمين أو إخلال بالنظام العام رسائل مع الخصوم ؛ لكون هؤلاء خرجوا عن دائرة مبادئ الإسلام وتعاليمه .

ولا يسعني في هذا المقام إلاّ أنْ أتقدم بشكري وتقديري الكبيرين إلى أستاذي الفاضل الدكتور حسن حبيب الكريطي الذي أعانني كثيراً في انجاز دراستي واسأل الله سبحانه أن يرفعه في سماء الكمال ، بجناحي المعرفة والعمل ، ويبلغ به المدارج العالية ، إنه على ذلك قدير ، وبالإجابة جدير .

كمـا أتوجـه بالشـكر الجزيـل لأسـاتذتي فـي قسـم اللغـة العربيـة بكليـة التربيـة للعلـوم الإنسـانية ، الذين تتلمذت علـى أيديهم الكريمـة ، وتعلمت منهم الخلق والعلم ، سـائلاً الله أن يثقل ميزان حسناتهم بفضله ومنّه .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

الباحث

التمهيـــد

نظرية المعرفة (نظرة عامة)

نظرية المعرفة (نظرة عامة)

قبل الحديث عن نظرية المعرفة وما تعنيه ، فإن التأصيل العلمي يقتضي البدء بتعريف تحليلي للنظرية ثم للمعرفة .

النظرية

لغة واصطلاحاً :

تُعرّف النظرّية لغة : بأنها مصطلح مشتق من الكلمة الثلاثية نَظَرَ، ومعناها ، تأمل الشيء بالعين[١]، والنظر أيضا تقلب البصيرة لإدراك الشيء ، ورؤيته ، وقد يراد به التأمل والفحص ، أو المعرفة الحاصلة بعد الفحص [٢] .

أما اصطلاحا : فهي بناء فكري تأملي ترتبط فيها النتائج بالمبادئ أو بالمقدمات، ويطلق تعبير نظرية أيضا على ذلك النوع من المعرفة الذي يفسر جوانب من الواقع ، وتستعمل هذه الكلمة للدلالة على ما هو نقيض المعرفة السطحية أو العامة ، وعلى كل معرف فهي تقوم على منهج ونظام مرتبط بمفاهيم دقيقة ، كما أنها إشارة إلى كل رأي يطلقه فيلسوف على مسالة معينة [٣].

وعرفها جميل صليبا في معجمه : «النظرية قضية تثبت برهان وهي عند الفلاسفة تركيب عقلي مؤلف من تصورات منسقة تهدف إلى ربط النتائج بالمبادئ »[٤].

وللنظرية أطلاقات عديدة لدى الفلاسفة ، يهمنا منها الإطلاق المتعلق بنظرية المعرفة ، وفيه تكون النظرية : «تركيب عقلي واسع ، يهدف إلى تفسير عدد كبير من الظواهر يقبله أكثر العلماء في وقته من جهة ما هو فرضية قريبة من الحقيقة »[٥]،

---

[١] ينظر : لسان العرب ، مادة نظر : ٥ / ٢١٥

[٢] ينظر : تاج العروس من جواهر القاموس :١٤ /٢٤٥ .

[٣] ينظر : الموسوعة المسيرة في الفكر الفلسفي الاجتماعي : ٦٠٣.

[٤] المعجم الفلسفي : ٢ / ٤٧٧.

[٥] م . ن : ٢ / ٤٧٨.

وعليه فأن النظرية هي طائفة من الآراء أو المفاهيم ، تصدر عن تأمل فكري ، وحجة عقلية ، تثبت حقيقة معينة أو تسهم في بناء فكر جديد .

المعرفة

لغة واصطلاحاً :

العرف ضد النكر [١] ، وعرف من العرفان والعلم ، وعرَّفه الأمر : أعلمه إياه ، وعرَّفه بينه أي أعلمه بمكانه ، وعرفه به وسمه [٢].

ومن المفهوم اللغوي نجد أنَّ المعرفة لا يراد بها غير العلم بمعناه الواسع ، ومن ثم فإن المعرفة أو العلم مفهوم بديهي ، ولا يحتاج إلى تعريف فقط بل لا يمكن إطلاقاً تعريفه ؛ لأننا حينما نبحث عن تعريف وتحديد لشيء ما ، فنحن نبحث عن موضّح بواسطته أن (نعرف) ذلك الشيء المطلوب ، إذن نحن على علم مسبق بمعنى المعرفة؛ أي إنها معروفة لدينا من قبل ، ومن ثم تصبح جميع التعبيرات والجمل التي تفسر أو تعبّر عن مفهوم المعرفة أو الإدراك أو الوعي وأمثالها ، ما هي إلا شرح لفظي أو تعيين لبعض مصاديق المعرفة التي يتناولها علم من العلوم ، أو يكون القصد منه تبيان وجهة نظر أو رأي شخصي لصاحب التعريف حول المسائل المطروحة على بساط البحث [٣] .

وذهب إلى ذلك كل من إمام الحرمين أبو المعالي الجُوَيني (ت ٤٧٨ هـ) والغزالي (ت ٥٠٥ هـ) ، وتبعه الرازي (ت ٦٠٦ هـ) ، وأية الله جعفر السبحاني[٤]، وأية الله جوادي آملي [١].

---

[١] مجمل اللغة :٦٦٠.

[٢] لسان العرب ، مادة عرف : ٩ / ٢٣٦ .

[٣] ينظر : نظرية المعرفة في الإسلام دراسة مقارنة لأهم الأسس والمفاهيم المتعلقة بنظرية المعرفة في الإسلام وبقية المذاهب الفلسفية الأخرى :٨١.

[٤] ينظر : نظرية المعرفة المدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات : ١٨ – ٣٤ .

وقد عرف الجرجاني المعرفة فقال : «إنها أدراك الشيء على ما هو عليه ، وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم »[٢] ، وعرفها نشوان الحميري (ت ٥٧٣) فقال: المعرفة حصول العلم بعد أن لم يكن ، والعلم أعمُّ من المعرفة [٣].

أما محمد بن علي التهانوي (ت ١١٥٨ هـ) فقد أطلق جملة من المعاني منها : العلم بمعنى الإدراك مطلقا تصوراً كان أو تصديقاً ، إدراك البسيط تصوراً للماهية ، أو تصديقا بأحوالها ، إدراك المركب سواء أكان تصوراً أو تصديقاً ، إدراك الجزئي مفهوماً أو حكماً ، إدراك الكلي مفهوماً أو حكماً ، إدراك الجزئي عن دليل ، إدراك بعد جهل[٤].

وللمعرفة اصطلاحات عدّة لدى المحدثين ، منهم من جعلها في مقابل العلم فجعل المعرفة إدراك الجزئي ، والعلم إدراك الكلي ، وأنَّ المعرفة هي تصورات ، والعلم في التصديقات ، ولذلك تقول عرفت الله دون علمته ؛ لان من شرط العلم إن يكون محيطاً بأحوال المعلوم إحاطة تامة ، ومن أجل ذلك وصف الله بالعلم لا بالمعرفة ، فالمعرفة أقل من العلم لأنَّ للعلم شروطا لا تتوفر في كل معرفة ، فكل علم معرفة ، وليس كل معرفة علما[٥].

وقدم محمد مصباح اليزدي توضيحاً لها فقال : « إنَّ لهذه الكلمة استعمالات مختلفة ، وأعمُّ مفهوم لها يساوي مطلق العلم والاطّلاع ، وأحيانا تخصَّص بالإدراكات الجزئيّة ، وتارة تستعمل بمعنى التذكّر ، وأحياناً تستعمل بمعنى العلم المطابق للواقع واليقيني » [٦] .

نلحظ من خلال التعريفات السابقة أن لفظة (العلم) مرتبطة ارتباطاً كبيراً بلفظة (المعرفة) حتى تبدو أنها مترادفتين أو متداخلتين ، خصوصاً وعموماً ؛ وأن العلماء

---

(١) ينظر : نظرية المعرفة في القران : ٦٣.

(٢) التعريفات :٢٧٥ .

(٣) ينظر : شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم : ٧ / ٤٦٢ .

(٤) ينظر : كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم :٢/ ١٥٨٣.

(٥) المعجم الفلسفي : ٢ / ٣٩٢.

(٦) المنهج الجديد في تعليم الفلسفة : ١ / ١٤٠ .

المسلمين يركزون في بحثهم مسائل نظرية المعرفة على كلمة (العِلم) أكثر من كلمة (المعرفة) [١] لكون العلم مرادف للمعرفة ، إلا أنه يتميز عنها بكونه مجموعة معارف متصفة بالوحدة والتعميم وان المقصود بالمعرفة «هو مطلق حصول المعلوم لدى العالم، أعم من كونه حصولياً أو حضورياً ، كلياً أو جزئياً ، بديهياً أو كسبياً ، نظرياً أو عملياً »[٢] .

ويرى الباحث أن مفهوم المعرفة من المفاهيم الواضحة والبديهية وهو ليس مستغنيا عن التعريف فحسب بل لا يمكن تعريفه إطلاقاً ؛ وذلك لأنه لا يوجد مفهوم أوضح منه حتى يصبح معرفاً له ، وتبقى هذه التعريفات التي تذكر المعرفة أو العلم ليست حقيقية بل هي لفظية ؛ لأننا نعرف بالعلم جميع الأشياء ولا نقدر على تعريف العلم إلا بالعلم، مع لزوم محذور الدور العقلي ، لأنَّ غير العلم ليس شيئاً نستطيع أن نعرف به العلم.

نظرية المعرفة :

لا شك إنَّ المعرفة هي خليلة بني البشر ، بل هي هويتهم وحقيقتهم ، وقد سعى الإنسان منذ بدء الخليقة للتعرف على العالم وعلى كيفية بدء الكون والموت وغيرها من الأمور التي كانت تراوده من خلال حركاته وسكناته .

ولقد احتلت المعرفة موقع الصدارة في الكتب السماوية وفي الأبحاث العقلية والفلسفية معاً ، وهي العمود الذي بنيت عليه الحضارة على هذا الكوكب ، فعلى صعيد الكتب السماوية وفي مقدمتها القرآن الكريم ، نجد أن أول كلمة نزلت منه هي (اقرأ) وعلى صعيد الفكر الإنساني إذ نجد أنَّ الاهتمام بالمعرفة من أكثر القضايا حيوية منذ بداية التفكير الفلسفي المنظم عند فلاسفة اليونان [٣].

---

[١] ينظر : مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي ، دراسة نقدية في ضوء الإسلام :٣٥.

[٢] أدوات المعرفة في القران الكريم : ٢٣.

[٣] ينظر: نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ، دراسة مقارنة : ٩.

فنظرية المعرفة «تحتل مكانة مرموقة في التفكير البشري ، فهي أساس كل معرفة يتبناها الإنسان سواء أكان معتقده إلهياً أم مادياً ، فيلسوفاً أم عالماً طبيعياً ، فهي الحجر الأساس لكل رأي ونظر يتبناه الإنسان »[١] .

١- المفهوم :

إن أي تعريف لنظرية المعرفة لا بد وأن يلحظ مسائل العلم بموضوعاتها ومحمولاتها التي تدور حول المعرفة الإنسانية من حيث حقيقتها وأدواتها وقيمتها توصلاً إلى تمييز الحقيقة عن غيرها .

ومن هنا قدم البعض تعريفاً عاماً لهذه النظرية : فقد عرفها جميل صليبا في معجمه الفلسفي «هي البحث في المشكلات الفلسفية الناشئة عن العلاقة بين الذات المدركة والموضوع المُدرَك ، أو بين العارف والمعروف ، وأقدم صور هذه النظرية ، هو بحث الفلاسفة عن درجة التشابه بين التصور الذهني والشيء الخارجي لمعرفة حقيقة المطابقة بينهما ، وأحدث صورها تلك التي تبحث في طبيعة الذات المدركة لمعرفة الأثر الذي تتركه هذه الذات في تصور الشيء الخارجي ، ولكن هذه الصورة الحديثة ترجع كالصورة القديمة إلى البحث في قيمة العلم أي قيمة التصور والتصديق»[٢].

ويرى السيد محمد باقر الصدر بأنها «تحتوي على تحديد معالم التفكير وطريقته وقيمته »[٣] ، ومن ذلك فهي : علم يبحث عن حقيقة المعرفة الإنسانية وقيمتها وأدواتها وما يرتبط بتلك من العوارض كمراحل المعرفة وحدودها وموانعها ، والصلة بين الذات المدركة والموضوع المدرك وبيان إلى أي مدى تكون تصوراتنا مطابقة لواقع الشيء المستقل عن الذهن الذي تناوله .

---

[١] نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ، دراسة مقارنة : ١٠ .

[٢] المعجم الفلسفي :٢/ ٤٧٨ – ٤٧٩.

[٣] فلسفتنا : ٤٧ .

٢- التطور التاريخي :

كانت نظرية المعرفة عند الفلاسفة الأقدمين ، مبثوثة متفرقة ، في ثنايا أبحاث الوجود والقيم ، بل لم يكن يجمعها كتاب واحد أو دراسة منهجية مستقلة ، فقد كانت متضمنة مثلا عند أفلاطون في أبحاثه موضوع الجدل ، وعند أرسطو في بحث ما وراء الطبيعة ، دون أن يميزوا بين موضوع المعرفة وموضوع الميتافيزيقا إلا أنهم بحثوا في أهم جوانب المعرفة ، ولعل علماءنا المسلمين قد سبقوا غيرهم في إفراد بحث المعرفة بصورة مستقلة في كتبهم ، لأهمية هذا الموضوع بالنسبة لهم وعلاقته بالوجود[١]، بينما لم يبدأ إفرادها عند الفلاسفة الغربيين إلا في القرن السابع عشر ـ على رأي كثير من الباحثين ـــ إذ إنَّ «الفيلسوف الانكليزي جون لوك (١٦٣٢ – ١٧٠٤ م) الذي كان أول من وضع هذا المبحث في صورة مستقلة وذلك في كتابه (مقالة في العقل البشري) الذي نشر في نهاية القرن السابع عشر في عام ١٦٩٠ م ، ويعد هذا الكتاب أول بحث علمي منظم يتناول بالفحص والدرس أصل المعرفة وماهيتها وحدودها ودرجة اليقين فيها »[٢] وإن سبقه بذلك كثيرون أهمهم (ديكارت) في نظرية فطرية المعرفة ، ثم كانت محاولة (فريير) في القرن التاسع عشر[٣] ، ففصل بحث المعرفة عن بحث الوجود ، ثم اتخذت نظرية المعرفة وضعاً جديداً يتفق واستقلالها بموضوعها الخاص بها .

إنَّ نظرية المعرفة تعتمد الوصول إلى معارف الإنسان ، والكشف عن الواقع المحيط به عن طريق أدوات تختلف في ماهيتها واتجاه كشفها عن الواقع ، كما أن اعتماد إحداهما دون غيرها في تحصيل المعرفة بالواقع له كبير الأثر في بناء الرؤية الكونية الفلسفية عند الإنسان ، وبتعددها تتعدد هذه الرؤى الفلسفية للوجود مما ينعكس بدوره على الأيديولوجية العملية ومن ثم على سلوك الإنسان ومصيره في هذه الحياة

---

(١) ينظر : نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة : ٦٥ .

(٢) نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض مدرسة : ٢٧ .

(٣) ينظر : تاريخ الفلسفة الحديث : ٩٥ .

وما بعدها [١]، لذا «كان طبيعياً أن يختلف الفلاسفة أيضا بدرجات متفاوتة تجاه أدوات المعرفة الإنسانية ومصادرها بين : عقليين ارتأوا أن العقل هو مصدر الأول للمعرفة ، وحسيين أو تجريبيين ، قالوا أن التجربة الحسية هي المصدر الأول الحقيقي للمعرفة ، وأصحاب النزعة النقدية ، لا من حيث نقد الفكر أو الشك فيه وإنما من حيث اختبار قدرات الإنسان على المعرفة ، وهم يؤمنون بالحاجة إلى العقل والحس والحدس مجتمعين كمصادر للمعرفة ، وهناك من يضيف اتجاهاً رابعاً ذا نزعة اجتماعية تؤلف بين المذهب التجريبي والمذهب العقلي في وحدة ديناميكية وتردّ الأفكار والمعاني إلى الحياة الاجتماعية »[٢] .

إنَّ طبيعة هذا الاختلاف أوجد صراعاً فكرياً جدلياً بين هذه المذاهب ، جعلهم يركنون إلى حصر مصادر المعرفة البشرية في (الحس والعقل) ، ودأبوا في فكرهم واستعراضهم لنظرية المعرفة في استبعاد الفكر الديني أو المعرفة الدينية في مجال دراستهم ؛ لعدم وضوح الرؤية لديهم بنزول الوحي الذي هو ضرورة ملحة لإدراك العقل بأنه محدود بعالم الشهادة وقوانينها ، ولا يستطيع إنكار ميدان الآخر للمعرفة المتمثل بوجود عالم الغيب الذي هو ــ العقل ــ قاصر من إدراك مختلف جوانب ومجالات الحياة والكون .

وبسبب اختلاف الاعتقاد بتلك الطرق والقنوات المعرفية اختلفت الرؤى أيضا في هذه المباحث ، إذ أنقسم الفلاسفة والباحثون إلى مذاهب فيما بينهم على قيود المعرفة وحدود اليقين في الوصول إلى الحقيقة ، وحاولوا الإجابة عنها بطرق مختلفة ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، رأى المثاليون أن معرفة الواقع إنما تكون بالتوجه نحو الفكر والعقل والالتزام بالقوى المثالية والقيم الروحية لدى الإنسان ، وكان على رأسهم أفلاطون والمثالية التقليدية ، وباركلي والمثالية الذاتية ، وكانت والمثالية النقدية ، وهيجل والمثالية المطلقة ، الذين اتفقوا في نظرتهم إلى الواقع باعتباره في نهاية تجسيداً للعقل أو الروح ، وأنكر الواقعيون العقل ، وأعدوا هذا العالم هو مصدر كل الحقائق ،

---

[١] ينظر : أصول المعرفة والمنهج العقلي :٥١ .

[٢] فلسفة العلوم بنظرة إسلامية : ١٧ .

وارتكنوا إلى عالم التجربة والاعتقاد في المادة ، والحقيقة موجودة في عالم الأشياء الفيزيقية ، وأن المعرفة هي من جنس الوجود الخارجي وليست من جنس الفكر والذات العارفة ، ويعد أرسطو أبا للواقعية ، ويوحد أصحاب الفلسفة العلمية البرجماتية بين معنى الفكرة وآثارها العملية في حياة الإنسان ، ويصرون على أن طبيعة المعرفة الإنسانية وحقيقتها مرتبطة بالنتائج والمنفعة كمكونات أساسية للحقيقة ، إذ إنَّ المعرفة أداة للسلوك العملي ، والفكرة التي لا تهدي إلى عمل ليست شيئاً على الإطلاق ، أي أن الحقيقة مدارها النفع والضرر[١] ، ويعد جون ديوي هو المنظر الحقيقي لهذا المذهب ، وتشارلز بيرس المسمي له ، أما وليم جيمس ، فهو المنادي بأن المعرفة العملية هي مقياس لصحة الأشياء ، « ويعتقد أصحاب النزعة العلمية المتطرفة أن الحقائق لا تكون إلا في العلم الطبيعي وحده ، ومن هؤلاء أصحاب الفلسفة التحليلية وأصحاب الفلسفات النسبية الذين استبعدوا الميتافيزيقا وكل تفكير قبلي من نطاق البحث بحجة أنها عقيمة غير نافعة من جهة ، وأنها تمثل مرحلة سابقة على التفكير التجريبي الناضج من جهة أخرى »[٢] وأخضعوها للظروف الزمانية والمكانية المحيطة بالمدرك وللجهاز العصبي المسيطر على المدارك[٣] .

وهذه المذاهب رمقت للإنسان ومعارفه بنظرات تجزيئية ، إذ ركزت على جانب وأهملت جانباً آخر ، أو جوانب أخرى تتعلق بطبيعة المعرفة ، فبعضها أعتد بالعقل وترك الواقع ، وبعضهم تشبث بالواقع وجعل العقل لا دور له إلا التصديق لذلك الواقع، وبعضهم التبست عليه الغاية والوسيلة ونظر إلى المعرفة نظرة التاجر يلتمس المنفعة .

ومهما يكن من أمر في «تعدد هذه الفلسفات وموضوعاتها ومناهجها ومقدرتها على استيعاب كل جوانب المعرفة البشرية ، فلا ينبغي أن يفهم أن الحقيقة موزعة على المشاع بين مختلف مذاهبها ، أو أن أحدها على الأقل هو المذهب الصحيح ، لأن الحكم على هذه المذاهب ليس من نسيج الحكم على القضايا العلمية التي تقبل الحسم

---

[١] ينظر : نظرية المعرفة ، محمد عبد الحميد : ٧ – ١٠ .

[٢] فلسفة العلوم بنظرة إسلامية : ١٦ .

[٣] نظرية المعرفة المدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات : ٧ .

في صدقها وكذبها ، فهي تصوغ آراءها في افتراضات واسعة قد تصدر عن التأمل أو التحليل أو الحدس أو الاستدلال ، وتتأسس على التجريد والشمول ، انطلاقا من العلاقة الخاصة بين الذات والموضوع »[١] .

٣- في القرآن :

يمثل القرآن الكريم ـ بالنسبة للمسلم ـ عقيدة كلية ، تعمل على تحديد تصوره للإنسان والكون والحياة ، نظراً لما يزخر به من قضايا وأفكار وموضوعات ذات أبعاد خالدة ، استوعبت الماضي ، وتجاوزت الحاضر وامتدت بآفاقها نحو المستقبل ، تجعل منه يصوغ فلسفته عن وعي وإدراك قائم على مبادئ الإسلام ولا ينجرف إلى هاوية المذاهب الفلسفية المتصارعة ويغرق في مستنقعها مع الغارقين [٢].

ولهذا حمَّلنا الله مسؤولية استعمال وسائل العلم وأدوات المعرفة التي أنعم بها علينا في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾[٤] وقوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[٥]

وبهذا يحثنا الإسلام للسعي لتحصيل المعرفة ، وإدراك الحقيقة العلمية نقية صافية، والوصول إلى غاية المعرفة في الوجود الإنساني وجعلها تخدم تعبيد الناس لله اعتقاداً وعبادة ، علماً وعملاً : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [٦]، وبهذا يكون قد جعل

---

[١] فلسفة العلوم بنظرة إسلامية : ١٦ – ١٧ .

[٢] ينظر : ونظرية المعرفة في القرآن الكريم وتضميناتها التربوية : ٢٣ .

[٣] سورة النحل : ٧٨ .

[٤] سورة الإسراء : ٣٦ .

[٥] سورة البلد الآيات : ٨ – ١٠ .

[٦] سورة الذاريات : ٥٦

القرآن المعرفة أساساً لقيادة البشرية ، والقيام بدور الخلافة في الأرض ، وحمل أمانة الهداية والانتفاع بما في الكون مما سخره الله للإنسان ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [١]، وقوله : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٢] .

ومن أجل الوصول إلى الغاية التي خلق من أجلها الإنسان ، التي تبين أن المعرفة الحقة ؛ هي السبيل الوحيد للوصول إلى تلك الأهداف والغايات التي رسمها الله للإنسان ، والقيام بدوره في خلافة الأرض ، نرى القرآن يدعو إلى تحكيم العقل وتغليب أحكامه في ما يقرره الإنسان ، وعدم الاتكال على المعرفة الحسية لان فيها أخطاء كونها تستند إلى الحدث المقابل من دون أن تتأمل ما وراءه ، فالحواس تخدع وتظهر غير الحقيقة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [٣] ، وهذا يجعل معرفتنا مخطوءة وغير صحيحة؛ لذلك من الضروري إرجاعها إلى العقل ؛ لتصبح المعرفة لدينا متكاملة ، فالحواس والعقل يعملان في حقل المعرفة ، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [٤] ، ويقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في هذا الشأن : ((ليست الرؤية كالمعاينة مع الإبصار ، فقد تكذب العيون أهلها ، ولا يغش العقل من استنصحه)) [٥] .

فالإسلام يجعل محدودية القدرات العقلية مؤثرة ومتأثرة بقدرة القلب على التوجيه والتنظيم والعكس بالعكس فمن كان قلبه مشتتاً حائراً لم يستطع أن يجمع شتات عقله ولا أنْ يوحد أفكاره ومعلوماته فهو في حيرة من أمره ، كمن يقف في مفترق طريق لا

---

[١] سورة لقمان : ٢٠

[٢] سورة الجاثية : ١٣

[٣] سورة النور : ٣٩ .

[٤] سورة الغاشية الآيات : ١٧ – ٢٠ .

[٥] نهج البلاغة : ٤ /٦٨ .

أحد يعينه أو يرشده على معرفة الطريق الذي يوصله الى هدفه وغايته ، فإذا تنازعت القلب مناهج متعددة واستولت عليه أحاسيس فاسدة فان القلب حينذاك لا يقبل دلالة عقل بل يبقى سادرا في غيِّه ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[١] ؛ مما يجعل مثل هذه القلوب عمياء لا تبصر ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[٢] وتكون حاجزاً أمام المعرفة الحقة فيضيع الإنسان في متاهات الجهل والتخلف ، إذ يصيبه عمى يصده عن الحقيقة ويعرض به عما يصله عن طريق العقل فتبدد جهود الحواس وتتلاشى في خضم الأوهام فلا ينتفع بالحقيقة المسداة له .

إنَّ عمى القلب بغبار الذنوب هو غطاء للفطرة التي تدرك الوصول إلى التكامل المعرفي للإنسان في كل ميادين الحياة ؛ لأنَّ للفطرة التي فطر الله المخلوقات عليها موقعاً مهماً في إدراك التكامل بين مصادر المعرفة وأدواتها ، لفهم مقاصد الحق من الخلق ، وتوجيه سعي الإنسان المستخلف في الأرض ، وجهده العقلي والعملي ، لتحقيق هذه المقاصد ، وتُعين في تمييز بين العلاقات السليمة التي تتحقق بها المصالح والعلاقات الفاسدة التي تضيع فيها المصالح ، وتكون من جرائها المفاسد وألوان العنت والضرر النفسي والاجتماعي[٣] .

ومن جانب آخر لو تأملنا القرآن الكريم لوجدناه يقر للأشياء وجوداً واقعياً مستقلاً عما في الذهن البشري سواء أدركه الإنسان أم لم يدركه لذا يقرر نسبة المعرفة الإنسانية فيقول : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[٤]، ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٥] ، فينطلق اعتقادنا بوجود العلم والمعرفة ؛ لأنهما ميزة الإنسان المخلوق لله المُعلّم بتعليم الله ، فالمعرفة جزءٌ من الوجود ، والوجود ثابت قبل أن نتوجه لمعرفته ، والمعرفة هي

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٩

(٢) سورة الحج : ٤٦

(٣) ينظر : منهجية التكامل المعرفي مقدمات في المنهجية الإسلامية : ٢٣٧ – ٢٣٨.

(٤) سورة يوسف : ٧٦

(٥) سورة الإسراء : ٨٥ .

أساس للدور الإنساني في الحياة ، إذ هي قبل كل شيء معرفة الله تبارك وتعالى ، التي تنبثق منها معرفتنا للدين ودورنا في الحياة [١].

ولهذا نجد القرآن الكريم يجعل اليقين معياره في المعرفة ، ويرد الشك والظن ، ولا يعتبرهما علماً صحيحاً : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [٢] ، وقوله أيضاً : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ [٣] .

إن «إعطاء نظرية المعرفة وظيفتها الحقيقية والتي تكمن في إنتاج معرفة تخدم حركة التكامل الإنساني في جميع ميادين الحضارة ، ومن ثم إخراجها من المجال النظري البحت إلى حيث مجالات الفعل اليومي الإجرائي »[٤]، وبهذا تستمد المعرفة قيمتها من حصيلة مردودها للمجتمع ، وهذه الحصيلة تتوقف على درجة استيعاب الإنسان لعلوم عصره ، وحسن استخدامه لها على وفق مقومات ثقافته ومنهج تفكيره ، التي لا يمكن أن تؤتي ثمارها إلا في ظل مجموعة القيم الهادية المتمثلة في حب الخير والحق والجمال والمستمدة من مصادرها الرئيسة الثلاثة وهي الدين والفن والأدب[٥] .

٤- الأدب وفق نظرية المعرفة :

الأدب على وفق نظرية المعرفة من منظورها الإسلامي أدب شامل هادف ، يسير في ضوء المحور الذي تدور عليه نظرية المعرفة ، لتطوير البشرية كلها ودفعها إلى الانطلاق والارتقاء ، وإلى الخلق والإبداع ، أي أنه أدب يظهر الحقيقة ، ويسعى لها ، ويدفع بالوهم ، ويكون مع محور الحق أينما كان وفي أي زمان يحل، وينطلق من حيث انطلقت البشرية بمعارفها ، في معرفة الخالق ، والغاية التي خلق من أجلها

---

[١] ينظر : نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة : ٧١ .

[٢] سورة النجم : ٢٨

[٣] سورة النجم : ٢٣

[٤] المذهب الذاتي في نظرية المعرفة : ١٥

[٥] ينظر : فلسفة العلوم بنظرة إسلامية : ٢٥ – ٢٦ .

الإنسان ، إذن فهو لا يؤمن بسلبية الإنسان في هذه الأرض ، ولا بضالة الدور الذي يؤديه في تطور الحياة ، فهو منبثق من تصور الإسلام ، عالمه واسع وواقعه لا ينحصر بالعالم المحسوس ـ كما هو في الواقعيات المادية ـ بل يتسع إلى عوالم النفس والروح والغيب والآخرة وغيرها ، كونه شاملاً وهادفاً ، يسير بضابط من العقل ويجعل من المحسوسات ساحة للتأثير ، والاندماج ليؤثر لما يراه الأروع ، والأصدق ، والأقدر على بعث العواطف السامية .

والأدب بمقتضى هذه النظرية ، يثير قضايا المعرفة ، ويحث الخطى للسير من أجل سعادة الإنسان ، إذ لا يملأ فراغ مشاعر وحياة بأطياف اللذائذ الحسية أو بالتشهي أو التأمل الضائع الذي لا ينشىء سوى الصور ، والآمال والطموحات البعيدة، ويسجل ما فيها من دوافع وتوابع ونزعات وقيود ، وإنما يبتغي الرشد وإصابة الواقع ، ويطلب الحق ، ويهتف من أجل أعمار الأرض واستكمان طاقاتها وصولاً إلى التكامل المعرفي في كل جوانبه .

ولابد في دراستنا للأدب في ضوء نظرية المعرفة على وفق منهجها الإسلامي من التأكيد على بعدين من أجل النهوض بالأدب للوصول إلى غاية العلم والمعرفة المتمثلة في الرقي بالإنسان حضارياً ، متمثلاً في البعد المعرفي الذي يختص في المحتوى النظري لفن الأدب ، والتمييز بين مستوياته من خلال ما يحمل من مضامين عالية والرؤية العميقة لأبعاد الحياة والوجود .

أما البعد الآخر المتمثل بالبعد المنهجي فيختص بالبعد العملي لهذا الفكر، ضمن طرق التفكير وأساليبه ، وحوافز السلوك ودوافعه .

ومع أهمية البعد المعرفي وموضوعاته وقضاياه ، فإن منهجية التعامل مع هذه الموضوعات والقضايا تأخذ النصيب الأوفر من محاور اهتمام الدراسة الأدبية ، ويكون ذلك من خلال تفسير الرؤية الكونية للحياة والإنسان والوجود وتحليلها، وتفسير وتحليل تلك الرؤية على وفق مصادر المعرفة الأساس المتمثلة بالمصدر الغيبي (القرآن والسنة النبوية) ومن ثم إعمال العقل والحس لفهم العالَم والتعامل معه ضمن تلك المصادر.

ولابد أنْ لا ننسى منهجية التعامل مع التراث الإسلامي والإنساني ومنهجية التعامل مع الواقع في دراسة الطبائع والوقائع وتحليلها ، فضلاً عن دراسة المستقبل والاستشراف .

إن هذا التفسير الإسلامي سيضيء لنا جوانب كثيرة ويجعل لنا وجهة نظر مستقلة في التجربة الأدبية على عمومها مما يتيح لنا قدراً من الوضوح والمنهجية التي تخدم مشروع نظرية المعرفة الإسلامية في سعيها للوصول إلى التكامل البشري الذي سعى له الأنبياء والأوصياء من أجل إعمار الأرض وتسخير طاقاتها وتفجير منابع الإبداع لدى الإنسان الذي استخلفه الله على هذه الأرض .

أضف إلى ذلك أنّ الكشف عن تلك الظواهر والقضايا في نفس المبدع وفي ساحات وجدانه يشكل مدخلاً مهماً في تأسيس لقضايا النقد الأدبي في جميع جوانبه النظرية والتطبيقية ، إذ نتعرف على كيفية تكوين الرؤية الكونية لديه ونظرته للإنسان والحياة والكون ، وكيف استوعب العالم معرفياً ، وكيف يتحول هذا الموقف إلى نص أدبي في مرحلته التالية ، وكيف استقبل المتلقي هذا النص وتعامل معه ، في ضوء ما استوعبه من معارف ، وسعيه للوصول للحقيقة التي من خلالها يكون الوصول إلى التكامل المعرفي للبشرية ، وبذلك نزداد أيضاً عمقاً في التعرف على العوامل المؤثرة في ميلاد النص.

٥- نظرية المعرفة والإبستمولوجيا :

وإذا تقرر أن نظرية المعرفة تتناول كل ما سبق فإلى أي مدى تلتقي مع الإبستمولوجيا .

إنَّ معنى الإبستمولوجيا حسب قاموس وبستر الجديد (Webster's New) أنها إدراك المعرفة، والحصول عليها ؛ كمعرفة سببها، ودراسة مرجعيتها، وحدودها ، ومدى مصداقيتها ، وهي بهذا المعنى امتداد لنظرية المعرفة العربية إلى أقصى حد ، وإنْ كان البعض يرى اختلاف بينهما فإنه ينبثق من متابعة أي منهما لأي من اللغتين الإنكليزية أو الفرنسية ، فالإنكليزية ترى أن اصطلاح الإبستمولوجيا مرادف لاصطلاح

نظرية المعرفة ، ويبدو أنَّ جميع الذين رأوا التطابق قائماً بين المعنيين انما تابعوا المصطلح الإنكليزي ، فحين تختلف الإبستمولوجيا عن نظرية المعرفة في الفرنسية لأن معظم الفلاسفة الفرنسيين لا يطلقونه إلا على فلسفة العلوم وتاريخها الفلسفي ، وعلى هذا فإن شايع بعض الباحثين التفريق بين الإبستمولوجيا وبين نظرية المعرفة فهم إنما تابعوا المعنى الفرنسي ومعجم (أندري لالاند) على وجه الخصوص .[١]

ومن كل ما سبق نجد « أنَّ الفهم السليم لنظرية المعرفة البشرية ، من حيث إمكانها وأدواتها ومصادرها وطبيعتها وقيمتها ، يتحقق فقط بالنظرة الإسلامية لكل مشكلاتها على النحو الذي أوضحناه ، فالحقيقة التي ينبغي الإنسان معرفتها ليست هي ما يضعه الفلاسفة اتفاقاً أو اختلافاً ، ولكنها الحقيقة البناءة المرتبطة بالعلم والواقع ، وهي أيضا الحقيقة الهادفة إلى اليقين المرتبط بالصدق وبالعقيدة ، ومن ثم تبدو نظرية المعرفة الإسلامية قادرة على تفسير العلاقة بين مشكلة المعرفة ونظريات الحقيقة كما تراها المذاهب الفلسفية المتصارعة »[٢] وبهذا نكون قد جنبنا أرض الإسلام أمواج وتيارات الفكر الغربي ، ومفاهيمه الحضارية التي جاءت لتصارع المفاهيم التي سبقتها في الميدان على حساب الأمة وكيانها الفكري الحضاري [٣] .

---

[١] ينظر للمزيد : الإبستمولوجيا دراسة تحليلية لنظرية العلم في التراث : ٥ – ٨ ، والخطاب الإبستمولوجي في الفكر الفلسفي العربي المعاصر حدوده وآفاقه : ١٦٩ – ١٧٩ ، ونظرية المعرفة في القرآن الكريم وتضميناتها التربوية : ٧١ – ٧٥ .

[٢] ينظر : فلسفة العلوم بنظرة إسلامية : ٢٤ .

[٣] ننوه القارئ الكريم أنَّ نظرية المعرفة نظرية واسعة ، وشاملة ، ومتطورة ، ومتجددة ، تحمل من الأهداف والغايات والمعطيات الشيء الكثير لا يمكن بيانها بعدة صفحات قد اقتضتها منهجية البحث .

الفصل الأول

منطلقات المعرفة

مدخل

النظر والتدبر إلى الكون والمخلوقات والى النفس البشرية بما تنطوي على براهين وأدلة منطقية وعقلية وفطرية ، تؤكد ربانية هذا الكون وصدوره من خالق عليم حكيم، أي لابد من وجود مثل أعلى في ذهن الإنسان وشعوره ، والمجتمع حتى يسير نحوه ويتحرك ، والمثل الأعلى في العقيدة الإسلامية يتجسد في الله سبحانه وتعالى ، وأن عقيدة التوحيد ، هي التي توفر الرؤية الواضحة فكرياً ، وايديولوجياً للمثل الأعلى في حياة الفرد والمجتمع ، وتأسيساً على ذلك لابد أن تجند الطاقات الفكرية والجسدية والعقلية والفطرية لدى الإنسان في معرفة هذا المثل الأعلى الذي يعدَّ محورا وقطباً رئيساً تتمحور وتستقطب حوله جميع الأشياء الأخرى في حياة الفرد والمجتمع [١]

إن اختلاف الرؤية عند الأفراد في الايديولوجية والاعتقاد بها من دون تلك «يأتي من خلال الرؤية الكونية التي يحملها الفرد عن الإنسان والعالم ، والتاريخ والوجود ، وعليه فالآيديولوجيات هي وليدة الرؤى الكونية ، فإذا اختلفت هذه الرؤى بعضها عن بعض فإنها ستؤدي إلى تفاوت واختلاف الايديولوجيات فيما بينها ؛ لان الأساس الفكري الذي تنطلق منه الايديولوجية ؛ هي التفسير الذي يملكه الإنسان عن العالم والإنسان والوجود»[٢].

من هنا اتضحت العلاقة الوطيدة التي تربط الآيديولوجية بالرؤية الكونية ، فإذا كانت الأخيرة قائمة على أساس الإيمان بالله والمعاد، والنبوة ، والوحي ، وهي الرؤية التوحيدية ، فإن السلوك العلمي الذي تتطلبه مثل هذه الرؤية يختلف تماماً عن السلوك العلمي الذي تتطلبه الرؤية الكونية المادية التي تبنى على إنكار المبدأ والمعاد [٣] وتقول :

---

[١] ينظر: نظرية المعرفة في الإسلام : ٤١ .

[٢] قول العلامة المطهري : نقلا عن المدارس الفلسفية في العصر الإسلامي : ٢٢

[٣] ينظر : م . ن : ٢٢ .

﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [١]

والمطّلع على الفكر الإسلامي بشكل خاص ، ومقارنته مع بقية الأفكار والمفاهيم أو النظريات الفلسفية الأخرى بشكل عام ، يرى بكل وضوح أن الإسلام له منطلقه ومنهجه الخاص المتميز عن بقية المناهج ، ولكي نعرف عمق وامتداد ومصداقية أو عقلانية ، وصلاحية أي مذهب أو منهج لابد أن ندرسه ونفهمه وفقاً لمنطلقه ومنهاجه الخاص به ، لا بمنطلق غيره [٢]، ومن المعلوم «أنَّ أساس الاعتقاد الإسلامي يبتنى على أصول أساسية ثلاثة هي : التوحيد(معرفة الخالق) والمعاد والنبوة ، وأما العدل فهو من متممات التوحيد كما أنَّ الإمامة من متممات النبوة »[٣] .

وبما إنَّ الأدب جزء من المنظومة المعرفية ، فقد فطن شعراء الدعوة الإسلامية إلى أهمية تلك المنطلقات في المعرفة الإسلامية ، يقول الدكتور محمود البستاني : «إذا تجاوزنا شعر المعارك الذي وقفنا عنده مفصّلا : سواء أكانت معارك سياسية (شعر أبي طالب) أو عسكرية (شعراء المدينة وفتح مكة) ، إذا تجاوزنا ذلك واتجهنا إلى (الأفكار العامة) التي صدر عنها شعراء هذا العصر (عصر النبي) ، لوجدنا أنّ مفهومات (التوحيد) و (صفات الله) و (مبادئ الإسلام بعامة) والجزاء الأخروي ، منعكسة في هذا النتاج الذي أفاد من مفهومات القرآن والسنة النبوية »[٤].

ومن تلك الأهمية سيقتصر هذا الجزء من البحث ، على تبيان أهم الموضوعات والحقائق والمعارف ، التي ينادي بها الإسلام ، ويطلب من المسلمين إدراكها والوصول إليها بشكل يقيني وموضوعي جازم من خلال تتبع نصوص تلك الرسائل .

---

[١] سورة الجاثية : ٢٤

[٢] ينظر : نظرية المعرفة في الإسلام : ٩٥ .

[٣] التربية الروحية ، بحوث في جهاد النفس : ٢٧ .

[٤] تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي : ١٩٧ .

معرفة الخالق :

وحدانية الله عز وجل هي المبدأ الأول للإسلام ، والتوحيد هو أساس العلم والمعرفة فيه ، ويتبع التوحيد الاعتقاد بوحدة الطبيعة وتجانسها واتساق قوانينها ، ويتطلب هذا الإيمان بوجود إله واحد لا آلهه متعددة ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[١] فإذا كان الكون ملكا لإلهين مختلفين لتنازعا السلطة عليه ، وبديهي حينئذ أن تختلف القوانين التي تحكم الكون ، لهذا فان الاعتقاد بوجود إله واحد شرط جوهري لنمو الفكر العلمي[٢] .

والإسلام يرى من خلال نظريته في المعرفة أن أعلى مراتب المعرفة ، وأسمى موضوعاتها ، وأشملها دقة ومصداقية ، وأكثرها بداهة وأولية ، وأكثرها ضرورة وحاجة للإنسان ، وأعظمها فائدة وأثراً في سعادة وراحة واستقرار الإنسان ، هي معرفة الله عز وجل [٣] .

والمراد من معرفة الله هو «المعرفة اليقينية الجازمة بذات الله تعالى والاطلاع على دينه ، ورسالاته ومرضياته ومنهياته ، وذلك بشكل يخضع له سائر أعضاء الجسد من العقل والشعور والحس والفؤاد ، بالخضوع والخشوع ، والإرادة والتوجيه والنية الصادقة المخلصة له عز وجل ، ويجسد بهذه المعرفة الإلهية اليقينية إرادة وحكم الله عز وجل في سلوكياته وأفعاله بشكل يرضي الله ويتقرب إليه ، وكأن الله يشاهده ويراه، وأنه تعالى موجود ومستحضر في جميع سكناته وخلواته ، وحركاته الفردية والاجتماعية، والظاهرة منها والغائبة »[٤]

---

[١] سورة الأنبياء :٢٢

[٢] ينظر : نظرية المعرفة من المنظور الإسلامي :١٠.

[٣] نظرية المعرفة في الإسلام : ٩٥.

[٤] م . ن :٩٦.

وبما أن العقل ، هو الركيزة الأولى التي اعتمدها الأنبياء والرسل (عليهم السلام) في الدعوة إلى الله تعالى على اختلاف شرائعهم ومناهجهم كما جاء ذلك على لسان إبراهيم(عليه وعلى نبينا السلام) في حواره مع قومه حيث ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[١].

وقد تميزت الشريعة الإسلامية على سائر الشرائع السماوية السابقة بإعطائها العقل مجالاً واسعاً ودوراً مؤثراً في تشييد المعارف الدينية وبنائها ومن خلال النظر إلى آيات القرآن الكريم إذ نجد توفر دلالات واضحة وبيانات متضافرة تؤكد أنَّ للعقل دوره الأساس في مجمل زوايا المعرفة الدينية ابتداءً من التوحيد وانتهاءً إلى الأحكام الشرعية التكليفية [٢]

ففي عقيدة التوحيد قال تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[٣] فان هذه الآيات المباركة تبين بوضوح أن مسالة الاعتقاد بالتوحيد ، من المسائل التي لا يمكن التصديق بها إلا من خلال التعقل ولا يعقلها إلا العالمون .

وقال أيضاً :﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٤] فالله تبارك وتعالى يضرب في هذه الآية مثلا لإيصال فكرة التوحيد إلى أذهان الناس ولكن تفصيل تلك الحقيقة وبيانها لا ينتفع به إلا أرباب العقول [٥] .

---

[١] سورة الأنبياء :٦٦ – ٦٧ .

[٢] ينظر : الفلسفة شرح كتاب الأسفار الأربعة الإلهيات بالمعنى الأعم : ٧ .

[٣] سورة العنكبوت :٤١– ٤٣.

[٤] سورة الروم :٢٨.

[٥] ينظر : الفلسفة شرح كتاب الأسفار الأربعة الإلهيات بالمعنى الأعم :٨.

إن الأهمية التي أوكلها الله سبحانه وتعالى للعقل ، جعلت منه آية للحق ، وجعلت المسائل المصيرية للإنسان كالاعتقاد بالتوحيد وغيرها منوطة به .

وهكذا إذا تتبع الإنسان كل النصوص الواردة في شأن العقل لا يجد نصاً واحداً ينسب فيه الخطأ إلى العقل ، أو إلى أي سبب يعود بشكل أساسي إلى العقل ، فالعقل نور كاشف للحق ولا يحتاج إلى أي نوع من الضوابط التي تعصمه من الخطأ ـ كما يقول أهل المنطق[١] ـ وهو ما يكشفه الفصل القادم من البحث .

إنَّ الإنسان الذي يتفاعل مع (المعرفة الكونية) وينظر بعقل المنصف «في قصة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) على هذه الأرض وما عرف عنهم من صفات الخير المشتركة كالصدق والأمانة ، والوفاء والجود ونحو هذا ، وما جاءوا به من شرائع تلبي حاجة الإنسان أفراداً وجماعات ، وتحقق فيهم الرحمة والتكافل والعدل ، وما أيدهم الله به من معجزات باهرة ، كل هذا يطمئن الإنسان بأن هذا الطريق هو الطريق الحق للاتصال بعالم الغيب »[٢] فينتقل بهذه المعرفة التي يكتسبها إلى التسليم للأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) الذين تميزوا عن البشر بتلقي الوحي : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾[٣] ، وهذه الانتقالة ليست انتقالة تغيير وتبديل إنما هي توسيع وتكميل ، يقول الدكتور عبد الرحمن الزنيدي : «فإنهما متكاملان في عملية المعرفة الإنسانية في كل مجالاتها حتى وإن كثف عمل كل منهما في مجال أكثر من الآخر»[٤]

وبما أنَّ الدعوة الإلهية التي بعث بها النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لا ينتفع منها إلا أرباب العقول ، فكان من جملة الحقائق التي لا يمكن إخفاؤها هو السبق الإيماني لأهل البيت (عليهم السلام)، يقول الإمام علي (عليه السلام) في رسالته إلى معاوية :

---

[١] ينظر : المنطق ـ الفلسفة : ١٦ ، ودروس في علم المنطق : ١٨ .

[٢] مصادر المعرفة ووسائلها في القرآن الكريم : ٩١ .

[٣] سورة الكهف : ١١٠

[٤] مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي ، دراسة نقدية في ضوء الإسلام : ٦١٦ .

«إن محمداً صلى الله عليه وآله لمَّا دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له ، كنا أهل البيت أول من آمن به وصدّقه فيما جاء ، فبتنا أحوالاً كاملة محرَّمة تامة ، وما يعبدُ الله في ربع ساكن من العرب غيرنا »[١].

هذه هي «الحقيقة التي لا خلاف عليها إلّا ما تناساه معاوية ، سبقوا الجميع في الإيمان بالله تعالى ، صدّقوا بالرسالة الإسلامية وكانوا أول الخلق في حين ظلّ الآخرون على وثنيتهم ، ولم يؤمن بعضهم إلا بعد سنين طويلةٍ ذكرها الإمام علي (عليه السلام) بـ (أحوالاً) وهذه إشارة واضحة إلى معاوية وأهل بيته »[٢] وحجة أمام أهل الشام الذين «لا يعرفون إلّا معاوية رمزاً وعنواناً للإسلام ، وأن الباطل والضلال في خلافه »[٣].

وقد ألمح الإمام (عليه السلام) إلى حقيقة أخرى أنَّ أرض العرب لم توحد الله وأن عبادة الله لم تنتشر في هذه الأرض على الرغم من وجود الديانات الإلهية التي تدعو إلى توحيد الله

قبل رسالة الإسلام .

و«العرب قبل الإسلام مثل سائر الشعوب الأخرى تعبَّدوا لآلهة ، وفكروا في وجود قوى عليا لها عليهم حكم وسلطان ، فحاولوا كما حاول غيرهم التقرب منها واسترضاءها بمختلف الوسائل والطرق ، ووضعوا لها أسماء وصفات ، وخاطبوها بألسنتهم وبقلوبهم، وسلكوا في ذلك جملة مسالك »[٤].

ومعرفة الله توجب تحميده وتوحيده لنعمه المتواصلة على الإنسان ، إذ جرت العادة في افتتاح الرسائل في هذا العصر افتتاحها بالتحميد لله وتوحيده ، لما درج عليه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من مبادئ فنية في استهلال الخطب والرسائل بذكر الله تعالى وحمده وشكره لمعطياته ، وقد درج الإمام (عليه السلام)على هذا

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٧٦ ، نهج السعادة :٤/ ١٧٧

[٢] الرسائل السياسية بين الإمام علي (عليه السلام) ومعاوية :١١٠ – ١١١

[٣] ابن تيميّة حياته عقائده : ٢٨ .

[٤] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : ٦ /٥

النسق من الاستهلال وأفاض فيه تفصيلاً وتنوعاً حتى أصبح قاعدة فنية للخطب والرسائل التي طبعت العصور اللاحقة فيما بعد[١] ، ومن أمثلة ذلك افتتاح الإمام في أحدى رسائله :

«فإني أحمدُ إليكمُ الله الذي لا إله إلا هو »[٢] .

فالحمد على عبادة الله الواحد من متطلبات المعرفة ؛ لدى الإمام (عليه السلام) وهو جزء من منظومة التكامل المعرفي الإسلامي لقوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٣] .

إنَّ حلقة الوصل بين النبي (عليه الصلاة والسلام) والإمام (عليه السلام) جعلت السياق الفني بعينه الذي تتناسب تركيبته الفكرية والنفسية لرسالة الرسول الأعظم إلى النجاشي ملك الحبشة [٤].

إنّ أهمية مثل هذا الاستهلال تمثل في النثر ـ قاعدة فنية ـ على الضد من قاعدة الشعر التي تستهل بمقدمة طللية في تلكم العصور حيث تجعل المتلقي في حضور عبادي لأهم منطلق معرفي وهي توحيد الله تعالى ، والإيمان برسالته ، وممارسة التقوى حيال ذلك وهي الهدف العبادي أساساً[٥].

وفي موقف آخر يقول (عليه السلام) بعد أن أظهر عجبه للدهر ومقارنته بما ليس كسابقه المنزلة والسبق للإسلام التي لا يدلي أحد بمثلها :

---

[١] ينظر : تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي : ٢١٦ .

[٢] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٣ / ٢١٠ .

[٣] سورة إبراهيم : ٧

[٤] ينظر : السيرة الحلبية : ٢ / ٣٦٩ ، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء : ٦ / ٣٧٩ ، وجمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة : ١ / ٤١ .

[٥] ينظر : تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي : ٢١٧ .

«فيا عجباً للدهر! إذ صرتُ يُقْرَن بي من لم يَسْعَ بقَدَمي ، ولم تكن له كسابقتي التي لا يُدْلي أحد بمثلها ، إلّا أن يَدَّعي مُدَّع ما لا أعرفه ، ولا أظنّ الله يعرفه ، والحمد لله على كل حال » [١].

فتحميد الله وشكره وجب في كل الأحوال وإظهار نعمة الإيمان من مقومات المعرفة التي وجب بيانها لقوله تعالى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [٢] ، فضلاً عن مقام الرضا الذي يعد من مراتب معرفة الله ، ومعرفة جماله سبحانه وتعالى ، ومعرفة الله هو معرفة حاكميته على هذه الحياة ، إذ يقول (عليه السلام) :

«فإني أُولي لك بالله أَلِيَّةً غَيْرَ فاجرة : لئن جَمَعَتْني وإياك جوامعُ الأقدار لا زال بِباحَتِكَ حتى يَحْكُم الله بيننا وهو خَيْرُ الحاكمين »[٣]

فالأقدار الحاكمية هي كلها إلى خالق هذا الكون سبحانه ، وهذا الإصرار في الحق والوصول إلى غاية لا يعرفها إلا القدر ولا يضع لها نهاية إلا هو ؛ ولكن نهاية هذا الإصرار هو حكم خير الحاكمين ، وهو معرفة ذات الله سبحانه وتعالى .

وخطاب الإمام (عليه السلام) يؤكد حرص الإنسان المؤمن الاستمرار في خط الإسلام ومبادئه من أجل نشر السعادة بين خلقه ، ولا يقطنه اليأس لقلة سالكي هذا الطريق ، وطول الزمن للوصول إلى الأهداف في تحقيق مبادئ الإسلام ؛ فالحقيقة المعرفية ليس بالانتفاع وإنما الحقيقة هي يدعو له القرآن .

ومعرفة الله تكون سبباً للتمييز والتفضل في خط النسب الواحد ، إنَّ هذه المعرفة تكون فاصلاً بين القوم ، إذ يقول (عليه السلام) في كتاب له رداً على معاوية بن أبي سفيان ، الذي أعد النسب صورة للمعرفة الكلية :

«أما ما ذكرت من أنا كنا وإياكم يداً جامعة ، فكنا كما ذكرت ففرَّق بيننا وبينكم أن الله بعث رسوله فآمنَّا به وكفرتم »[٤]

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٤ / ٤٧ .

[٢] سورة الضحى : ١١ .

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٧ / ١٣٥ .

[٤] الإمامة والسياسة : ١ / ١٠٠ .

فالعمل لله ، والإخلاص له ولنبيه ، صورة لمعرفة وسبب للتفريق بين خطّين: الإيمان ، والكفر كان في خطٍ واحدٍ ، وهو النسب والقرابة ، فيما بينهما ، وكما قال الله تعالى في محكم كتابه ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [١] فالإمام (عليه السلام) نقل الصورة الأخروية إلى صورة حيّة ظاهرة في خطين خط الإيمان ويمثله أهل البيت (عليهم السلام) وخط الكفر والإلحاد الذي يرسم خطاه أبو سفيان ومعاوية .

فمعرفة الله تتمثل في توحيده والإيمان بالرسالة التي حملها الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) إيماناً تتحكم فيه هذه النظرة التوحيدية التي تأبى أي استثناء ، فليس الإنسان ولا حياته الفردية والاجتماعية محل استثناء في هذه النظرة الشاملة ، بل لا يمكن أن يكون الإنسان نشازاً في هذه المجموعة الكونية الخاضعة لله تبارك وتعالى[٢] ، ومن هنا يصبح مقتضى معرفة الله سبحانه وتعالى توحيد الولاية والطاعة له سبحانه ؛ ونتيجة ذلك أن قبول ولاية غير الله والتسليم والخضوع للنسب يمثل خروجا عن طريق التوحيد.

إنَّ وجود الله ضمان لكل علم ، ولكل يقين فبوجوده استطاع ديكارت أن يعبر الهوة التي حفرها الشك بين فكره وبين الأشياء ، وأن يطمئن إلى وجود العالم الخارجي ، إلّا أن تصوره الآلي للعالم جعله يستبعد تدخل العناية الإلهية في حركة الطبيعة ، وهو الموقف الذي بنى عليه كثيراً من الفلاسفة والعلماء فلسفتهم في الطبيعة ، وجعلهم يعتقدون أنّ عمل الطبيعة كعمل الساعة ، فالله أوجدها وأودع فيها نظاماً وتركها تعمل بصورة آلية ، ولا دخل له فيها بعد الخلق أو الصنع ، وهذا ما أدى ببعض النقاد إلى اعتبار هذا الموقف الفلسفي نقطة بداية الإلحاد غير المعلن ، وحدث بالتالي انفصال الله عن الكون والحياة ، وأبطل كثيراً من الاعتقادات العبادية [٣]

---

[١] سورة المؤمنون : ١٠١

[٢] ينظر : دروس في التربية الأخلاقية : ٨٨

[٣] ينظر : النظام المعرفي في الفكرين الإسلامي والغربي :١٤٧.

هذه الفلسفة كانت نتاج أرسطو الذي آمن بالله وأعده السبب النهائي للعالم الطبيعي، ولكنه صوّر الله بصورة إله كامل كمالاً مطلقاً ـ بتصوره ـ أنتج كماله عدم الحاجة لشيء أبداً ، ومن ثم فهو لا يفعل شيئا سوى التفكير في ذاته التي هي جوهر الأشياء؛ لأن الفعل طلب لنفع أو دفع لضر ، والإله أكمل من ذلك ، وعلى هذا فلا علاقة له بالعالم أبداً[١] ، لذا قال عنه ويليام ديورانت[٢] بسخرية : «يا له من إله فقير هذا الذي يعتقد به أرسطو ، إنه ملك بالاسم فقط ، ولا غرابة أن يحب البريطانيون أرسطو لأن إلهه صورة طبق الأصل من ملكهم»[٣]

هذا التصور الآلي للعالم الذي استبعد تدخل العناية الإلهية يستبعده الإمام (عليه السلام) في أحدى رسائله إلى معاوية بن أبي سفيان ، مظهراً قدرة الله ومشيئته ، وتدخل قدره الله في هذا العالم :

«أما بعدُ : فإن القضاء السَّابقَ ، والقَدَر النافِذ ، ينزل من السماء يَقْطُر كالمَطَر ، فتَمضِي أحكامه عزّ وجل ، وتَنفُذُ مشِيئته ، بغير تَحَابِّ المخلوقين ، ولا رضا الآدميين»[٤]

إنَّ الصورة التي يرسمها الإمام (عليه السلام) عن القضاء والقدر ، هي صورة القدرة الإلهية المقتدرة المسيطرة على هذا العالم والشاملة لجميع المخلوقات من دون استثناء .

فحقيقة الإيمان بوجود مدبر لهذا الكون ، ومتحكم به بمشيئته عز وجل من المعارف الحقّة التي لاغبار عليها «فالمؤكد أنَّ المحتوى الإسلامي لمعرفة المسلم عن الخالق سبحانه هو معرفة الكون بوصفه أثراً من آثار الخالق وفعله ، ومعرفة العلاقة

---

[١] ينظر : مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي دراسة نقدية في ضوء الإسلام : ١٠٦ ، ومع الفلسفة اليونانية : ٢٠٢ .

[٢] ويليام جيمس ديورانت (١٨٨٥ – ١٩٨١) ، فيلسوف ، مؤرخ وكاتب أمريكي من أشهر مؤلفاته قصة الحضارة ، وقصة الفلسفة .

[٣] من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية : ١٢٥ .

[٤] الإمامة والسياسة : ١ / ٦٤ .

بين الله الخالق والكون المخلوق أو بين مبدأ الإلوهية وتمظهرات الكون ، تشكل الأساس الأكثر أهمية لوحدة المعرفة العلمية ، والمعرفة الروحية» [١]، ولفهم هذه العلاقة يتطلب الرجوع إلى مصدر المعرفة الأساس في الإسلام وهو الوحي الذي يتضمن القرآن والسنة النبوية ، «ويعدُّ القرآن للمسلم منبع الطاقة الفكرية والروحية في الوقت نفسه ، ومن ثمَّ منبع جميع المعارف والعلوم ، ليس لان فيه محتوى المعرفة نفسها ، وإنَّما لأنه يوحي إلى المسلم برؤية متميزة لوحدة مجالات المعرفة ، وفكرة هذه الوحدة هي نتيجة لفكرة وحدة الإلوهية وتطبيقاتها في ميادين المعرفة البشرية ، فالإنسان يكتسب المعرفة من مصادر مختلفة وبأساليب متنوعة ، ولكن جميع المعارف تأتي في النهاية من الله العليم »[٢] .

إنَّ الموقف الإسلامي يختلف عن موقف الاتجاه الوضعي في نظرية المعرفة ومصادرها ، إذ جعل الثاني الواقع مصدر المعرفة الوحيد ، فالطبيعة تنقش الحقيقة في عقل الإنسان ولا شيء وراءها إلا الوهم والخيال ، فالدين ، والوحي ونحوهما خداع للحقيقة وليسا منهما في شيء ، لذا فسروا العقيدة لدى الإنسان وصورها الأولى فجعلوها منبعثة من نفسه تحت دوافع طبيعية ونفسية وغيرها ، متشكلة أوضاعها حسب مستوى ذكائه وظروف حياته ، فهي تعود إلى الإنسان ولا أثر لمصدر خارجي فيها ألبتة [٣] .

وأمير المؤمنين علي (عليه السلام) يؤكد على الرؤية القرآنية ويعدها المصدر الأول والأساس في المعرفة الإنسانية ، ولهذا أجاب معاوية مؤكداً على تلك الرؤية على كتاب معاوية الذي جاء فيه :

---

[١] منهجية التكامل المعرفي مقدمات في المنهجية الإسلامية :٤١.

[٢] م . ن : ٤١ .

[٣] يعد أوغست كونت (١٨٥٧ م) أحد مشيدي الوضعية كذلك الفيلسوف الألماني فايرباخ (١٨٧٣م) وسار على موقفهما أيضا كلّا من الماركسيين والوجوديين ، ينظر : مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي دراسة نقدية في ضوء الإسلام : ١٣١- ١٣٢ .

«وقد دعوتك إلى أمر لنا ولك فيه حياةٌ وعُذر ، وبراءةٌ وصلاح للأمة ، وحقن للدماء، وأُلفة للدين ، وذهاب للضغائن والفتن : أن نحكَّم بيني وبينكم حكمين مرضيين أحداهما من أصحابي ، والآخر من أصحابك ، فيحكمان بيننا بما أنزلَ الله فهو خير لي ولك ، وأقطع لهذه الفتن ، فاتق الله فيما دُعيتَ إليه ، وارض بحكم القرآن إن كنتم من أهله ، والسلام »[١]

وقد أكد الإمام هذه الرؤية القرآنية للمعرفة على الرغم من معرفته إنها خدعة المهزوم التي أدخرها عمرو بن العاص لهذا اليوم من صليل السيوف ، وقد حذر أصحابه من نواياها الماكرة ، التي صبغت بإطار المعرفة القرآنية الحقه ، وقد أجاب الإمام بعد تحذير خصمه بأنَّ البغي والزور يزريان المرء في دينه ودنياه ... إذ جاء في كتابه :

« ثم إنك دعوتني إلى حُكم القرآن ، ولقد علمت أنك لست من أهل القرآن ، ولا حُكمه تريدُ ، والله المستعان ، ولسنا إياك أجبنا ، ولكنا أجبنا القرآن في حكمه ، ومن لم يرضَ بحكم القرآن فقد ضلَّ ضلالا بعيداً »[٢]

على الرغم من أنها خدعة مكشوفة ومرفوضة في الصراع بين السلطة المادية المتمثلة بمعاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، والسلطة الروحية المعرفية ، المتمثلة بالإمام المعصوم ، ولكون شمولية الرؤية القرآنية التي لا يحدها الزمان والمكان ، ولأنها صادرة من خالق هذا الكون ، وبما أن الصراع يشمل الأجيال القادمة للإنسانية ، ويكرس المبادئ الروحية أو المادية في القيم الإنسانية ، فكانت الإجابة (أجبنا القرآن في حكمه) ؛ لأنه مصدر الهداية والسعادة في هذا الكون ، وبخلافه ينحط الإنسان في أودية الضلال والتيه والتسافل الى حضيض لا يعلم مدى تسافله إلا الله تعالى[٣] ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[٤].

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢ / ٢٢٥ .

[٢] م . ن : ٢ / ٢٢٦ ، م . ن :٦٦.

[٣] ينظر : التكامل في الإسلام : ١/١١.

[٤] سورة آل عمران : ١٨٢.

إنَّ الإمام (عليه السلام) في تعامله مع معاوية واستجابته لحكم القرآن أقام منهجاً من المعرفة الحقيقية المتكاملة ، لكل الأجيال ، لا لموقف التحكيم بعد رفع المصاحف فقط ، وإنما جعل القرآن منهجاً ومصدراً إسلامياً ؛ لما يحمله القرآن من مفاهيم ومبادئ إنسانية وعلمية تصلح لكل الأجيال ، لا كما يعتقد المستشرقون ، إنّ الوحي المحمدي جاء على وفق المفاهيم التي كانت رائجة عند العرب وقت نزوله حتى لو كانت خاطئة غير صحيحة ، فالمستشرق ميلر بروز يرى «أنَّ الشكل الذي يتخذه أي وحي تقرره الآراء العامة السائدة عن العالم في الوقت والمكان اللذين ينزل فيهما ، وهذه لا يمكن أن تكون كافية ولا دقيقة ولهذا يجب أن يصحح بعد»[١]

ولهذا أكد الإمام بعد فشل التحكيم ، في رسالته للخوارج ابتعاد الحكمين عن المنهج القرآني [٢]، فابتعدا بذلك عن المعرفة الحقَّة فكان سبباً في ضلالهما وضلال كثير من المسلمين ، وهو ما نبينه في الفصل القادم من حجب المعرفة وآفاتها.

ومعرفة الله تسلك إلى معرفة أصحابه ومفارقه أعدائه وهي طريق التكامل المعرفي وارتباط أدواته الثلاث في نظرية المعرفة : (الوحي ، والعقل ، والحس) ، في الوصول إلى أسمى المعارف إذ يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في نص من كتاب له إلى معاوية بن أبي سفيان :

«وقد أرديت جيلاً من الناس ، كثيراً خدعتهم بغيِّك ، وألقيتهم في موج بحرك ، تغشاهم الظُّلمات ، وتتلاطم بهم الشُّبهات ، فجاروا عن وجهتهم ، ونكصُوا على أعقابهم، وتَوَلَّوا على أدبارهم ، وعوَّلوا على أحسابهم إلّا من فاء من أهل البصائر فإنهم فارقوك بعد معرفتك ، وهربوا إلى الله من موَازرتك إذ حملتهُم على الصَّعب ، وعَدلتَ بهم عن القصد ، فاتَّقِ الله يا معاوية »[٣]

إنَّ شيطنة معاوية قد أضلت من الناس الكثير من أصحاب النفوس الضعيفة والإدراك المادي ، وجعلهم يتقهقرون في جهل العصبية القبلية «إلا أصحاب العلم

---

[١] الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة :٤٧.

[٢] ينظر : رسالة الإمام للخوارج ، تاريخ الطبري : ٤ / ٣٧٣

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٣٢ .

والإدراك التام »[١] «الذين اتبعوا الإرشادات الإلهية التي تقود العقل إلى العلم الصحيح والى استخدام ثمرات العلم استخداماً سليماً عن طريق تحديد مسار العقل وغايات المعرفة وميادينها ، كذلك هي تحفظ العقل من الانحراف إلى ميادين الوهم والظن والخرافة واجتهاد العقل والبحث في ضوء هذه البصائر كالاجتهاد في البحث عن الشيء الخفي في النهار أو الضوء ، والاجتهاد بدون هذه البصائر كالبحث عن الشيء الخفي في الظلمة ، ولذلك سمي النهار مبصرا في مواضع عدّة من القرآن الكريم ، والتعود عن الاجتهاد مع وجود هذه البصائر لا يوصل إلى المعرفة مثل عدم البحث عن الشيء الخفي رغم وجود الضوء أو النهار»[٢]

إنَّ هؤلاء أيقنوا أن معاوية يسلك بهم غير طريق الهدى عن طريق التجربة الحسية التي خاضوها معه ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٣] وكانت النتيجة ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾[٤] هو الابتعاد عن نهج معاوية والهروب إلى لقاء الله ، بالابتعاد عن إعانة الظالمين .

وتكشف ألفاظ هذه الرسالة عن «سياق ثقافي مهيمن متمثلا بالصراع الإسلامي الجاهلي ، وهذا الصراع كان نتيجة حتمية بعد ظهور الإسلام ، إذ العقل العربي صعب عليه أن يتغلب على مركزية البداوة وتقاليدها الراسخة فيه ، لذا فهو دائما يحاول أن ينتج سلطة تقدس ذاته بما هي عليه دون أن يلتفت إلى قيم الإنسانية التي جاء بها الإسلام »[٥] .

---

[١] التفسير الكبير :١٣٤/١٤.

[٢] فلسفة التربية الإسلامية ، دراسة مقارنة بين فلسفة التربية الإسلامية والفلسفة الغربية : ٢٤٩_ ٢٥٠.

[٣] سورة الجاثية : ٢٠.

[٤] سورة الأنعام : ١٠٤

[٥] السياق الثقافي في الرسائل المتبادلة بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية : ٦٦ .

وعلى الرغم من أهمية العلم والمعرفة وحث الإسلام عليها في مواقف كثيرة وانطلاقاً من رحاب الإسلام الأصيل وتحديداً من آيات الله البيّنات ، لوجدنا أن آياته قد ركزت على أهمية العلم والمعرفة والمتمثلة في تعليم الناس وتثقيفهم وإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم التي أعدها ضرورةً وأساساً وهدفاً أعلى في خلق البشرية الذي هو محور الخلق كله [١] نجد إن معاوية قد ضل كثيراً من الناس .

ومعرفة الله توجب الشدة في ذاته والإخلاص له «أن يكون الهدف محضا هو الله سبحانه وتعالى من دون أي نظر ولو جانبي ،لا إلى حاجة دنيوية ، ولا إلى الثواب والعقاب ؛ وذلك لأنه قد نسي ذاته وقطع من نفسه جذور حب الذات فانحصر ما في نفسه في حب الله تعالى »[٢] وهذا ما نجدة قد تلاشى في شخصية أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد أظهره في رسالة جوابية لمعاوية بن أبي سفيان :

«أما بعد : فقد جاءني كتابك تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجْنِها بعضنا على بعض ، فإني لو قُتلتُ في ذات الله وحييت ، ثم قتلت ثم حييت سبعين مرة ، لم أرجع عن الشدة في ذات الله ، والجهاد لأعداء الله »[٣]

فالإمام علي (عليه السلام) ربيب بيت النبوة ومعدن الرسالة ، وصاحب اليقين والحقيقة وجوهرها ، فهو مع الحق ، والحق معه فأين ما سار يسير الحق معه ، أنه لقول رسول عظيم ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى[٤] .

---

[١] ينظر : أدوات المعرفة في القرآن الكريم : ٣٨

[٢] تزكية النفس :٣٨٠.

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ١٣٢ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام): ٦٤

[٤] المعروف بين المسلمين جميعاً أنَّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) شهد بذلك لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) إذ قال : « الحقّ مع علي، وعلي مع الحق لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض » ينظر : صحيح التِّرمذي : ٥ / ٢٩٧ حديث ٣٧٩٨ ، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد : ٧ /٢٣٥ ، وفرائد السِّمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمة من ذريتهم : ١/ ١٧٧ .

فإن كان الشك مع معاوية فاليقين مع الإمام علي (عليه السلام) ، وإنْ كان الوهم ملاصقاً لمعاوية ، فالحقيقة عند الإمام علي (عليه السلام) ، فمعرفة الله تلاشت في ذاته ، وأصبح لا يهم للموت إن طلبه ولو لسبعين مرة لا لعددها وإنما لكثرتها .

والإمام (عليه السلام) بأسلوبه التصويري يريد إيصال المتلقي إلى حقيقة اليقين التي وصل اليها في مقارعة أعداء الله ومجاهدتهم «ومن هنا يعلم أنَّ ملاك الصدق في القضايا الذهنية وفي جميع القضايا المعنوية في المنطق هو الانطباق على نفس الأمر الذي هو أعم من الوجود الخارجي الملموس ، فنفس الأمر في القضايا الخارجية هو خارجها ، وأما القضايا الذهنية فهو واقعها وإن لم يكن لها خارج ملموس »[١]ولهذا فان الحالات الروحية ليس لها وجود خارجي كالأجسام ، ولكنها بالقياس إلى العدم ، لها واقعيات ، كما أنَّ لها آثاراً يصح كشفها والانتقال إليها ، والحكم بصحة أو بطلان ما نقضي عليها من أحكام [٢]وبهذا فإن آثار الحب الإلهي جعلت من الإمام يسير على وفق منهج ثابت ليس فيه تردّد في مجاهدة أعداء الله ، ولو كان هنالك موت وحياة متكررة فان مراجعة النفسية والعقلية تتطلب مجاهدة الفئة الباغية ومقاتلتهم ، المعادية للقيم الإنسانية التي وضع قوانينها وسنها الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾[٣].

ومن خلال النص السابق يكشف لنا مدى صدق الإمام (عليه السلام) وأحقيته في السير في المنهج الذي خطه في الدفاع عن القيم والإسلام ، والإصرار والثبات في ذلك .

---

[١] نظرية المعرفة المدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات :٢١٧.

[٢] ينظر : م . ن :٢١٨ .

[٣] سورة الحجرات : ٩

ومعرفة الله ومعرفة نبي الإسلام تظهر الشدة في ذات الله والسير على سيرة الأنبياء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ يقول (عليه السلام) في رسالة جوابية لمعاوية بن أبي سفيان ، بعد أن اتهم الإمام (عليه السلام) بخلق الفتنة والظلم والجور :

«أما بعد : فقد بلغني كتابك تذكر مُشاغبتي ، وتستقبحُ موازرتي ، وتزعمني متحيِّراً ، وعن حقِّ الله مقصِّراً ، فسبحان الله ! كيف تستجيز الغيبة وتستحسن العضيهة [1]؟ إني لم أشاغب إلا في أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر ، ولم أضجر إلا على باغٍ مارقٍ ، أو ملحد منافق ، ولم آخذ في ذلك إلا بقول الله سبحانه : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [2] وأما التقصير في حق الله تعالى : فمعاذ الله ! والمقصِّر في حق الله جل ثناؤه من عطَّل الحقوق المؤكدة وركن إلى الأهواء المبتدعة ، وأخلد إلى الضَّلالة المحيِّرة »[3]

فمنطلق الإمام (عليه السلام) في مشاغبه معرفة حقوق الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغلظه على مرقة الدين وبغضه للمنافقين والملحدين ، متخذا من نافذة الغيب (الوحي) مصدرا معرفياً لإثبات حزمه وغلظته وبغضه لمن حاد الله ورسوله والجهاد في سبيله وينفي التقصير في حقوق الله مشيرا لمعاوية الذي عطل خلافة الإنسان في الأرض ، وسخر إمكانياتها لبني أمية وأذيالهم وإبعاد الخلافة من أصحابها الحقيقيين الذين عهد بهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) العدّة لتكون الخلافة من بعده لعلي ولذريته من الأئمة المعصومين (عليهم السلام) بأمر من الله تعالى وباعتبارهم أجدر وأعلم بأصول الشريعة وأحكامها وأنّهم الأفضل من كلّ أتباعه

---

[1] العضيهة : الإفك والبهتان

[2] سورة المجادلة : ٢٢ .

[3] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ٧ .

والأنسب لقيادة الأمة [١]

وقد أثار هذا المنطق في نفوس قريش النزعة القبلية والحقد الجاهلي ، فعزمت بأهوائها المبتدعة أن لا تجتمع النبوّة والخلافة في بني هاشم ، وتخلد إلى الضلالة المتحيرة في أن النبوة والخلافة سلطان وحكم كما صرح بذلك أبو سفيان يوم فتح مكة بقوله للعباس لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً [٢]

ومعرفة الله توجب الإيمان بالوحي المنزل على رسوله الكريم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي يعد منحة ورحمة من الله لعباده وهو سبيل من سبل المعرفة اليقينية الصادقة التي أظهرها الله لعباده عن طريق النبوة إذ يقدم شهادة بالحقيقة متى ما كان الخبر عن الوحي يقيناً مقطوعاً به ، فانه لا يمكن بحال من الأحوال أن يتناقض مع اليقين الذي توصل إليه السبل والوسائل الإنسانية الأخرى [٣].

ولقد جعلنا الله مسؤولين عن التسليم بما يخبرنا به عن طريق الوحي ، لان برهان العقل والتجربة الإنسانية أثبت بما لا يقبل الشك بان ما يخبرنا به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الوحي صادق وصحيح وحق لا يدخل الشك والريب أو الخطأ والباطل بين سطوره .

وبنص القرآن الكريم ، وتأكيد الأحاديث النبوية الشريفة أنَّ الهداية الحقة والصحيحة لا تتأتى ولا تحصل للإنسان إلا من خلال الهداية الربانية المتمثلة للأوامر والنواهي التي أتى بها الوحي المنزل من عند الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ [٤] والسبيل لنيل الهداية هي فقه هذا الدين والالتزام بتعاليمه ، وبهذا النور الرباني يشق المؤمن طريقه في مسيرته الارتقائية التكاملية المتوجه إلى خالقه وبارئه وهو على بصيرة من أمره [٥]

---

[١] ينظر : أعلام الهداية الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) :١٢٠.

[٢] ينظر : م . ن :١٢٠.

[٣] ينظر : نظرية المعرفة في الإسلام :٢٨٣.

[٤] سورة آل عمران: ٧٣.

[٥] ينظر : نظرية المعرفة في الإسلام :٢٨٤.

ويؤكد هذا الإيمان وهذه المعرفة أمير المؤمنين (عليه السلام) في أحدى رسائله إلى معاوية ومن قبله من قريش : بعد الحمد والثناء على الله قال :

«فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد : فإن لله عباداً آمنوا بالتنزيل ، وعرفوا التأويل ، وفقهوا في الدين ، وبين الله فضلهم في القرآن الحكيم ، وأنتم في ذلك الزمان أعداء للرسول وتكذبون بالكتاب مجتمعون على حرب المسلمين من ثقفتم منهم حبستموه أو عذبتموه أو قتلتموه »[١]

المعرفة تبدأ بالإيمان بهذا القرآن المعجز بمعارفه ، الهادي من الضلالة والعمى ﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[٢] ، ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [٣]

فمعرفة كتاب الله هي الهداية إلى الحق والإيمان ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٤] ولكن الذين كذبوا هذا القرآن وكذبوا معارفه الحقّة اخذوا يحاربون الله ورسوله العظيم لجهالتهم ، وابتعادهم عن نور المعرفة ، فكانت سبباً لطمعهم لمحاربة نور المعرفة والهداية وعدم تنفعهم من هذا الدين الحنيف .

فالمعرفة البشرية قائمة على ثلاثية : (الإيمان ، والمعرفة، والسلوك)، وهذه الثلاثية متلازمة في ما بينها فلا سلوك صائب وحق بدون معرفة ، ولا معرفة بدون تفكر وإحكام العقل ، ولا إيمان بدون مقدمات عقلية .

وفي مقام تفريق أنواع العلم والمعرفة والتصدي لطلب ما هو الأهم يقول العلامة الشيخ زين الدين العاملي الشهيد الثاني «وليعلم مع ذلك أيضاً ، أن مجرد تعلم هذه

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٣ / ٢١٠ .

[٢] سورة إبراهيم : ١ .

[٣] سورة الشورى : ٥٢

[٤] سورة البقرة : ٢

المسائل ليس هو الفقه عند الله تعالى ، وإنما الفقه عند الله بإدراك جلاله وعظمته ، وهو العلم الذي يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى » [١].

يقول النبي العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم): «أما علاقة العلم فأربعة : العلم بالله ، والعلم بمحبيه ، والعلم بفرائضه ، والحفظ لها حتى تؤدى» [٢]

وبهذا أراد الإمام (عليه السلام) أن معرفة الخالق ترتبط بالإيمان ، والمعرفة ، والسلوك، وهذه الثلاث تكون لدى بعض عباد الله .

ومن منطلق المعرفة عند خصوم الإمام من أن القرآن سبيل الهداية ، وطريق الحق للذين امنوا ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٣] فآيات القرآن طريق الوصول إلى الحق المطلق والإيمان به ، وهذا ما نجده في رسالة عمرو بن العاص للإمام علي (عليه السلام) والتي كان الأجدر بعمرو أن ينصف القرآن ويسير بهديه قبل أن يبادر ويجيب الإمام بهذه الرسالة بعد أن نصحه الإمام (عليه السلام) بترك العجب بهذه الدنيا الزائلة :

«أما بعد : فقد أنصف من جعل القرآن إماماً، ودعا الناس الى أحكامه ، فاصبر أبا حسن ، فإنا غير مُنيليك إلّا ما أنالك القرآن ، والسلام »[٤]

النكتة في هذا الكتاب أن الذي يرى النص بدون اطلاع على سيرة صاحبه يجعله من أعدل الناس ، وهذا ما أنكر عليه أنصار المناهج السياقية على أصحاب المناهج النسقية في تحليل النصوص الأدبية ونقدها بعد أن رأى أصحاب هذا الاتجاه ــ النسقية ــ بان النص الأدبي «شكل مستقل بل هو عالم قائم بذاته ، ليست له علاقة مع ما هو خارج عنه وعن النسق الذي يدخل فيه» [٥] ويكون النص في نظر الناقد

---

[١] منية المريد في أدب المفيد والمستفيد : ٥٨ .

[٢] تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليهم : ١٩ ، وبحار الأنوار :٢٧/٢.

[٣] سورة الأنفال : ٢.

[٤] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢ / ٢٢٧ .

[٥] مناهج النقد الأدبي السياقية والنسقية :١١٣.

النسقي «أساس ومحور اشتغاله فلا يتعرض لأصحابه أو لظروف أنتاجه وإنْ فعل فمن خلال النص ذاته »[١] ، وهذا مخالف لأسس نظرية المعرفة وعليه يجب أن نفتش عن صاحب النص وسلوكه وأخباره لمعرفة أنَّ كان كلامه صدقاً أم كذباً ، وهذا هو أحد طرق نظرية المعرفة في أثبات شيء ومطابقته للواقع ، ومعرفة الصادق من الكاذب .

ولكن التاريخ يحكي شيء آخر ويذكر إنَّ عمرو بن العاص باع دينه من اجل دنيا غيره ومن اجل أن يحكم لبضع سنين[٢]، ثم يجعل التاريخ يحكمه ، والحاكم الذي لا يخفى عليه خافية ، ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾[٣] ؛ لان الذين كفروا لا يزيدهم القرآن إلا بُعداً عن الحق لتكبرهم ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾[٤] وقد ترك عمرو القرآن إماماً هادياً واتخذ معاوية بن أبي سفيان إماماً للضلالة من الفاسقين وليجة من دون المسلمين ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴾[٥] ، وهذا ما أكده أمير المؤمنين (عليه السلام) لعمرو بن العاص في كتابه كتابه له والذي جاء منه :

« فإنك جعلت دينك تبعاً لدنيا امرئ ظاهر غيِّه »[٦] .

فمعرفة القرآن تأتي من خلال الإيمان والتفكر والتمعن فيه وتطبيق أوامره ونواهيه ، والسير على أحكامه لا بإتباع أعدائه ومخالفيه ، على الرغم من المجاهرة بفسوقهم وجورهم وظلمهم .

---

[١] مناهج النقد الأدبي السياقية والنسقية :١١٥.

[٢] ينظر : تاريخ اليعقوبي : ١٢٨ – ١٢٩ .

[٣] سورة الفتح : ١١

[٤] سورة الإسراء :٤١.

[٥] سورة القصص :٤١.

[٦] نهج البلاغة : ٤٧٩ .

والإمام (عليه السلام) يعلم أن معاوية يتعلق بالقرآن في شدائد أيامه كما جرى في وقعة صفين إلّا انه (عليه السلام) لم يترك ذلك لمعاوية دون أن يظهر له جحوده بالقرآن وكذبه حيث قال (عليه السلام) :

« ورأيت سُحُب الموت كيف هطلت عليك بصيبها حتى اعتصمت بكتاب أنت وأبوك أول من كفر وكذب بنزوله ، ولقد كنت تفرَّستها وآذنتُك أنك فاعِلُها وقد مضَى ما مضى ، وانقضى من كيدك فيها ما انقضى »[١]

ويشير الإمام (عليه السلام) إلى منزلة القرآن العظيمة التي لا يحدها زمان أو مكان ، وهي تحيط بالمؤمن والكافر على سواء ، وهذا الإيمان بالقرآن كمصدر أساس للمعرفة البشرية يلتجئ إليها المؤمن ، كما يلتجئ إليه الذين كفروا وكذبوا به باستغلال ادعاء الإيمان لصالحهم في تسيير دفة المواجهة عندما يشتد الصراع وتلوح لهم أفق الهزيمة والخسران.

ومعاوية يستعمل مبدأ عدم التناقض عندما يبصر الموت أمام مرأى ساحته في القتال ، فيعتصم بالقرآن بعد أن جحده وأنكره .

وفي خطاب استشرافي معرفي للأحداث الذي يتأتى من الحدس الذي يعد أحد مصادر المعرفة البشرية لدى كثير من فلاسفة المسلمين وغيرهم الى جحود الجمع الذي رافق معاوية في حربه مع الإمام علي (عليه السلام) للقرآن ، إذ يقول عليه السلام :

«وكأني بجماعتك تدعوني ــ جزعاً من الضرب المتتابع ، والقضاء الواقع ومصارع بعد مصارع ــ إلى كتاب الله ، وهي كافرة جاحدة أو مبايعة حائدة »[٢]

فالإمام (عليه السلام) من خلال معرفته للرجال ولخصومه ، واستشرافه المعرفي للأحداث يظهر ما تؤول له مجريات الأحداث للصراع بينه وبين معاوية وأتباعه ،

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٨٥ ، ونهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة :٤/٢١٤

[٢] نهج البلاغة : ٤٣٢ ، وتصنيف نهج البلاغة :٤٩٤.

الـذين جحـدوا كتـاب الله وأنكـروا أحكامـه ومفاهيمـه ومبادئـه ﴿وَمَـا يَجْحَـدُ بِآيَاتِنَـا إِلَّـا الْكَافِرُونَ﴾[1] ، واتخذوا من القرآن وسيلة وأداة للوصول لأهدافهم السلطوية والمادية ، من زخرف هذه الحياة .

والنص فيه إشارة واضحة إلى أن معاوية وأصحابه ، قوم ضلّوا طريق الهداية ، وأنكروا الإسلام وكل ما يتعلق به وجحدوا الحقيقة المطلقة التي تمثلت بهذا المعجز .

ومآل القول : إنَّ معرفة الخالق عز وجل هي أعلى مراتب العلم وأشرفها ، ونهاية كل حقيقة يسعى لها وهي تحقق للبشرية أعلى مراتب الكمال والسعادة والاطمئنان في الدنيا والآخرة ، وأمير المؤمنين (عليه السلام) كان سيد العارفين ويعسوب المؤمنين ، قولاً وفعلاً بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في معرفة الخالق والوصول إلى غاية المراتب.

---

[1] سورة العنكبوت : ٤٧ .

معرفة الأنبياء :

إن غاية العلم والمعرفة تتمثل في أروع صورها ، وأنبل مقامها ، في معرفة الله سبحانه وتعالى ، أي معرفة المثل الأعلى ، والحق المطلق ، ومن أجل استمرارية هذا المثل الأعلى في حياة الفرد والأمة ، يستلزم الأمر، توفر روابط وصلات موضوعية بين الإنسان وخالقة ومثله الأعلى ، وعبر المسيرة التاريخية للإنسان والأمة ، بحبل النبوة الذي يربط الإنسان بمثله الأعلى [١] قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [٢].

وهذه المعرفة تتم من خلال الانبياء والرسل الذين انتخبهم الله من بين خلقه واصطفاهم ؛ ليحملوا وحيَّه ويبلغوا رسالته ؛ ليكونوا أمثلة لعباده من يدعوهم إلى جادة الصواب ، وسبل الهداية والرشاد ، وهم نماذج خالصة منزهة عن الخطأ ، وبعيدة عن كل ما يشين الإنسان ويحط من منزلته وكرامته ؛ كل هذا ليقتدي بهم الناس فيكونوا لهم معالم في طريق الكمال[٣] .

إذن هذه المعرفة ضرورية وأساسية لكل إنسان مسلم ، يريد أن يفهم الإسلام الحقيقي ، ويجسد مفاهيمه وتعاليمه ، ويبلغ رسالاته وأهدافه ، وهي الحبل المتين الذي يربطنا بالأئمة ، وبالأنبياء والرسل ثم بالله عز وجل [٤] ، لذا روي في الدعاء المأثور: « اللهم عرِّفني نفسكَ فإنك إنْ لم تُعرِّفني نفسك لم أعرف رسولك ، اللهمَّ عرِّفني رسولك فإنك إن لم تعرِّفني رسولك لم أعرف حجَّتك ، اللهمَّ عرِّفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني » [٥]

---

[١] ينظر : نظرية المعرفة في الإسلام : ١٠٢.

[٢] سورة الإسراء :١٥.

[٣] ينظر: دراسة عامة في الإمامة :١٠٦.

[٤] ينظر : نظرية المعرفة في الإسلام :١٠٣.

[٥] مفاتيح الجنان : ١٠٢ .

وقد بحث العلماء في كثير من الأديان عن كيفية ربط الدين بالعقل وقوة التفكير ، ولم يصلوا إلى شيء بينما من مفاخر الدين الإسلامي بعامة ، ومذهب أهل البيت بخاصة ؛ انه جعل للعقل حجة واعتماداً ، ففي أصول الاعتقادات مثل إثبات الصانع والمبدأ ، والتوحيد والنبوة ، يعد الدين تابعاً وملازماً للعقل ، فمن يُسقط العقل عن الاعتبار والحجية في أصول الدين ، إنما يسقط اعتبار الدين ؛ لأنَّ مباحث أصول الدين إنما تثبت بالعقل ولو أردنا إثباتها بنفس الدين للزم الدور وهو باطل بالبداهة [١].

وقد اثبت العقل الحاجة إلى النبوة وهديها قديماً وحديثاً ؛ لأن الاطلاع على ما يرتضيه الله من أنواع التَّعبُّد والتَّبتُّل إليه سبحانه أمر غيبيّ لا يتأتى للإنسان أن يعلمها بمحض عقله وعمق اجتهاده وسعة معارفه ، ولا أن يدركها بحدَّة ذكائه وشدَّة إدراكه وزيادة اضطلاعه بالعلوم والفنون ؛ مهما أوتي من فهم وعقلٍ وذكاءٍ [٢].

ومن جرَّاء ذلك فإن الكثير من الفلاسفة من أمثال ديكارت وكانت وليبنز وهيجل وجادمير وبرجستون وأوغست كونت ؛ وغيرهم من أساطين الفلاسفة الغربِّيين ؛ الذين أحدثوا بنظراتهم الحكميَّة وآرائهم الفلسفيَّة ثورات عالميَّة كبيرة ، وعلى الرغم من عمق الأبعاد التفكيريَّة والمعرفيَّة لديهم ، وتضلعهم بشتى الجوانب المعرفية ؛ وتزوّدهم بالمزيد من فنون العلوم وسعة المعارف وتمتّعهم بحدَّة الذكاء وثقوب النظر ما يزيد عن حد الوسط لكن لم يصلوا : سواء في معرفة الخالق المعرفة الحقَّة ، أو في تكوين صورة مشرقة من العبودية الصادقة الناصحة له سبحانه وتعالى إلى قول الفصل ؛ ولا خطاب بيِّن ؛ ولا كلمة حقَّة ولا صراط سويٍّ ، دعك ممَّا وقعوا فيه من الخبط والخلط والأخطاء الفادحة والأغلاط الفاحشة [٣] .

إنَّ مجال هذه المعرفة الحقَّة هو طريق الوحي ، وهي مخصصة لفئة من البشر هم الأنبياء الذين اصطفاهم الله تبارك وتعالى، وأنَّ هذه المعرفة ربانية المصدر ، فالوحي علم موحى من الله وبذلك يتميز عن التصوبات الفلسفية والعقلية الناشئة من الفكر

---

[١] ينظر : سوسولوجيا المعرفة :٣٤.

[٢] ينظر : إثبات النبوة من خلال آيات الوعيد والعتاب : ٣١ .

[٣] ينظر : م . ن : ٣١ – ٣٢ .

البشري [١] إنَّ هذا الحد هو ما يميز هذا النوع من المعرفة بل ويعطي الفكر البشري قيمته ومجالاته في عالم الشهادة والمعرفة بهذا النحو ، غير مختصة بالبشر بل شاملة لكل موجودات هذا الوجود .

«إنَّ أسس وأركان هذه المعرفة ثابتة لأنها صادرة عن الله تبارك وتعالى ، فهي لا تتأثر بالعوارض كالحسية والعقلية وهذه المعرفة شاملة وخالدة لعالم الشهادة ولعالم الغيب »[٢] قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾[٣]

ومن استقراء الرسائل المتبادلة بين الإمام علي (عليه السلام) وخصومه ، نجد توظيف هذا الركن المهم في نظرية المعرفة الإسلامية في إظهار أهمية هذه المعرفة ، والإيمان بها كأصل من أصول المعرفة الإنسانية ، إذ نجد معاوية يتناول هذه المعرفة في إظهار أهمية الخلفاء الراشدين ، إذ يقول في رسالة إلى الإمام (عليه السلام):

«أما بعد : فإن الله اصطفى محمداً بعلمه ، وجعله الأمين على وحيه ، والرسولَ إلى خلقه ، واجتبى له من المسلمين أعواناً أيَّده بهم ، وكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام ، فكان أفضلهم في الإسلام ، وأنصحهم لله ولرسوله الخليفةُ من بعده ثم الخليفةُ الخليفة ، ثم الخليفة الثالث المظلوم عثمان »[٤]

إن المعرفة الدينية للرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) واصطفاءه من قبل الله في إيصال رسالته إلى خلقه ، جاء هذا التوظيف من قبل معاوية لغاية أخرى في توظيف ذكر الخلفاء للوصول إلى غاية نفسية بدورها تصل إلى غايات سياسية في تحشيد جماهيري ضد الإمام (عليه السلام) باستشارة من ابن العاص ، أي إن الغاية الرئيسة من هذا التوظيف المعرفي هو التلاعب بمشاعر المسلمين البسطاء في تحشيد الجبهة المعادية للإمام (عليه السلام)، وليس لإظهار مورد النبوة ومنزلتها وعظمتها للمسلمين وبيان اعتقاده بها «لأن الذي ينطلق في ميادين الشهوات

---

[١] ينظر : نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ٧٨١.

[٢] أدوات المعرفة في القرآن الكريم :١٢٨.

[٣] سورة الحشر : ٢٢.

[٤] وقعة صفين : ٢ / ٨٦ – ٨٧ ، والعقد الفريد : ٤ / ٣٣٤ .

بلا قيود ، ويمضي في إشباع غرائزه إلى ابعد الحدود ، يستحيل عليه أن يبقى محافظاً على أفكاره واعتقاداته الدينية وقيمه الروحية »[١].

والإمام (عليه السلام) بفكره الثاقب لا تنطلي عليه هذه النوايا الكاذبة والأفكار غير الخالصة ، فيوظف النص السابق في خدمة المعرفة الحقّة لتوعية الجماهير المسلمة وإظهار الحقائق التاريخية من المشاكل والمعوقات التي واجهت الدعوة النبوية، وتكللت بالنصر وإظهار أمر الله ، إذ يقول في جوابه لمعاوية :

«أما بعد فان أخا خولانَ قدم عليَّ بكتاب منك تذكُر فيه محمداً صلى الله عليه وآله، وما أنعم الله به عليه من الهُدى والوحي ، فالحمد لله الذي صدَقَه الوعدَ ، وأيَّده بالنصر ، ومكّن له في البلاد ، وأظهره على أهل العداوة والشَّنآن من قومه الذين وثبوا عليه ، وشنفوا له ، وأظهروا تكذيبه ، ونابذوه بالعداوة ، وظاهروا على إخراجه وإخراج أصحابه وأهله ، وألَّبُوا عليه العرب ، وحزَّبوا الأحزاب ، وجَهِدوا في أمره كل الجهد ، وقلبُوا له الآمور ، حتى جاء الحقُّ وظهرَ أمر الله وهم كارهون ، وكان أشدَّ الناس عليه تأليباً وتحريضاً أُسرتُه ، والأدنى فالأدنى من قومه إلّا من عصم الله » [٢] .

إن اصطفاء الله لرسول الإنسانية محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قد اكتمل بنصره على أعدائه الذين هم قومه وعشيرته من الذين كذبوه وأقاموا العداوة ضده ، ولم يكتفوا بذلك بل ألبوا عليه العرب وجمعوا الأحزاب ؛ لما وعده الله لأنبيائه بالنصر على أعدائهم لإكمال الرسالة الإلهية .

إنَّ استجواب التاريخ لهذا النص يظهر لنا تكوين النظام المعرفي الواقعي عن طبيعة الحياة في ذلك الزمان والخريطة السياسية الدينية لهذا العالم آنئذ ، التي تبين الموقف الأموي كان على محك العداوة والبغضاء للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فضلاً عن الجهل والضلاله في عبادة الأوثان لذا «جاءت مواقف بني أمية من دعوة إسلامية بزعامة بني هاشم تارة منفردة عن طريق أفراد ينتمون إلى بني أمية ، وأخرى

---

[١] نظرية المعرفة المدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات :٣٢٢.

[٢] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٧٦ .

مقترنة مع الموقف العام لقريش ، بحيث يمكننا القول أنَّه ما من حركة أو سكنةٍ تقدِم عليها قريش إلا وتجد لبني أمية نصيباً وافراً فيها إن لم يكونوا قادتها » [١]

حتى أنهم سعوا إلى أبي طالب فقالوا : « يا أبا طالب أنَّ ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وظل آباءنا ، فأما أن تكفه عنا وأما أن تخلي بيننا وبينه »[٢] فكانوا الجبهة المعادية لنبي الله (صلى الله عليه وآله) مستعملين كل أساليب الردع والقمع والتشريد والقتل للتخلص من الدعوة الجديدة المتمثلة بالإسلام وعلى رأسها الرسول الأكرم ولم يكتفوا بذلك «بل يمكن القول إنَّ بني عبد شمس تزعمهم مقاومة النبي (صلي الله عليه واله وسلم) والعداء عليه قد عبدوا الطريق لأطراف الأخرى كي تحذو حذوهم في العداء للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذا ما أشار إليه أبو طالب في شعره الذي ينتقد فيه موقف بني عبد هاشم في هذا الأمر:

أرى أخَوينا من أبينا وأمِّنا ... إذا سُئلا قالا إلى غيرنا الأمرُ
بلى لهما أمرٌ ولكن تَجرْجَما ... كما جُرِجمت من رأسِ ذي العلق الصَّخر
أخص خصوصاً عبد شمس ونوفلاً ... هما نابذانا مثل ما ينبذ الجمر[٣]

فالنص السابق للإمام هو إشارة واضحة لبني أمية وموقفهم المنكر للإسلام وأصوله ومنها النبوة كما أسلفنا ، وقد أوضح الإمام أنهم لم يكتفوا بذلك وحاولوا قتل رسول الأمة (صلوات الله عليه وعلى آله) بكل الطرق ومنها اجتماعهم على قتله على فراشه لولا وحي الرسالة اخبره بذلك «فأراد قومنا قتلَ نبينا واجتياح أصلنا وهمُّوا بنا الهمُوم ، وفعلوا بنا الأفاعيل »[٤]وبنو هاشم هم رواد الدفاع عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد عرفوا حقه وصدقوا نبوته ، وصبروا على المحن وقاتلوا بين

---

[١] الدعاية الأموية المعادية للإمام علي (عليه السلام) دراسة في سياسية السب : ٣٨.

[٢] السيرة والمغازي : ١٤٨، والسيرة النبوية :٦/٢ ، والكامل في التاريخ :٦٦١/١.

[٣] ديوان أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وآله : ٤٨ .

[٤] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٧٧ .

يديه، وقد استشهد كثير منهم في معارك الإسلام ، ومن استقراء الأحداث وتفضيل الرسول لهم فكانت منزلتهم عند الله وفضلهم في الإسلام كبيراً ، لا يسبقهم فيه احد :

«فما سمعتُ بأحد ولا رأيتُه هو أنصح في طاعةِ الله ورسوله ولا أصبر على اللأواء، والسَّرَّاء والضَّرَّاء ، وحين البأس ، ومواطن المكروه مع النبي صلى الله عليه وآله من هؤلاء النفَر الذين سميَّت لك ، وفي المهاجرين خير كثير يُعرف ، جزاهم الله خيراً بأحسن أعمالهم »[١] .

فكانت معرفة أنبياء الله موضع تحمل الآلام والمصاعب والقتل والتشريد والصبر مع النبي من أجل الوصول إلى المعارف الإلهية ، ومعرفة الحقيقة المطلقة والوصول إلى الكمال الذي يطمح له الإنسان في فطرته ، ولولا إيمانهم المطلق بالرسالة السماوية لما كان هذا التحمل للآلام والمصائب والقتل ، لأن الكمال الحقيقي للإنسان يتحقق في ظل القرب لله ، ومن البديهي أن القرب لله تعالى لا يحصل من دون معرفته ومعرفة أنبيائه [٢] .

ومن منطلق المعرفة والإيمان بالخالق عز وجل وتمسكه بالإسلام ، وبالخط الذي نهجه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول الإمام (عليه السلام) في مقطع من رسالة له لمعاوية بن أبي سفيان :

«ما استبدلتُ ديناً ولا استحدثتُ نبيَّاً وإني لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتم به مُكرَهين »[٣].

يظهر الإمام ثباته واستقامته في خط الإسلام والإيمان ، فهو لم يبتدع في الدين شيئاً ولا اختار نبياً غير نبي الإسلام ، فكل تحرك له كان منضبطاً في إطار قيم الإسلام ومبادئه ، ويشير من خلال استقرائه للأحداث إدراكاً تصديقياً يتعلق بموقف أبي سفيان وأذنابه وأعوانه ، بعد قبولهم الإسلام ظاهراً مكرهين يوم فتح مكة ، والشواهد التاريخية تشير إلى أنهم لم يعتنقوا الإسلام أبداً ، ولم يؤمنوا طواعية ، وعندما

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٥ / ٧٧ .

[٢] ينظر منهج جديد في تعلم الفلسفة : ٢ / ٣٥٢ .

[٣] نهج البلاغة : ٤٣١ .

استلموا مقاليد السلطة نقضوا سنن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) واحدة بعد الأخرى ، وبهذا يكون الإمام (عليه السلام) قد ربط قضية جزئية في أنهم دخلوا الإسلام مكرهين، وتركوه طائعين ، نظراً لما ذكره الإمام (عليه السلام) عن نفسه ولاسيما أنَّ مفردة (ترك) تقال في موردٍ يكون الإنسان قد قبل شيئاً قبل ذلك أو ذهب إلى مكان معين وتركه بعد ذلك[١].

يتبين في هذا المقطع من الكتاب أنه يشير إلى «الجهة الشرعية الوحيدة التي تمتلك هذه المواصفات ، فهو على بينة من ربه ، وعلى منهاج من نبيه وهذان يمثلان المعرفة الكاملة ، فإذا كان الله عز وجل أعطاه البينة والدليل فهو لا يحتاج إلى أحد أخر يفسر له الأحكام والآيات ، وإنما يمتلك ذلك بطريق إلهامي ، والجانب الأخر هو إشارته الى المنهاج النبوي ، وهذا يعني أنه قد حفظ السنة النبوية بتقريراتها كافة مع أوامرها ونواهيها ، فهو يمتلك منهاجاً نبوياً زيادة على البينة الربانية ، وهذا يقضي إلى نتيجة مفادها أنه لا يمكن أن تشتبه عليه الأمور أو يقع في دائرة الشك » [٢].

ونظرا لتوقف إرسال الأنبياء والمرسلين ، واختتامهم بخاتم الأنبياء أشرفهم منزلة ومقاماً عند الله ، النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من جهة ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[٣]، وضرورة وجود القائد الإسلامي الذي يحافظ على دين الحق ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [٤]ويمثل دور الأنبياء في مسيرة الإنسان والأمة الارتقائية التكاملية من جهة أخرى ، استلزم الحال وجود أئمة (عليهم السلام) يحملون عبء الرسالة

---

[١] ينظر : نفحات الولاية شرح نهج البلاغة :٩ / ١٢٧.

[٢] الخطاب في نهج البلاغة بنيته وأنماطه ومستوياته دراسة تحليلية : ٤٨.

[٣] سورة الحديد :٢٥.

[٤] سورة التوبة : ٣٣

والمسؤولية ، وهم في الواقع على قدرها ومستواها النظري والعلمي [١] وقد أشار القرآن إلى هذه الأهمية للإمامة : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [٢] وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [٣] .

ومن منظور آخر ، نجد البحث الاعتقادي في النبوة قد نشأ مرتبطاً ــ تاريخياً ونظرياً ــ بتبلور عقيدة الشيعة في الإمامة ، وهي الأصل الذي تعتمد عليه الدعوة الشيعية كلها ، فهي المحور الأساس الذي تدور عليه دائرة الفرائض التكلفية عندهم ، فلا يصح وجودها إلا بوجود الإمام ، لأنَّ ولاية الإمام هي الركن الرئيس لجميع أركان الدين [٤].

والحقيقة إنَّ الإمامة هي استمرار لوظائف النبوة في مجالاتها أجمع ، إذ إن الرسالة لم تستكمل بعد جميع أهدافها ؛ لأن غايتها القصوى لم تكن ؛ لتستوعب حياة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بلوغها ، فكان والحال هذه لا بد من قيام أشخاص كاملين ، بعد النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، بإكمال المسير الذي بداه ، بأن يبينوا جميع أحكام شريعة الله تعالى ، وينشرون دين العدل الإلهي في كل ميادين الحياة ، وبهذا تكون ضرورة الإمامة لا تقل عن ضرورة النبوة ، بل هما متلازمتان لا تنفك إحداهما عن الأخرى [٥] ، فتكون الإمامة حينئذ منطلقاً من منطلقات المعرفة البشرية ، وركناً مهماً من أركان الاعتقاد الإسلامي .

---

[١] ينظر: نظرية المعرفة في الإسلام :١٠٢.

[٢] سورة المائدة :٦٧.

[٣] سورة المائدة :٥٥.

[٤] ينظر الخطاب السياسي في الشعر الفاطمي : دراسة أسلوبيه :١٠٠.

[٥] ينظر : بداية المعرفة منهجية حديثة في علم الكلام :٢٤٢ – ٢٤٣ .

والرؤية العقائدية تقرر «أنَّ الإمامة حق مقدس لآل البيت وعقبهم يختصون بها ، وتنحصر فيهم ، فهي ميراث يرث المنصوص عليهم من ذرية الإمام علي »[١]، ولا يستطيع أحد أن ينافسهم عليها ، فهم بيت النبوة ومهبط الرسالة ، ووصية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

والأئمة هم صفوة خلق الله ، وورثة دينه تلك الوراثة الربانية ، وليست النسبية فيمن حقق شروط الإمامة في الدين ، أما من لم يهتد ولم يقتدِ بسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فليس له في الوراثة الدينية نصيب قال تعالى : ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٢] .

إنَّ الإمامة خلافة الله وطريق هدايته ، ومنزلة الأنبياء وإرث الأوصياء ، ولهذا يؤكد الإمام (عليه السلام) أهمية الإمامة ، وأنها من مواثيق الله على العباد ، في رسائله لخصومه ، إذ يقول في رسالة إلى معاوية :

«ومن العجب أنْ تصف يا معاوية الإحسان ، وتخالف البرهان ، وتنكُث الوثائق التي هي لله عز وجل طلبه ،على عباده حجَّةٌ ، مع نَبذِ الإسلام ، وتضييع الأحكام ، وطمس الأعْلام والجرْي في الهَوى ، والتَّهوُّس في الرَّدَى »[٣]

إن مخالفة العقل في عدم طاعة الله في أوامره ، بعد أن أكد الحجة ، وبين الهدى من الضلالة ، وخلاف ذلك «لن يقبل الله تعالى من مطيع طاعة إلا بطاعة من افترض عليه طاعته من أوليائه »[٤]

فهؤلاء «هم أبواب الله والإدلاء عليه والشهداء على الناس ، فطاعتهم طاعة الله وأمرهم أمره ، ونهيهم نهيه ، وعصيانهم عصيانه له تعالى ، فيجب الائتمار بأمرهم

---

[١] الخطاب السياسي في الشعر الفاطمي :٩٩.

[٢] سورة البقرة : ١٢٤ .

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦ / ٧ .

[٤] الخطاب السياسي في الشعر الفاطمي :٩٧.

والتسلم لقولهم وفعلهم ؛ فهم الطريق إلى الله »[١]، وهم حجج الله فمخالفتهم هي تضييع للإسلام وتغييب أحكامه ،لأنَّ الإمامة هي أحدى دعائم الإسلام ، بل أنّها المحور الذي تدور عليه العقائد فلا دين لمن لا يعتقد إمامة الأئمة المنصوص عليهم من أهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولا يقبل الله تعالى عمل مسلم إنْ لم يعتقد بولايتهم ويطيعهم مثل طاعته للرسول الكريم ، وطاعته لله تعالى ، فهذه ثلاث طاعات مقرونة متصلة أمر بينها الله تعالى في كتابه الكريم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [٢] فالأئمة هم أولو الأمر الذين ذكرهم الله تعالى في هذه الآية الكريمة [٣].

ولهذا يؤكد أمير المؤمنين (عليه السلام) في نص آخر من الرسالة نفسها إذ يقول:

«إنَّ للناس جماعةً يدُ الله عليها ، وغضبُ الله على من خالَفَها فنفسك نفسك قبل حلول رَمسك [٤]، فإنك إلى الله راجع، وإلى حشرِه مُهطع ، وسَيَبهظَك كربُه[٥] ، ويُحلّ بك غمُّه ، يوم لا يُغنى النادمَ ندمُه ، ولا يُقبَلُ من المعتذر عُذره ، يوم لا يُغني مولى شيئاً ولا هم يُنصرون »[٦]

إنَّ الله اختار الأئمة خلفاءه في الأرض على الناس ولم يترك لهم اختيار الإمام لحكمة منه سبحانه وتعالى ولهذا روي عن الإمام الرضا (عليه السلام) في حديث طويل قال : «هل يعرفون قدر الإمامة ومحلها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم ؛ أنَّ الإمامة أجلُّ قدراً ، وأعظم شأناً ، وأعلى مكاناً وأمنع جانباً ، وأبعد غوراً من أن تبلغها الناس بعقولهم أو ينالوها بآرائهم أو يقيموا إماماً باختيارهم ، فمن أين يختار هؤلاء الجهال ؟

---

[١] الخطاب السياسي في الشعر الفاطمي :٩٩.

[٢] سورة النساء :٥٩.

[٣] ينظر: آداب إتباع الأئمة :١ : ١٩,٣٨، ودعائم الإسلام : ١ :٤٦، وظهر الإسلام :٤/ ١١٠.

[٤] الرمس : القبر

[٥] مهطع : مسرع وخائف ، وبهظه الأمر : غلبه وثقل عليه وبلغ به المشقة .

[٦] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ٨ .

إنَّ الإمامة هي منزلة الأنبياء وإرث الأوصياء ، إنَّ الإمامة خلافة الله وخلافة الرسول ومقام أمير المؤمنين ، وميراث الحسن والحسين ، إنَّ الإمام زمام الدين ونظام المسلمين ، وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين ، فمن ذا يبلغ معرفة الإمام أو يمكنه اختياره؟

هيهات هيهات ضلت العقول ، وتاهت الحلوم ، وحارت الألباب وخسئت العيون عن وصف شأن من شأنه أو فضيلة من فضائله ، وأقرت بالعجز والتقصير ...

راموا إقامة الإمام بعقول حايرة بايرة ناقصة وآراء مضلة ، فلم يزدادوا منه إلّا بعداً ، رغبوا عن اختيار الله واختيار رسوله إلى اختيارهم ، والقرآن يناديهم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [1] وقال عز وجل : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [2] فكيف لهم باختيار الإمام؟ ! والإمام عالم لا يجهل ، راع لا ينكل ، معدن القدس والطهارة ، والنسك والزهادة ، والعلم والعبادة » [3] .

ولهذا كان غضب الله على من خالف أولياء الله .

ويبدو من النص في رسالة أمير المؤمنين (عليه السلام) أنَّ عذاب القبر ومساءلة المحشر قد ارتبطت بمخالفة الجماعة التي اختارها الله أن تكون أولياءه وحجته على عباده كما في تفسير قوله تعالى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [4] ففي رواية أنهم يساءلون عن ولاية أمير المؤمنين[5] .

---

[1] سورة القصص : ٦٨ .

[2] سورة الأحزاب : ٣٦ :

[3] الفصول المهمة في أصول الأئمة (عليهم السلام) :١/٣٨٥- ٣٨٦.

[4] سورة الصافات : ٢٤

[5] عن أبي سعيد الخدري أن النبي قال : وقفوهم إنهم مسؤولون عن ولاية علي ، ينظر: الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة : ١٤٧ ، وخصائص الوحي المبين : ١/ ١٤٢ ، وشواهد التنزيل لقواعد التفضيل : ٢ / ١٦١ ، وكشف الغمة : ٩٢ ، وتفسير الفرات الكوفي: ٣٥٥، والمرجعات : ٤٠ .

وقد أخبر الله تعالى عن الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون عن أنفسهم بالملامة ، ويعترفون بأنّهم ظالمون لا نفسهم في دار الدنيا ، فإذا ما عاينوا أهوال يوم القيامة ندموا كل الندم إذ لا ينفعهم الندم ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾[1] فتقول الملائكة والمؤمنون ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[2] .

وأشار فيه أيضاً لقوله تعالى ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[3] ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في تفسير هذه الآية: «يدعى كل قوم بإمام زمانهم وكتاب الله وسنة نبيهم»[4] .

ويؤكد الإمام هذا المعنى في كتاب آخر لمعاوية بن أبي سفيان في بيان رفض ولاية الأمر على الرغم من الحقائق والحجج المؤكدة ، وتخبطه في التيه والإصرار على إتباع الأهواء المضلة :

«فسبحان الله ! ما اشدَّ لزومكَ للأهواءِ المبتدعةِ ، والحيرة المتَّبعة ، مع تضييع الحقائق ، واطِّراحِ الوثائق ، التي هي لله تعالى طلبةٌ وعلى عباده حجَّةٌ » [5]

فالإمامة هي مطلب إلهي الدعوة للسير على طريق الهداية والابتعاد عن البدع والأهواء المضلة التي تجعل الإنسان يتخبط في التيه والحيرة ، فمعاوية وأذنابه قد اتخذوا نافذة الضلالة والتعصب القبلي وحب السلطة والمادة ، ويعنيهم الشيطان فهي ذلك ولياً ، يوم لا يغنى عنهم شيئاً في ذلك اليوم الرهيب فيعظهم الإمام بان تكون المعرفة سراجا لهم.

وأحقية أئمة أهل البيت في ولاية الأمر يؤكدها الإمام (عليه السلام) في نصوص معرفية أخرى في الرسائل المتبادلة بينه وبين خصومه ، إذ يقول (عليه السلام):

---

[1] سورة الصافات : ٢٠

[2] سورة الصافات : ٢١

[3] سورة الإسراء : ٧١

[4] الدر المنثور في تفسير بالمأثور: ٤ / ٣٥١

[5] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٥٤ .

«يا بن حرب ، إنَّ لجَاجَك في منازعة الأمرِ أهله من سفاهِ الرأي ، فلا يطمعنَّكَ أهل الضلال ، ولا يوبقنَّك سفه رأي الجهال »[١]

الإمام يعظ معاوية في استعمال نافذة العقل للوصول للمعرفة الحقّة فالمعرفة ، وعدم الإخضاع لحجب المعرفة في اتباع الهوى وضلالة المضلين والتنكر للأهل هذا الأمر «لان الإمامة كما عرفنا ليست مجرد رئاسة دنيوية على الأمة بل هي رسالة إلهية عليها ، وهي تعي استمرار أداء الوظائف الرسالية التي كان النبي مكلفا بها ، في جميع أبعادها الدينية والدنيوية ، لغاية تحقيق أهداف الرسالة الخاتمة كاملة ، وهي بسط حكومة الله تعالى في الأرض ، وهداية البشر إلى الشريعة القويمة والدين الوسط الذي يحقق لهم سعادة الدارين »[٢].

فالإمامة هي عهد الله على الخلق ، «والإمام ـ بالدرجة الأولى ـ مبين لشريعة الله تعالى ، ومفصح عن سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وليس مجرد مدير يسوس الرعية ويوفر لها أمنها ومأكلها ومشربها ، وعلى هذا ، لا يكون النزاع في إمامه ، فلان أو فلان ، نزاعاً في رئاسة هذا أو ذاك ،بل يعود إلى الإثبات المبين لشرع الله وسنّة الرسول ، والهادي للأمة بقوله وفعله إلى الغاية المشرقة التي أرسلت لها الرسالة الخاتمة »[٣]

ولهذا فإنَّ للأمر أهله الذين حملهم الله هذه المسؤولية الكبيرة، وليست إمامة الأمة مجرد رئاسة دنيوية كما يراها معاوية ومن دبَّ في هذا الأمر ، وهي من سفاهة وجهل المعرفة البشرية .

وكان لابد لمن يتولى أمر هذه الأمة أن تتوفر فيه خصال متميّزة تفرز الأكثر استحقاقاً من غيره .

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٨٥ .

[٢] بداية المعرفة منهجية حديثة في علم الكلام : ٢٦٨

[٣] م . ن :٢٦٨.

أما الذي حدد النقاط الأساسية التي يجب أن تعتمد وتتخذ منهجاً معرفياً للسير عليه ؛ هو أمير المؤمنين علي (عليه السلام) وقد جاء ذلك في كتاب بعثه إلى معاوية بن أبي سفيان ، مبيناً تلك الضوابط المهمة :

«فإن أولى الناس بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً أقربها من رسول الله وأعلمها بالكتاب ، وأفقهها في الدين ، أولهم إسلاماً وأفضلهم جهاداً ، وأشدهم بما تحمله الأئمة من أمر الأمة اضطلاعاً ، فاتقوا الله الذي إليه ترجعون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » [١]

النص السابق يشير إلى الصفات التي يجب توفرها في ولي أمر أمة الإسلام على مرِّ العصور أي إنَّ هذه الصفات هي الأعمدة الأساسية والأركان المهمّة لبناء الولاية والحكم كما افترضها الله ، وهذه في الحقيقة لم تتوفّر أبداً في غير أهل البيت (علي وبنيه عليهم السلام)[٢]

إن أمير المؤمنين (عليه السلام) « أراد من هذا الطرح والإيحاء البارع لمعاوية وغيره ، أنه صاحب الحقّ في خلافة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث الخصائص اللازمة التي تقدّم الإنسان المسلم لولاية الأمر والإمامة والتي لا توجد لدى غيره »[٣]

إنَّ المتتبِّع لأحداث التاريخ الإسلامي يجد أنّ الأمر عكس ما كان يتوقع منه ، إذ استحوذ على ولاية هذه الأمة الآخرون مع علمهم بحقِّ أمير المؤمنين في ذلك ؟ حيث انقلب الكثير على أعقابهم بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على الرغم ما أوصى به الرسول وأكده مراراً بان أولى الناس بهذا الأمر علياً (عليه السلام)، وأصبح كل يدعو إلى نفسه ، وفي أحلك ظرفٍ مرَّ به الإسلام ، إذ طفحت من جديد

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٣ / ٢١٠ .

[٢] ينظر : الرسائل السياسية بين الإمام علي (عليه السلام) ومعاوية : ٢٩٨ .

[٣] م . ن : ٣٠١ .

النعرات القبلية والمساومات الشخصية ، وضاع الباقون وسط تشتّت الفكر السياسي[١].

وكان الجانب المعرفي لدى أبي سفيان أكثر إدراكاً من ابنه معاوية على الرغم من أهوائه المادية وأبعاده الشخصية في قول ذلك ، إذ يقول الإمام (عليه السلام) في كتابه إلى معاوية :

«وقد كان أبوك أبو سفيان أتاني حين قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : أنت أحق بمقام محمد ، وأولى الناس بهذا الأمر ، وأنا زعيم لك بذلك على من خالف، ابسط يدك أُبايعك ، فلم أفعل ، وأنت تعلم أن أباك قد قال ذلك وأراده ، حتى كنت أنا الذي أبيتُ عليه ، مخافة الفرقة بين أهل الإسلام ، لقرب عهد الناس بالكفر ،فأبوك كان أعرف بحقّي منك ، فإن تعرف من حقّي ما كان أبوك يعرف تُصِب رُشدك وإلا فنستعين الله عليك ، والسلام لأهله »[٢].

إنَّ الإمام من خلال المعرفة الحسية التاريخية التي تكون أقرب للإقناع الخصم فضلاً عن استشفاعه بالمعرفة النفسية التي يظهرها بين الأب والابن ، يعرض مسالة أحقيته في إمامة الأمة لمعاوية ، حتى يرجع لرشده صوب الهداية .

والنص يظهر حرص الإمام على وحدة الأمة وإدامة الإيمان في قلوب المسلمين من خلال إطالة العهد في جمع شملهم ووحدتهم وعدم تفرقتهم على الرغم من أهمية الإمامة ودورها في قيادة الأمة نحو السعادة والتكامل المعرفي والوصول إلى الغاية الرئيس في لقاء الله وهو يتأتى من خلال مسؤولية الإمام الحقيقي في ولاية أمر هذه الأمة .

وخلاصة الأمر أنَّ معرفة أنبياء الله ، وأولي أمر الأمة ، تجسد الإسلام الحقيقي وتسير نحو مسيرته الارتقائية التكاملية ، مما يحقق أهدافه وغاياته المنشودة من وجوده في هذا العالم .

---

[١] ينظر : الرسائل السياسية بين الإمام علي (عليه السلام) ومعاوية : ٣٠١

[٢] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٧٨ .

المعاد:

أصل ثابت من أصول الاعتقاد، لا في الإسلام وحده ، بل في سائر الأديان السماوية ، وهو الأصل الذي اقترن بالتوحيد والنبوة .

والمعاد في اللغة : المصير والمرجع، والآخرة ، معاد الخلق ، كل شيء إليه المصير ، والآخرة معاد للناس [١].

أما في الاصطلاح : «هو الوجود الثاني للأجسام وإعادتها بعد موتها وتفرّقها»[٢] وعرّف أيضاً بأنه «الرجوع إلى الوجود بعد الفناء ، أو رجوع أجزاء البدن إلى الاجتماع بعد التفرّق ، وإلى الحياة بعد الموت ، ورجوع الأرواح إلى الأبدان بعد المفارقة »[٣].

والمعاد هو عودة الرُّوح بعد مفارَقَتها للجَسَد، مرّة أُخرى- وبإذن اللّه ومشيئته- إلى الإنسان يوم القيامة ليلقى جزاءَ ما عَمِلَهُ في الدنيا، في العالم الآخر، إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فشرّ [٤].

والمستقرئ للأفكار والمسائل الأساسية والمهمة التي تجول في خاطر الإنسان وقلبه، يتمحور سؤال إلى أين يذهب الإنسان بعد موته ؟ ، وبناء على معرفة الإنسان القرآني واستيعابه يجيب على ذلك الاستفسار والتساؤل من حيث الشمول والدقة المتناهية والمصداقية .

ومن أجل استيعاب الإجابة ومعرفتها على هذا السؤال لابد من إدراك ومعرفة الله تعالى حق المعرفة ؛ وذلك من خلال النظر والتدبر في الآيات الآفاقية والأنفسية والتدبر بها التي يعجز القلم واللسان عن تدوينها والتحدث بها ، ولكي يعرف إلى أين يذهب ؟ يجب عليه أن يعرف نقطة الرجوع ، « وذلك من خلال التأملات العقلية والفطرية ، والاستقراءات المنطقية كحركة الإنسان منذ إنشاء نطفته الأولى إلى الولادة

---

[١] ينظر : لسان العرب : ٣ / ٣١٧ .

[٢] أضواء على النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر: ٣٠٠ .

[٣] شرح المقاصد : ٥ / ٨٢ .

[٤] ينظر : العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت : ٢٣٤.

مروراً بمراحل الحياة إلى الممات ، وربطها بالحكمة الإلهية ، والأهداف والغايات المتوخاة في هذه الحياة وباستنطاق الآيات القرآنية المجيدة المتعلقة بحشر الأموات والبرزخ وأحوال القيامة ، من عذاب ونعيم الآخرة ، من الراحة والخلود في الجنة إلى غير ذلك من المسائل والأمور التي تبلور فكرة المعاد والرجوع إلى الله تعالى» [١] ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [٢]

ويعد «المعاد من الأصول الثلاثة التي التزمت بها سائر الديانات السماوية ، بل وقالت فيه جملة من الديانات الوثنية أيضاً ؛ وذلك لأنها تمثل استجابة فطرية لعالم ستظهر فيه الحقائق عياناً كما هي ، وتغيب فيه الاستظهارات كلّياً ويحلّ التشخيص وتغيب فيه الصور والخواطر، ويحضر المُصوَّر ، والكل يمثل أمام الله الخالق البارئ المصور ، فهو العالم الذي تستقر فيه النفس من شحناء الخواطر النفسية والأسئلة الفطرية والإشكالات الإستراتيجية التي تولد مع الإنسان ، فيقدم فيها قدماً ويؤخر أخرى، فجميع الأجوبة الحصولية قد تصنع لنا منظومة فكرية محكمة ، وقد توطّد عرى الإيمان ولكنها ستبقى شبه عاجزة عن توفير الاطمئنان المطلوب فطرياً » [٣].

إن النصوص القرآنية أولت البيئة الأخروية عناية بالغة الأهمية نظراً لكونها من جانب حصيلة الجزاء المترتب على العمل العبادي في الدنيا وكونها البيئة الخالدة من جانب آخر [٤]؛ لذا فإن النصوص القرآنية التي تناولت موضوع المعاد شكّلت مساحة واسعة وحضوراً منقطع النظير ، لعله لا يضاهيه إلا المعارف التي عرضت لموضوع التوحيد[٥]، إذ يقول سبحانه وتعالى : ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ

---

[١] نظرية المعرفة في الإسلام : ٤١ – ٤٢ .

[٢] سورة البقرة :١٥٦ .

[٣] المعاد رؤية قرآنية : ٥/١.

[٤] ينظر : تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي : ١٠٧ .

[٥] المعاد رؤية قرآنية :٧/١ .

الْقَرَارِ﴾[١] ، وقوله أيضا : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [٢] وقوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[٣] .

أما أحاديث الرسول في المعاد يقول (صلى الله عليه واله وسلم) :

«المعاد مضمار العمل ، فمغتبط بما احتقب غائم ومبتئس بما فاته نادم »[٤] وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : «يا بني عبد المطلب ، إنَّ الرائد لا يكذب أهله ، والذي بعثني بالحق لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، وما بعد الموت دار إلا جنة أو نار ، وخَلْقُ جميع الخلق وبعثهم على الله عزَّ وجلّ كخلق نفس واحدة وبعثها ، قال الله تعالى: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾»[٥]

إن هذه العناية القرآنية والنبوية بموضوع المعاد تنمّ عن العلاقة الوثيقة لهذا الأصل المعرفي بالبعد المدني الاجتماعي للإنسان ، نظراً لكون القرآن والحديث النبوي يمثل الأطروحة الأمثل في صياغة المجتمع المثالي الفاعل في الأرض والمتفاعل مع السماء.

والإمام (عليه السلام) يبين هذه الأهمية في خطاباته إلى لخصومه كما يبين حقائق هذا اليوم من وجوه عدة نستعرض منها ما جاء في رسالته إلى معاوية بن أبي سفيان :

«أما بعد : فإن الله سبحانه جعل الدنيا لما بعدها ، وابتلى[٦] فيها أهلها ، ليعلم أيُّهُم أحسَنُ عملاً ، ولسنا للدنيا خُلقنا ولا بالسَّعي فيها أُمرنا ، وإنما وُضعنا فيها لنُبْتلى بها ،

---

[١] سورة غافر :٣٩.

[٢] سورة العنكبوت : ٦٤.

[٣] سورة المؤمنون : ١١٥.

[٤] تنبيه الخواطر : ٢ / ١١٩ .

[٥] بحار الأنوار : ٣١/٧، والآية من سورة لقمان : ٢٨ .

[٦] ابتلى : أي اختبر .

وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي فجعلَ أحدنا حُجَّة على الآخر فغدوتَ على طلب الدنيا بتأويل القرآن »[١]

يظهر النص المعرفي حقيقة الدنيا ، فهي الوسيلة والمنطلق إلى التكامل البشري ، ويحصل للمرء بمقدار سعيه وجهده في تسخير الطاقات الدنيوية لهذا الغرض ، ليكون صالحا لدخول دار رحمة الله تعالى ، وهو منطلق معرفي غيبي ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [٢] وقوله تعالى : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[٣] فالدنيا طريق الآخرة .

أما الابتلاء والحجة ، فحجة الإمام (عليه السلام) على معاوية فهو إمام مفترض الطاعة أما حجة معاوية عليه كحجة إبليس على آدم أو فرعون على موسى وأن الإنسان يعيش شكلي الابتلاء بالخير والابتلاء بالشر في كل لحظة من لحظات عمره ، وفي كل عمل من أعماله بشكل مزدوج أي أنّه في كل موقف ابتلاء يكون طرفاً مقابلاً لإنسان آخر يعيش الوجه المقابل من موقف الابتلاء ، فالذين يختبرون ـ أفراداً أو جماعات ـ بالغنى في موقف ما ، يشاركهم في نفس الموقف أناس يختبرون بالفقر، والذين يختبرون بالنصر في موقف ما يشاركهم في نفس الوقت أناس يختبرون بالهزيمة، ، والذين يختبرون بالعلم في موقف معين يشاركهم في نفس الموقف أناس آخرون يختبرون بالجهل والتخلف ، والذين يختبرون بالإيمان في موقف ما يشاركهم في نفس الموقف أناس يختبرون بالكفر[٤]، «وهكذا فالناس في كل موقف من مواقف الحياة زوجان متقابلان لعلاقة الابتلاء – أفردا وجماعات وأمماً – كل يختبر ويبتلى بالآخر ويتولد من هذا الابتلاء المتبادل أفعال الطاعة والمعصية ، ومظاهر الصواب

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٧ / ١٣٥ .

[٢] سورة الملك : ٢

[٣] سورة القصص :٧٧.

[٤] ينظر : فلسفة التربية الإسلامية ،دراسة مقارنة بين فلسفة التربية الإسلامية والفلسفات التربوية المعاصرة :١٧٣– ١٧٤ .

والخطأ ، والحق والباطل ، والفضيلة والرذيلة ، إذ يطلب إلى الأزواج المتقابلة أن تستجيب لأوامر الله وتوجيهاته فيما يخص دورها في مواقف الابتلاء » [١].

ويؤكد الإمام المسير إلى الآخرة ولا عذر للذين غرتهم هذه الدنيا بزينتها ، لأنَّ الموت والجزاء على العمال نهاية حتمية على كل إنسان وأن الحياة لم تخلق عبثا ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [٢] فيحرص على تنبيه خصومه ويحذرهم الموت الذي لابد منه :

«أما بعد : فإن الدنيا حُلوة خَضِرة ذات زينة وبَهجة ، لم يَصب إليها أحد إلا شَغَلَته بزينتها عما هو أنفع منها ، وبالآخرة أُمِرنا وعليها حُثثنا ، فدع يا معاوية ما يفنى ، واعمل لما يَبْقى واحذر الموت الذي إليه مصيرُك والحسابَ الذي إليه عاقبتك واعلم أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً حال بينه وبين ما يكره ووفَّقه لطاعته ، وإذا أراد الله بعبد سوءً أغراهُ بالدنيا وأنساه الآخرة ، وبسَطَ له أمله وعاقَه عما فيه صلاحُه »[٣].

فخطاب الإمام يبين أن الدنيا هي مطية الآخرة ، وأن الآخرة هي دار الخلود وأعمال الإنسان وملكاته الباطنية من خير أو شر ، تظهر في العالم الأخروي تأكيداً لقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [٤] ، فالإنسان يرى العمل نفسه ، ولكن ليس العمل الذي كان في الدنيا ؛ لأنه كان في زمان ومكان معينين بل يرى باطن العمل وملكوته وحقيقته التي صارت أثراً مؤثراً في النفس وعند ذلك تبقى ما دامت النفس باقية ، وكلما كانت النفس باقية فهذا العمل سيكون معها خيرا كان أو شرا [٥] لذا روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال : «إن الله

---

[١] فلسفة التربية الإسلامية ، دراسة مقارنة بين فلسفة التربية الإسلامية والفلسفات التربوية المعاصرة : ١٧٤ .

[٢] سورة المؤمنون : ١٥٥ .

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٥٣ .

[٤] الزلزلة : ٧ – ٨

[٥] المعاد رؤية قرآنية : ١/ ١٢.

يحشر الناس على نياتهم يوم القيامة »[١]

ويشير الإمام (عليه السلام) في خطابه لمعاوية أنَّ الله جعل سبل النجاة والهداية وبينها في كتابه وأخبر عز وجل أنه يهدي به من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاته سبل السلامة والنجاة من كل خوف وشقاء ، ويخرجهم من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان بتوفيقه وإرادته ،فقال جل جلاله : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [٢].

ومنهج الإمام المعرفي هو التحذير في عواقب الأمور ، قبل فوات الأوان ، والتذكير بالموت وأهوال يوم القيامة حتى يتعظ الإنسان وينظر إلى ما عمل من سوء ، فمهمة الأنبياء والأوصياء هو هداية الناس وتحذيرهم من الضلالة ، فهي الأمانة التي كلفهم الله بها إذ يقول في رسالته إلى معاوية :

«ولكن الله تعالى أخَذ على العلماء أن يُؤدوا الأمانة ، وأن ينصحوا الغَويَّ والرَّشيد ، فاتَّقِ الله ولا تكن ممَّن لا يرجُون لله وقاراً ،ومن حقَّت عليه كلمةُ العذاب ، فإن الله بالمِرصاد وإن دنياك ستُدبر عنك وستعُود حسرة عليك »[٣]

إنَّ قراءة النص تظهر لنا أنَّ خطاب الإمام (عليه السلام) خطاب معرفي ارشادي إنساني ينطلق من قول الرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «العلماء ورثة الأنبياء »[٤]، في حمل الرسالة الإنسانية ، ونشرها رحمة للعالمين .

ويظهر الخطاب أيضاً أنَّ الفرصة الوحيدة للرجوع عن الكفر والمعاصي ، والإقبال على الإيمان بالله عز وجل ، وصالح الأعمال هي فرصة الحياة الدنيا فهي دار الابتلاء والامتحان ، وهي دار العمل والتكليف ، الطريق الوحيد للنجاة من عذاب الله ،

---

[١] الكافي : ١ / ٤٠٩ .

[٣] سورة المائدة : ١٥-١٦.

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٣٣ .

[٤] الكافي : ١ / ٣٤ .

وقد أمر الله سبحانه الكفار والمعاندين بالاستجابة للحق قبل فوات هذه الفرصة ، وذلك قبل الموت وقبل قيام الساعة فقال : ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾[١]، وهو أيضاً أكده وحثَّ عليه الأنبياء (عليهم صلوات الله وسلامه) في دعوتهم إلى الله ، والكافر الذي يرفض الإذعان للأمر ، والاستجابة للحقّ ، ويتمسك بالباطل ، يندم ويتحسّر على فوات هذه الفرصة ، وعلى التفريط في الأعمال الصالحة ، ولذلك يطلب الرجوع إلى الدنيا لتدارك ما فاته من صالح الأعمال ، ويتمنى النجاة من العذاب [٢].

وفي موقف آخر من مواقف المعرفة بعالم الغيب والمعاد ، يحذر الإمام من مخالفة أهل الحق ، فإن الناس مساءلون عن هذا إذ يقول في مقطع من كتابه إلى معاوية : «فنفسك نفسك قبل حلول رمسك[٣] ، فانك إلى الله راجع ، وإلى حشره مهطع [٤]، وسيبهظك كربه ، ويحل بك غمه ، يوم لا يغنى النادم ندمه ،ولا يقبل من المعتذر عذره ، يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينظرون »[٥].

إنَّ بعثة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) في سياقها الكلي ، هي لطف ورحمة من الله للناس كافة ، لقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٦] ، وبما أن أن الولاية هي جزء متمّم للنبوة ؛ فإن أمير المؤمنين (عليه السلام) متمّم لتلك الرحمة ، إذ نجد حتى في رسائله لخصومه يستوعب تلك الرحمة ، وذلك اللطف ، فيأخذ بالتنبيه والتوجيه ، والوعظ ويصيغ رسالته « بأشد أنواع الإثارة العاطفية بالنسبة للمتلقي وليس بالنسبة إلى الإمام (عليه السلام)؛ لأنه يعتمد البعد العقلي في تعامله مع الله

---

[١] سورة الشورى : ٤٧.

[٢] ينظر : أسلوب الردع في القرآن الكريم :٣٣٥ .

[٣] الرمس : القبر .

[٤] مهطع : مسرع وخائف .

[٥] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ٨ .

[٦] سورة الأنبياء : ١٠٧ .

تعالى ويحيا مبادئ الله في كيانه أجمع ، أما البعد العاطفي فيستثمره (عليه السلام) من أجل الناس ، أي أنه يخاطبهم بلغتهم وعواطفهم لا بعاطفته ولغته »[١].

فخطاب الإمام (عليه السلام) المعرفي يؤكد كما ذكرنا في النصوص السابقة ، أن من أهم خصائص الحياة الآخرة هو الانعكاس لهذه الحياة عن سلوك الإنسان المتمثل في شتى جوانب طبعه الأخلاقي ، المنحصرة في جانبين أساسيين : جانب خير حسن إيجابي ، وجانب شر سيء سلبي ، رافضاً الجانب السلبي لسلوك هذه الحياة الذي يجعل الإنسان في ندم وحسرة في تلك الحياة الأخرى لانعكاس تلك الأعمال وصور ملكاتها .

والإمام (عليه السلام) في هذه المقطع من كتابه إلى معاوية ، يشير كما أشار القرآن في ضمن آياته ، إلى أنَّ الإنسان بدا من نقطة وسوف يسير للانتهاء إلى النقطة نفسها كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [٢]

فالإنسان بدأ من الله (إنَّا لله) وسينتهي إليه من حيث الغاية والمَآل (وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) فحركة الإنسان كحركة الدائرة ، يبدأ من الله وإليه ينتهي ، ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [٣]، فضلاً عن أنَّ حقيقة الإنسان بوصفه مركباً من بعدين : بعد مادي ، لكونه مأخوذاً من تراب الأرض ، وبعد روحي لكونه قد نفخ فيه من روح الله .

وعلى هذا فحقيقة الموت هي انفصال بين البعد المادي ، والبعد الملكوتي ، بعد إن كانا في هذه النشأة الدنيوية يشكلان معاً حقيقة الإنسان .

أما الحياة البرزخية فليست هي الحياة الدنيوية المركبة من بعدين ولا الحياة الأخروية التي أيضاً للإنسان فيها بدن كون المعاد روحانياً وجسمانياً ، فالإنسان يوم القيامة وبعد الحياة البرزخية يحشر ببعدين هما الجسماني والروحي أو الملكوتي ،

---

[١] تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي : ١٠٢ .

[٢] سورة البقرة : ١٥٦

[٣] سورة العلق : ٨

ولكن البدن في يوم القيامة ليس هو كالبدن الدنيوي ، إذ يصبح منسجماً مع تلك الحياة الأبدية [١] ولهذا أشار الإمام (فنفسك نفسَك) و (فإنك) ، إلى هذه الحقيقة .

ولهذا يحذر الإمام (عليه السلام) المتلقي المباشر وغيره ، أن لا يكون الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى مصيره الحيرة ، والخوف ، والثقل ، والمشقة ، والغمة ، والندم إذ لا ينفع الندم ولا يغني أي شيء في ذلك الوقت .

ولابد للإشارة أن هذا المقطع من الرسالة قد بدأ « وإنَّ للناس جماعةً يدُ الله عليها ، وغضبُ الله على من خالفها » [٢] ، وهو إشارة واضحة لأصل من أصول الدين وهو الإمامة أي أنَّ الحسرة والندامة ، والغمة ، والمشقة في البرزخ ناتجة عن مخالفة هذا الأصل من الاعتقاد ؛ لذا في بعض الروايات نجد خصوصية مهمة لبعض الاعتقادات ولبعض الأعمال مثل مسألة الولاية التي تعتبر الأصل وما عداها من الأعمال هي الفروع ، فهي كالصلاة إن قُبلت قُبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها[٣] ؛ لما لها من أهمية في التكامل المعرفي للبشرية في السير للسعادة وإعمار الأرض ، كما أشرنا إلى ذلك سلفاً في مبحث النبوة والإمامة .

ويصور الإمام هذا المنطلق المعرفي ـ المعاد ـ تصويراً سردياً ، يظهر قرب أجل الإنسان والانتقال من عالم الدنيا إلى العالم الآخر ، وهو لا يحمل من هذه الدنيا أي شي ، بعد أن لهث في طلبها وهو مفارق لها ، إذ يقول في كتاب إلى أحد عماله بعد أنْ خان الأمانة[٤] ، راجياً منه التوبة ، وإرجاع أموال المسلمين إلى أصحابها الحقيقيين، بأسلوب بليغ يبين غربة الإنسان وانقطاعه عن هذه الحياة :

---

[١] ينظر: المعاد رؤية قرآنية : ١ /٢٧٦- ٢٨٤ .

[٢] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ٨ .

[٣] ينظر : : المعاد رؤية قرآنية :١ / ٢٠٩ .

[٤] عندما يصل شرّاح نهج البلاغة إلى هذه الرسالة يترددون في كون المخاطب بها هو عبد الله بن عباس ، فهذه الرسالة تتضمن أشد أنواع التوبيخ والذم من الإمام (عليه السلام)، ولابد من القول إنَّ المخاطِب لهذه الرسالة شخص آخر غير ابن عباس رغم أننا لا نكاد نعرفه بشكل دقيق ، حتى أنَّ السيد الرضي اكتفى بعبارة إلى بعض عماله عندما ذكر هذه الرسالة على خلاف كثير من

«فعَمَّا قليل تفارق من ألفتَ ، وتترك ما جَمعتَ ، وتُغيَّب في صَدعٍ من الأرض ، غيرَ مُوسَّد ، ولا مُمَهَّدٍ قد فارقتَ الأحباب ، وسكنت التراب ، وواجَهتَ الحِسابَ غنياً عما خلَّفْتَ ، فقيراً إلى ما قدّمت ، والسلام »[١]

إنَّ مشاهد الموت وفراق الدنيا كانت حاضرة في هذا النص في إثبات الرجوع إلى الله ، مكوّنا ثنائية تقابلية بين(ألِفْتَ) ، و(فارقت) ، (تترك ما جمعت) ، و (سكنت التراب) ، و(غنياً عما خلَّفت) و(فقيراً إلى ما قدمت) هذه الثنائية المؤثرة في النفس من المشهورات في الحياة ، ولكن النكتة المعرفية في هذا النص هو في مواجهة الحساب والاستغناء عمّا خلّفه الإنسان ، إنَّ هذه التذكير من قبل الإمام (عليه السلام) لعامله الذي خان الأمانة دليل على أن الإنسان يبدأ حسابه عند وضعه في القبر ، مصداقاً لقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :«الموت القيامة ، إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته ، يرى ماله من خير وشر » [٢]

وطالما كان الإنسان في محور المعرفة أسير الإدراكات الحسّية [٣]، ولاسيما للذين ضلوا عن طريق الهداية ، يحاول الإمام (عليه السلام) أن يعظهم بأسلوب التصوير السردي ويرسم لهم صورة عن عالم الشهود لذلك اليوم الذي يتمنى فيه الإنسان الظالم الرجعة الى الحياة الدنيا فيقول :

«فضَحِّ رُوَيداً ، فكانك قد بلغتَ المدى ، ودُفنت تحت الثَّرى وعُرضَت عليك أعمالك بالمحلِّ الذي ينادي فيه المغترُّ بالحسرة ، ويتمنى المضيِّعُ التوبةَ ، والظالمُ الرَّجعة ، ولات حينَ مناص، والسلام »[٤]

الموارد الأخرى يذكر فيها أسماء المخاطبين لكتب الإمام علي (عليه السلام)، ينظر للمزيد من الاطلاع على هذا الموضوع ، نفحات الولاية شرح نهج البلاغة : ١٠ / ١٠٠ – ١٠٥ ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٧٢ ، وشرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني: ٥ / ٨٦٧

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٧٠ .

[٢] كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال : ١٥ / ٥٨٤ .

[٣] ينظر : نظرية المعرفة في القرآن :٢٩١ .

[٤] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٦٧ .

وهنا نرى الإمام (عليه السلام) هو ذلك المعلم اليقظ والقائد الفذ يسعى لتنبيه من يخاطبه بهذه العبارة الشديدة ، في نمط سردي تصويري متسلسل للإحداث الغيبية ، وما سيواجه هذا الإنسان في ساعة الموت ، ومن ثم دفنه تحت التراب والحضور في ساحة المحشر للحساب في محكمة العدل الإلهي وما سيعيشه من حالات الندم الشديد ، وتمنيه العودة للدنيا إشارة لقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [1]ولكن بعد فوات الأوان ، وكما تشير إلى ذلك الآية الشريفة التي اقتبسها الإمام ﴿ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [2].

إنَّ المحاورة القصصية التي يصوغها الإمام (عليه السلام) تظل منتسبة إلى ما هو (واقع) وليس اصطناعاً لمواقف أو أحداث ، فهو (عليه السلام) يترسَّم خطى القرآن الكريم في ذلك ، وإنه بأسلوبه هذا الذي مصدره الوحي ـ القرآن والسنة النبوية ـ يلفت النظر إلى حقائق الظواهر الكونية ، ثم ينتقل في حواره بتسلسل فني رائع إلى أحداث اليوم الآخر راسماً معرفة عالم ما بعد الموت ، بصورة فنية متسلسلة للوصول إلى تشويق لدى المتلقي للحصول على مقصدية غايتها معرفية هي : أنَّه لا رجعة للأعمال بعد الموت ، وأن الإنسان يكون وحيداً هو وأعماله وهي ذروة القصة تاركاً نهايتها مفتوحة إلى جبار الأرض والسماء .

ومن منطلق المعرفة الإسلامية ، وبما أنَّ جزاء الأعمال أما الجنة ، وهي النعيم الأبدي ، وأما النار وهي الشقاء ، إذ يبين الإمام (عليه السلام) أن أهل الحق في الجنة وأعوان الباطل في النار في رسالة جوابية لمعاوية بن أبي سفيان :

---

[1] سورة المؤمنون : ٩٩ – ١٠٠

[2] سورة ص : ٣.

«وأما قولك إنَّ الحرب قد أكلت العرب إلا حُشاشات أنفس بقيتْ ، ألا ومَن أكله الحقُّ فإلى الجنة ، ومن أكله الباطل فإلى النار »[١]

وبما أنَّ الدنيا تدور حول الحق والباطل ، وقد أوضح الله تعالى سبل الحق وأنار طرقه ، كما أوضح طرق الباطل ، وجعل الإنسان مختاراً في سلوك أي الطريقين شاء ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [٢] ، فإذا : سلك الإنسان طريق الحق فسعادة دائمة ، وإذا ما سلك طريق الباطل فشقوة لازمة ، فالإنسان التابع للحق يكون من أهل الحق ، والتابع للباطل يكون من أهل الباطل ، ومن المعلوم البين أنَّ المُحِقّ ليس كالمبطل [٣] .

وبما أنَّ الحق كما عند ابن منظور «الحق أمر النبي وما أتى به من القرآن »[٤]

فقد جسَّد أمير المؤمنين (عليه السلام) الحق الذي نزل به الوحي بكل أبعاده ومعانيه ، عبر إيمانه برسالة الإسلام ، « وقد حمل مفاهيم الحق بكل أمانة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن المؤكد والضروري أن نتبين أنَّ الحق عند علي ليس كالحق عند غيره عندما يدَّعيه الآخر ، فالحق عند علي قد تتعدد أشكاله ، وتتنوع مفاهيمه ومعانيه ، لكنه واحد لا يتعدد ولا يتغير بإزاء الباطل ، وقد يعلو صوت الباطل ؛ ولكنه يبقى باطلاً مثلما يبقى الحق حقاً »[٥]؛ لذا قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) «علي مع الحق والحق معه لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض »[٦] ،

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ١٢٣ .

[٢] سورة الإنسان : ٣

[٣] ينظر الحق والباطل في نهج البلاغة :١١.

[٤] لسان العرب مادة حقق : ١٠ /٤٩ .

[٥] مفهوم الحق في البنية السياقية لخطب الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة : ١٤ .

[٦] صحيح الترمذي : ٥ / ٢٩٧ ، أمالي الصدوق :١٥٠ ، وفرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمة من ذريتهم عليهم السلام :١ / ١٧٧

وقوله أيضا : «اللهم أدر الحق مع علي حيث دار »[1]، ومن دار معه الحق كيفما دار محال أن يخطئ .

ويوظف أمير المؤمنين (عليه السلام) النص القرآني ؛ لبيان نهاية الباطل والفساد والحتمية ليوم المعاد وعدالة الله في ذلك اليوم إذ يقول في رسالة جوابية يزجر فيها معاوية بن أبي سفيان :

«ولتُجزين بعملك حيث لا نصار لك ولا مصرخَ عندك فعثْ في دنياك المنقطعة عنك ما طاب بك ، فكأنك بباطلك وقد انقضى ، وبعملك وقد هوى ثم تصير إلى لظى ، لم يظلمك الله شيئاً وما ربك بظلام للعبيد» [2]

يبين الإمام (عليه السلام)على الرغم من التفاف الناس حول الباطل وقلة أنصار الحق في هذه الدنيا واجتهاد أهل الباطل في الإسراف والمبالغة في باطلهم وطغيانهم وفسادهم واستغلال خيرات هذه الأرض والتمتع فيها في ما نهى الله عنه ، فإن كل ذلك منقطع حتما ويجزى كل إنسان بعمله ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [3]

والإمام (عليه السلام) يشير إلى أنَّ عمل هؤلاء لا يقبل ؛ لأنهم قلبوا الموازين ، وزيفوا الحقائق ، وسموا الأمور بغير مسمياتها ، فضلاً عن مخالفتهم أصل من أصول الدين ـ الإمامة ــ ولهذا قال الله عز وجل في وصفهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [4]

ومن ذلك إنَّ المستكبرين ، والفاسدين في الأرض بأعمالهم الباطلة التي لا يشعرون بها ، وهم يعدون أنفسهم أنهم يحسنون صنعاً ؛ ولكن تكون النتيجة لهم هي

---

[1] سنن الترمذي : ٥ / ٦٣٣ ، والمستدرك على الصحيحين :٣ / ١٣٥ ، والتفسير الكبير : ١/ ٢٠٥

[2] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٨٤ .

[3] سورة الأنبياء : ٤٧

[4] سورة البقرة : ١١ – ١٢ .

نار جهنم ، والله سبحانه لا يظلم أحداً ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [١].

وفي الفلسفة الإسلامية «أنَّ المصدر الأول والمصدر الحقيقي للإلزام الخلقي هو الدين وما يحتويه من أوامر ونواه وترغيب وترهيب وما ينشأ عنه من ضمير ديني ورقابة لله في الحركات والسكنات من قبل الإنسان » [٢].

هذه الرقابة في «منهج الإسلام عامة ومنهج القرآن الكريم خاصة ، إذ يؤدي دوره النفسي ، ودوره الآخر الاجتماعي ، وإنما يؤديها عن طريق التطور النفسي ، وليس عن طريق الإلزام الخارجي ، فهو لا يفرض ، ولا يلزم من خارج الذات ، وإنما يجعل الذات هي التي تتحرك وتسير نحو الهدف المطلوب في يسر وفي رغبة ، بل وفي اندفاع في الرغبة »[٣]

هذا المنهج القرآني في الإلزام ، ومن منطلق المعرفة الأخروية ونهاية الحياة والحوادث التي سيواجهها الإنسان يعتمد أمير المؤمنين في تغيير سلوك الانحراف عند أحد عماله فيذكره بيوم القيامة لغرض إيقاظ وجدان هذا الوالي وتحريك عناصر الخير في نفسه ، وتبين الخطر الكامن إذ يقول :

«فسبحان الله؛ أما تؤمن بالمَعاد؟ أوَ ما تخافُ نقاشَ الحِساب »[٤]

فالإمام يكشف عن معاني الغيب من خلال نافذة الوحي التي تلقاها من خلال القرآن والنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ويظهر تعجبه الشديد من هذا السلوك المنحرف لعامله «وهذه إشارة إلى أنَّ الشخص الذي يؤمن بالقيامة والمعاد ويعتقد حقاً

---

[١] سورة فصلت :٤٦.

[٢] فلسفة التربية الإسلامية ، دراسة مقارنة بين فلسفة التربية الإسلامية والفلسفات التربوية المعاصرة : ٢٦١

[٣] م . ن : ٢٦١

[٤] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٦٧ .

ما ورد في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [١]، لا ينبغي أن يتصرف في أموال بيت المال مثل هذا التصرف الذميم فمثل هذا العمل يتقاطع مع الإيمان والاعتقاد بالمعاد والحساب ، أو أن يكون إيمانه ضعيفاً إلى درجة وكأنه قد نسي يوم القيامة وما سيواجهه من حساب على أعماله »[٢] .

والإمام (عليه السلام) يحاول إيصال قضية معرفية للمتلقي المباشر وغير المباشر مفادها إنَّ تلك الحياة هي حتمية الوقوع ، وأنَّ دخولها يستلزم أن يحاسب الإنسان على كل عمل كان صغيراً أم كبيراً ،

ومسك المعاد فهو عقيدة توضح وتبين للإنسان والمجتمع مدى الارتباط العضوي والمصيري للبرزخ والقيامة لحياة الدنيا التي هي مزرعة للآخرة ، تحصد وتجنى فيها ثمار الأعمال ، فهي عقيدة ينبثق عنها نور وشعاع ، وطاقة ووقود ، تنير وتضيء حياة الإنسان والأمة بالحركة الديناميكية المتنامية نحو تحقيق الأهداف والغايات المتوخاة والمتمثلة بالتكامل الفردي والاجتماعي والتقرب إلى الله والفوز بالجنة .

ومنطلقات المعرفة من معرفة الخالق والنبوة والمعاد يحاول أمير المؤمنين بيانها للمتلقي بصورة عامة وإلى الخوارج من أتباع الخريت بن راشد الناجيّ[٣] بصورة خاصة، في أتباع الهدى والسير في طريق الإسلام ، إذ يقول في رسالته التي بعثها

---

[١] سورة الزلزلة : ٧ – ٨

[٢] نفحات الولاية شرح نهج البلاغة : ١٠ / ٩٣

[٣] الخِرّيت بن راشد الناجيّ ، صحابي لقي النبي (صلى الله عليه وآله) بين مكة والمدينة في وفد إسامة بن لؤي، فاستمع منهم وأسلم ، وكان خرّيت على مضر في معركة الجمل مع طلحة بن عبيد الله والزبير بن عوام ، ثم أصبح مع جيش أمير المؤمنين(عليه السلام) ، فلما وقع التحكيم في صفين فارق الإمام إلى بلاد فارس مخالفاً ، ينظر : تاريخ الطبري : ٤ / ٣٦٧ – ٣٨٠ ، الأعلام :٣٠٣/٢ .

لهم عن طريق قائده معقل بن قيس[١] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من يُقرأ عليه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين والمارقين والنصارى والمرتدين :

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله وكتابه والبعث بعد الموت ، وأوفى بعهد الله ، ولم يكن من الخائنين »[٢] .

إنَّ اتباع طريق الهداية يتأتى من خلال الإيمان بمنطلقات المعرفة والإيفاء بعهد الله في خلافة الأرض وتسخير طاقاتها في خدمة الإنسان ، إذ لا هداية من دون تلك المقدمات .

وهذه الدعوة للاعتقاد بمنطلقات المعرفة البشرية ليست للخوارج من أصحاب الخريت فحسب وإنما هي دعوة للناس كافة من المؤمنين والمسلمين وغيرهم ، لكون هذه الدعوة هي منطلق لكل معارف الإنسان ، وهي دعوة إلى السير في طريق السلام وإتباع مسلك الهداية لكلِّ البشر ، فكل معرفة تبدأ من تلك المنطلقات ، وكل حقيقة تنطلق من الإيمان بالله ورسوله وكتابه ، ولابد لكل عارف يؤمن بوجود انبعاث لصور أعمال الدنيا، وكل عهد خلاف ذلك الإيمان خيانة .

وفي مآب هذه المنطلقات المعرفية نجد حرص الإمام (عليه السلام) على استعماله لمصادر الغيب القرآنية والنبوية ، فضلاً عن الإدراك الذهني الحضوري في إيصال صور المعرفة المتنوعة وجعلها حجة على المتلقي المباشر معاوية ومن سار معه وإيضاحا للمتلقي الاستشراف على مرِّ الأجيال ، من معرفة الخالق والأنبياء والمعاد ، فهي صورة كلية وعظية واضحة غير قابلة للتغير من جانب وبيان حرص

---

[١] معقل بن قيس اليربوعي الرياحي التميمي ، فارس وخطيب ، وجهه أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى بني ناجية حين عزم الذهاب إلى صفين ، واشترك في المعركة ، وبعد استشهاد أمير المؤمنين (عليه السلام) أنضم إلى الإمام الحسن (عليه السلام) ، استشهد سنة ٤٢ هـ . ينظر : الأعلام : ٨ / ١٨٨ ، أصحاب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) والرُّواة عنه : ٢ / ٥٥٤ .

[٢] تاريخ الطبري : ٤ / ٣٧٩ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام): ٨٧ .

الإمام (عليه السلام) على إظهار منطلقات المعرفة البشرية وإيصالها بكل أساليب الوعظ والترغيب والإرشاد والنصح في تغيير أسس الانحراف لدى الإنسان ؛ ليسلك بها مسالك الهداية والمعرفة والنظر بنظرة إلاهية نبوية في البعث رحمة وهداية لكل العالمين .

الفصل الثاني

موانع المعرفة وآفاتها

مدخل

إنَّ تحصيل الكمالات الإنسانية وأصل الفضائل الأخلاقية بنظر الإسلام هو الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، وانعقاد الإيمان بالله تعالى مشروط بالعلم والمعرفة ، فتحصيل العلم هو أمر اختياري وواسطة للوصول إلى الإيمان ، فضلاً عن الفضائل الأخلاقية التي هي مقدمة للإيمان ولأجل الوصول إلى هذا الهدف لابد من سعي مناسب (جوارحي وجوانحي) لنيل العلم الصحيح والمعرفة الواقعية [١]، إذ يؤكد الله سبحانه تعالى والأنبياء والأئمة (عليهم السلام) على هذه الأمور ، يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [٢] .

فالذين لا يتفكرون ولا يهتدون بالأنبياء والأولياء الصالحين ، ولا يسمعون لهم لا يمكن لهم باي وجه كان أن يحصلوا على السعادة الحقيقية ، ولا تحصل عندهم المعرفة الواقعية وفي النهاية لا يصلون إلى مرتبة الإيمان الحقيقي ، بل تكون نهايتهم لا تحمد عقباها لخضوعهم لموانع وعوامل تحول دون المعرفة ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [٣].

فإنَّ من « أهم الأبحاث في علم نظرية المعرفة هو الحديث عن موانع المعرفة ومن خلال طرح تلك الموانع ستتضح طرق إزالتها وستتضح شرائط المعرفة لكل ذي لبٍّ على نحو الضرورة »[٤].

---

[١] ينظر : موانع المعرفة ، علي عباس الموسوي ، مجلة بقية الله : ٥٦.

[٢] سورة الملك :١٠- ١١ .

[٣] سورة الأعراف : ١٧٩.

[٤] أدوات المعرفة في القرآن الكريم : ٤٧ .

وللمعرفة العقلية والقلبية شروط ينبغي مراعاتها وموانع ينبغي تجنبها فيجب أن توجد شرائطها وتزال موانعها حتى تتحقق المعرفة ، والمنكرون لله هم مبتلون عموما بهذه الموانع فهم يمتلكون حس معرفة الله ولكن بما أنهم مصابون بمرض نفسي ناشئ من موانع المعرفة ، فلن يصبح هذا الإحساس فعلياً في وجودهم .

«وكما أن الحب والبغض يمنعان الإنسان من معرفة حقيقة المحبوب والمبغوض ويحولان أحيانا من دون سماع نداء العقل الواضح والقاطع فيما يرتبط باتخاذ الموقف الصحيح بالنسبة للمحبوب والمبغوض ، وكذلك فأنَّ الجهل والعصبية والحقد والعادات والتقاليد وغيرها من الأمور يمكن أن تحرم الإنسان وتفقده القدرة على الإنصات لنداء العقل الذي يدعوه دائما للبحث عن الحق ، وبناءً على ذلك فإنَّ مرض القلب وحجاب العقل مانعان أساسيان للإحساس بالحقائق المعنوية والوصول إليها والتحقق بها» [١]

وقد بين القرآن الكريم وجود هذه الحجب في كثير من آيات الذكر الحكيم ، وأشار إلى كل مرحلة من مراحل انحراف الذهن للإنسان وحرمانه من المعرفة فتبدأ بالمرحلة الأضعف كما في قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٢] وقوله : ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ [٣] وقوله : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [٤] ، ثم إلى مرحلة أشد ، تصدأ فيه القلوب بسبب الذنوب والمعاصي ، فيتراكم الغبار عليها حتى تتحجر كما في قوله تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٥]، وتنتهي بمراحل اشد وأقوى من الحرمان بحيث تسلب الإنسان قدرته على التمييز، إذ يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَجَعَلْنَا

---

[١] دروس في التربية الأخلاقية :١٠٠.

[٢] سورة الأنعام : ٤٣ .

[٣] سورة فاطر : ٨ .

[٤] سورة آل عمران : ٧ .

[٥] سورة المطففين :١٤.

عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [١] وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [٢] بل تصور له الحقائق بالعكس فيرى الشيطان من جرائها ملكاً بريئاً، والقبح حسناً ، والباطل حقاً ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [٣] ، وثمة تستحوذ على تلك العقول الشقاوة ، فتصرفها عن الرشد ، فلا تجد بصيصاً للوصول إلى طريق العلم والمعرفة ، ﴿ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [٤] وقوله : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [٥] وهو الطريق المسدود الذي لا هداية له : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [٦] .

وحينما « ننظر إلى امتداد الأبعاد الحقيقية ونتعمق في أعماق الإنسان عبر مسيرته التكاملية الفردية والاجتماعية أو الفكرية ، والعملية ، نستشف بوجود العديد من العوامل والمتغيرات المادية والمعنوية ، والفردية والاجتماعية ، التي تقف حاجزاً ومانعاً أمام الإنسان الباحث عن الحق الحقيقة ، فتعمي بصره ، وتصم آذانه ، وتسود قلبه وروحه، وتغير إحساسه وحواسه ، وتشل حركة عقله ، وتشوه تفسير الموضوعات المطروحة في ميدان البحث ؛ مما تحرفه وتبعده عن معرفة الواقع الموضوعي خارج ذهن الإنسان بشكله ومضمونه الواقعي الصادق »[٧]

---

[١] سورة الإسراء : ٤٦.

[٢] سورة محمد : ٢٤ .

[٣] سورة البقرة : ٨٨ .

[٤] سورة التوبة : ٨٧ .

[٥] سورة البقرة : ٧ .

[٦] سورة الجاثية : ٢٣

[٧] نظرية المعرفة في الإسلام : ٤٠٩

وفي هذا المبحث سوف نتناول أهم العوامل والموانع التي تقف حجر عثرة أمام رؤية الحقائق في حياة الإنسان ، وذلك من خلال استقراء نصوص الرسائل المتبادلة بين الإمام (عليه السلام) وخصومه .

١- اتباع الهوى :

من حُجُب المعرفة التي تسير بالإنسان إلى الضلال ،هو تتبع النفس هواها ، وجعل ذلك مصدراً لتصورها ، وأحكامها ، ومشاعرها ، وتحركاتها ، وتقيمه إلهاً قاهراً لها ومسؤولاً عليها ، تتلقى إشاراته المتقبلة بالطاعة والتسليم والقبول[١] .

ويشير القرآن الكريم إلى ضلال تتبع النفس فيقول : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾[٣] ، وقوله سبحانه : : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾[٤] ، وقوله أيضاً : ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[٥]، فالآيات السالفة تبين بوضوح العلاقة بين إتباع الهوى وفقدان قدرة التميز ، في بيان إدراك الحقيقة ؛ لانَّ رغبة النفس وميلها إلى الشهوات ، تعمي وتصم عن معرفة الحقائق ، لذا يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

---

(١) ينظر : الإيمان بالقدر :١٩٤ – ١٩٥ .

(٢) سورة القصص : ٥٠ .

(٣) سورة الأنعام : ١١٩ .

(٤) سورة الكهف : ٢٨ .

(٥) سورة الجاثية : ٢٣ .

« حبك للشيء يعمي ويصم » [١] ، «فالأهواء تصم آذان الإنسان وتعمي عينه وتسلب العقل لبه وتقلب له الحقائق، ومن ثم تقذف به في مطبات الفساد»[٢].

فاتباع الهوى ، يعني إتباع تلك القوى الشريرة وسيطرتها التي تدفع الإنسان إلى الشر ، وتحمله عليه ، وبقدر ما يكون الإنسان ذَيْلِيّاً وتبعيا لهواه ، ورغباته وشهواته المتأججة والمنحرفة ، بقدر ما يكون بعيداً عن المعرفة الحقيقية وكنه الواقع الموضوعي الذي ينشده الإنسان في تحقيقه خلال بحثه واستقرائه للواقع وما يحيط به من أسرار وحقائق ، فقوة الهوى ، قوة كبيرة جارفة ، تشبه إلى حد كبير ، قوة الكهرباء الحادة ، والأبخرة المتفاعلة ، والطوفان العنيف ، فإذا لم تضبط كل هذه القوى بصمامات أمان، إختل ميزان ومقياس المعرفة الذي بدوره يؤدي إلى عدم اصابة الواقع الموضوعي بالشكل الواقعي الحقيقي [٣] .

«ولذلك كان العدو الأكبر للإنسان هو اتباع الأهواء، وأصحاب الأهواء، فهم الذين يوقدون كل حرب ، وهم الذين ينشرون كل فترة ، وهم الذين يدعون لكل ضلالة »[٤].

لقد أكرم الله البشر بأصوات كثيرة داعية إلى الحق، لكن البشر أعرضوا عنها، وعن سماعها، وعن سماع الحكماء الذين يدعون إليها، وراحوا يقفون خلف الشياطين الذين زينوا لهم تلك الأهواء[٥] ، وهؤلاء يتصورون أنهم يمكن أن يعوضوا البشر عن رسل الهداية الإلهية .

وحكى لنا القرآن عن السامري ، فقد كان صاحب راية من رايات الهوى ، وقد عز عليه أن يعبد قومه الله العظيم المنزَّه عن كل تجسيم وتشبيه ؛ فلذلك راح يصنع لهم عجلاً يعبدونه بدلاً من الله، وقد عمل على ذلك في حقبة غياب موسى (عليه السلام)

---

[١] روضة المتقين : ١٣ / ٢١ .

[٢] دروس في الحياة : ١/ ١١٦

[٣] ينظر : نظرية المعرفة في الإسلام : ٤٢٩ – ٤٣٠ .

[٤] أسرار الحياة رواية تصور الحياة وحقيقتها وفق الرؤية الإسلامية : ١ / ٢٩ .

[٥] ينظر : م . ن : ١ / ٢٩ – ٣٠ .

هو لم يستغل غياب موسى (عليه السلام) ، وإنما استغل تلك الأهواء الموجودة في نفوس قومه ، ولذلك سرعان ما راح يشعل فيها نيرانه ، لقد سمع قومه ، وهم يطلبون من موسى عليه السلام ، بمجرد خروجهم من مصر ، أن يجعل لهم إلهاً كالآلهة التي تعبدها الأمم من حولهم ، لأنَّه عزّ عليهم أن يعبدوا إلهاً لا يتمكنون من رؤيته، وهكذا رآهم يرددون كل حين طالبين من موسى عليه السلام أن يريهم الله جهرة ، ولذلك راح يسارع في تلبية أهوائهم، فمع أنَّ موسى عليه السلام ترك أثناء غيابه أخاه هارون عليه السلام، وقد كان الإسرائيليون يعرفون نبوته.. لكنهم أعرضوا عنه، وراحوا يتبعون السامري [١].

ما حصل في بني إسرائيل حصل في كل الأمم ، حين تعرض عن وصايا أنبيائها، وتضع بدلها من الأهواء ما يناسبها؛ لتحول الدين من دين الله إلى دين البشر، معجوناً بكل أهواء البشر.

وأدب الرسائل المتبادلة بين الإمام (عليه السلام) وخصومه يظهر أنَّ لهذه الأمة نصيبها ممن اقتفى أثر الأهواء ومرادات النفس ومنعت عنهم المعرفة الحقّة ، فراح عمرو بن العاص ، وعبد الله بن قيس الأشعري [٢] يتخبطون في ضلالة أنفسهم وضلالة الأمة في مهزلة التحكيم التي جرَّت الويلات لها .

---

[١] ينظر : أسرار الحياة رواية تصور الحياة وحقيقتها وفق الرؤية الإسلامية : ١ / ٣٠ .

[٢] أبو موسى عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري (ت ٤٤ هـ) فقيه ومقرئ ، كان والياً على البصرة في أيام عمر وعثمان ، وأصبح عامل الإمام على الكوفة ، وكان يخذل أهل الكوفة عن حرب الجمل في نصرة الإمام ، فضلاً عن قصته المعروفة في خذلان الإمام في حادثة التحكيم ، ينظر لمزيد من الاطلاع على حياته الأعلام : ٤ / ٢٥٤ وأصحاب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) والرواة عنه : ٢ /٣٨٢

لقد أكد أمير المؤمنين (عليه السلام) هذا المانع من المعرفة في إتباع الأهواء من قبل أبي موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص في رسالته إلى الخوارج[١] التي بيَّن فيها أسباب فشل التحكيم ، جاء فيها :

«أما بعد : فان هذين الرجلين الخاطئين الحاكمين اللذين ارتضيتم حكمين قد خالفا كتاب الله ، واتبعا أهواءهما بغير هدى من الله ، فلم يعملا بالسنة ، ولم يُنفّذا للقرآن حكماً فبَرِيء الله ورسوله منهما وصالح المؤمنين »[٢].

إنَّ ضرر اتباع هوى النفس لا ينحصر على الإنسان نفسه فحسب ؛ بل تتسع دائرته في كثير من الأحيان إلى الآخرين ، في طمس آثر العقل ، والابتعاد عن جادة الصواب ، والصد عن إقامة الحق واتباع سبله ، والاستغراق في المصالح والحسابات والأنانيات والمفاسد ؛ لأنَّ عقل الإنسان «إذا وقع تحت سيطرة القلب ونفوذه ، فسوف يحكم بما يهوى القلب ويحب ، لا بما يقتضيه الحق ، إنَّ العقل في ذاته قاض عادل ، ولكن ينبغي الحفاظ على استغلال قوته القضائية لكيلا تسلط عليه السلطة التنفيذية بميولها ورغباتها وأهوائها ، فإن تسلَّطت عليه فلا ينبغي أن ينتظر منه أن يكون عادلاً في أحكامه »[٣]

إنَّ فشل التحكيم واستمرار الفتنة كان سببه أهواء النفس في عدم اتباع المصدر الأساس للمعرفة الإسلامية المتمثل في القرآن والسنة النبوية ، فكان نتائجه كما أشار

---

[١] وهم الذين نزعوا أيديهم عن طاعة ذي سلطان من أئمة المسلمين ، وبالخاصّة هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي (عليه السلام) ، ولأنه رضي بالتحكيم ، فرفضوه كما رفضوا معاوية ، ويقال لهذه الطائفة : الخوارج ، والحروريّة ، والنواصب ، والشّراة ، والمارقين ، وكان منهم زيد بن حُصين ، وعبد الله بن وهب ، ومسعر بن فدكي ، والخِرّيت بن راشد الناجيّ ، ينظر لمزيد من الاطلاع : الأنوار الجلالية : ١ /١٤٧ ، والمذاهب الإسلامية : ١٢٠ .

[٢] تاريخ الطبري : ٤ / ٣٧٣ .

[٣] أنسنة الحياة في الإسلام : ٤٩٧ .

(عليه السلام) في رسالته إلى معاوية «ومن لم يرض بحكم القرآن فقد ضل ضلالاً بعيداً »[١] .

وحُكم القرآن هو الحق «فغير الحق هو الباطل، فكل واحد من أهل الباطل يحاول أن يأتي بشيء يتفق مع هواه »[٢] .

ويؤكد الإمام هذا المانع من المعرفة في رسالة جوابية يوبخ فيها معاوية بشدة بسبب اتباعه للأهواء المطامع الموهومة التي تقوده إلى متاهات الحيرة والجهالة ، يقول (عليه السلام):

«فسبحان الله ! وما أشدَّ لزومَك للأهواء المبتَدعة ، والحيْرة المتَّبعة ، مع تضييع الحقائق ، واطِّراح الوثائق »[٣]

فالإمام (عليه السلام) في هذه العبارات الوجيزة والعميقة المعنى يلخص تحليل عوامل انحراف معاوية عن جادة الحق بأربعة أمور، إذ يحذر من موانع المعرفة المتمثلة في العامل الأول وهو : اتباع الأهواء والنوازع النفسانية ، والثاني : اتباع عوامل الحيرة وسبل المتاهة ، والثالث : غض النظر عن الحقائق الموضوعية ، والرابع : نقض العهود والمواثيق الإلهية .

وبديهي أنَّ كل واحد من هذه العوامل من شانه أنْ يقود الإنسان إلى مهاوي الضلالة ، وتردي به في وادي السقوط الأخلاقي والشقاوة ، فكيف إذا اجتمعت كلها في شخص واحد [٤].

والإنسان إنْ لم يشخّص أمراضه الرّوحيّة، ولم يتمكن من العثور على جذور الرّذائل الأخلاقيّة، في واقعه النّفسي، فسوف لا يمكنه الوصول إلى طريقةٍ لعلاج هذه الأمراض، و جُبران مواضع الخَلل في عالم النّفس، «ولكن أغلب الناس، يتجاهلون الأعراض الخطيرة للأمراض، وذلك لِغَلبة الأنانيّة عليهم وحبّ الذات، الذي لا يسمح

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢ / ٢٢٦ .

[٢] تفسير الشعراوي : ٢ / ١٢٨٢

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٥٣ .

[٤] ينظر : نفحات الولاية ، شرح نهج البلاغة : ١٠ / ٥٥ – ٥٦ .

لهم برؤية النّقص على حقيقته، وهذا الهروب من الحقيقة، غالباً ما ينتهي إلى عواقب غير حميدة، ولا يتوجه إليها الإنسان إلّا بعد فوات الأوان، و بعد تجاوز المرض مرحلة العلاج »[١] .

إنَّ عائق اتباع الهوى يوجه انحرافاً عن تحصيل الإيمان على الرغم من معرفتنا بحقائق الأمور ، بل أنَّ الميول النفسانية لا تترك أثراً لتلك المعارف الحقة ؛ مما يجعلها هي القائد والمُسيِّر للذين في قلوبهم مرض .

هذا العائق في اتباع الهوى والضلالة يؤكده أمير المؤمنين (عليه السلام) في كتاب إجابته لمعاوية على الرسالة التي التمس منها انحراف وضلالة معاوية :

« ... كتابُ امرئ ليس له بَصَرٌ يهديه ، ولا قائدٌ يُرشِده ، وقد دعاه الهوى فأجابه، وقاده الضلال فاتَّبَعَه ، فهَجر لاغِطاً وضَلَّ خابِطاً »[٢].

إنَّ اضمحلال قيادة العقل للإنسان ناتج عن كثرة ذنوب التي تجعله أعمى البصيرة، وسهل الانقياد إلى هوى النفس ، والسير في طريق الضلالة ، بدون عوائق الفطرة والعقل التي كانت تصد الإنسان وتقف عائقاً أمامه للسير في هذا الطريق .

إنَّ الذي لا يهتدي بمعارف القرآن والسنة النبوية ، ولا يتفكر ببصيرة ثاقبة في أصلاح النفس ؛ يكون عرضة لمنزلقات الانحراف والابتعاد عن طريق الهداية والمعارف الحقّة ، ويكون سهل الاستجابة للأهواء والضلالات ، إذ «إنَّ تهذيب النفس وتزيينها بالأخلاق الإنسانية من أصعب الأمور وأشقها ؛ وذلك لأنَّ العقل والقلب يقفان في هذه الحالة على قطبي نقيض ، إنَّ الصراع مع النفس الأمارة بالسوء يتطلب قبضةً قويةً من العقل والإيمان »[٣].

يؤكد الإمام أنَّ آفة اتباع الأهواء النفسية تجعل الإنسان ليس عارفاً بحقيقة الآخرة التي «تتوقف موازينها على مدى اعتدال الحياة الأولى ونزاهتها »[٤] لافتا إلى ذلك في

---

[١] الأخلاق في القرآن الكريم : ١ / ٢٨٣ .

[٢] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٤ / ٤٣ .

[٣] أنسنة الحياة في الإسلام : ٤٩٦ .

[٤] فلسفتنا : ١٨ .

رسالته إلى منذر بن جارود العبدي[١] ، وكان قد استعمله على بعض النواحي فخان الأمانة ، وقد جاء فيها :

«فإذا أنت فيما رُقِّيَ إليّ عنك لا تَدَعُ لهواك انقياداً ، ولا تُبقى لآخرتك عتاداً ، تَعْمُرُ دنياك بخراب آخرتك وتصل عشيرتك بقطيعة دينك »[٢] .

إنَّ اتباع هذا المانع من المعرفة يجر الإنسان إلى مقاييس ضلالة غير عادلة ، ويجعل الإنسان بعيداً عن الحق ، وفي نفسه أنه تمام الحق والعدل ، «فالذين يتبعون أهواءهم، هم في واقع الحال في وضع يرون الواحد اثنين ، حيث لهم بصيرة حولاء لا تبصر الأشياء على حقيقتها ، فلا يميز الخبيث من الطيب ، ولا الحرام من الحلال ، ولا الضار من النافع ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ »[٣] ، ومن المثير للتعجب أنَّ بعض الأشخاص يسلكون هذا الطريق ، بعد أنْ كانوا على طريق الهداية كما حدث لأحد عمال الإمام بعد أنْ خان بيت المال ، وقد أرسل للإمام جواباً عن رسالة له سابقاً جاء فيها :

«إما بعدُ : فقد أتاني كتابك تعظّم عليَّ أمانة المال الذي أصبتُ من بيت مال البصرة ، ولعمري أنْ حقي من بيت مال الله أكثر من الذي أخذتُ والسلام »[٤]

---

[١] منذر بن بشر بن عمرو بن حبيش ، من أصحاب الإمام علي (عليه السلام) ، وكان على قسم صغير من جيشه في معركة الجمل ، ولّاه الإمام على إصطخر ــ من مدن فارس ــ وكان حسن الظاهر لكنه مضطرب الباطن ، وليس له ثبات ، خان المنذر الإمام في بيت المال واستأثر بقسم منه لنفسه ، فكتب إليه وعزله ، تولى بعض المناطق أيام عبيد الله بن زياد الذي كان صهره ، كانت وفاته سنة ٦١ هـ ، ينظر: الأعلام : ٨ / ٢٢٦ ، وأصحاب الإمام علي وعماله : المجلد ١٢ /٣١٦ .

[٢] نهج البلاغة شرح محمد عبده : ٣ / ٤٣٤ .

[٣] نظرية المعرفة في الإسلام : ٤٣٢ ، والآية من سورة محمد : ١٦ .

[٤] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٧٠ .

ومن خلال نظرية المعرفة نلحظ أنَّ من موارد حجب المعرفة ، تزيين الأعمال ، فتارة يزينها الشيطان للإنسان كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1]، وتارة تكون ذهنيات الإنسان ونفسه ، أو عوامل أخرى هي التي تزين للإنسان سوء أعماله ، كما جاء في الآية القرآنية : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾[2] .

فالقرآن يشير «إنّ قلب الإنسان يقسو في المرحلة الأولى، ثم يتأهل لتقبل وسوسة الشيطان فتتمثل الأعمال السيئة حسنة أمامه ، ومن هنا نرى بعض الناس غير نادمين على أعمالهم السيئة ، بل قد يفرحون ويتباهون بها ، ويصرون على منطقيتها وصحتها»[3] .

وقد حصل هذا الأمر لأخوة يوسف ، فعندما ألقوه في البئر وجاءوا أباهم بقميصه ملطخاً بدم كاذب زعموا أكل الذئب له ، وأنهم صادقون في كلامهم ، فأجابهم أبوهم ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ [4].

هذه الحجب في قساوة القلب واتباع الأهواء في تزيين النفس للعمل السيئ لاحظها الإمام (عليه السلام) لدى عامله ، فيجيبه بتعجب في كتاب له :

«إما بعد : فإن العجب كل العَجَب منك أن تُزَيِّن لك نفسُك أنَّ لك في بيت الله من الحق أكثر ممَّا لرجل من المسلمين ، فقد أفلحت إن كان تَمنِّيك الباطلَ وادِّعاؤك ما لا يكون يُنجيك من الإثم ويُحِلّ لك ما حرَّم الله عليك ، عَمرَك الله ، إنك لأنت البعيد البعيد »[5]

---

[1] سورة الأنعام : ٤٣

[2] سورة فاطر : ٨

[3] نفحات القرآن : ١/ ٢٣٤ .

[4] سورة يوسف : ١٨

[5] العقد الفريد : ٤ / ٣٥٨ .

فخطاب الإمام (عليه السلام) لعامله الذي خان أمانة يبين أنَّ تزين هوى النفس قد أبعد عامله كل البعد عن الحقيقة ؛ وأنَّه أوقع نفسه إثم هذا العمل لتمييز نفسه عن المسلمين الآخرين وابتعاده حقيقة هدف الوصول إلى الصراط المستقيم ؛ لأنه أفضلها وأحسنها وأقصرها للوصول إلى الهدف ، وإذا لم يوفق الإنسان لسلوك هذا الطريق فهو ضال لا محالة ، ولا تزيد سرعة المشي في غير الصراط المستقيم إلا بعداً عن الهدف[١].

إنَّ الاعتقاد الباطل يوهم عن المعرفة الحقّة لكون الاعتقاد ــ في سياق نظرية المعرفة ــ «هو أي فكرة تسيطر على الإنسان ما بحيث يهتم بها ، وقد تدفعه إلى السلوك وفقا لها »[٢] ، يرى هيوم «أن الاعتقاد يبدأ بفكرة طاغية تسيطر على عقل المعتقد بها بحيث يقتنع بصدقها ويدافع عنها ، ويكون لديه أسباب وجيهة للاقتناع بها»[٣] ، فحجب النفس قد أحكمت قبضتها عليه ــ عامل الإمام ــ فجعلته ينظر للأشياء عكس حقيقتها فيحل ما حرم الله عليه ويدعي ما ليس له ، لكون النفس ، والشيطان قد زينا له ذلك السلوك المذموم ، لذا كان خطاب الإمام (قد افلحت ...) لعلمه في تعدد الاعتقادات لدى الناس في فهم الحقيقة فكلا يرى الحقيقة من وجهة نظره واعتقاده للأشياء ؛ ولكن «لا تخرج الفكرة ــ كل فكرة ــ عن أحد أمرين : أما حقيقة مطلقة وأما خطأ »[٤] ، إنَّ ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [٥].

إنّ آفة المعرفة هذه يؤكدها الإمام (عليه السلام) في خطابه بحق الأشعري وقد استحكمت بآفة أخرى ، وهي الغرور بأسلوب توكيدي مباشر، إذ يقول في رسالة بعثها له إلى مكة بعد أنْ أقام فيها الأشعري مستعيذا بها منه:

---

[١] التربية الروحية :٦ .

[٢] نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين : ١٤

[٣] م . ن : ١٤ .

[٤] فلسفتنا : ١٦٦ .

[٥] سورة البقرة : ١٤٧

«أما بعد : فانك امرؤ ضلّلك الهوى ، واستدرجك الغُرورُ »[١] .

فالإمام (عليه السلام) يشير بخطابه أنَّ الهوى والغرور صفتان متلازمتان في حجب المعارف الحقة جعلت الأشعري أعمى عن رؤية الحق وسبله ، فاتباع الهوى ، واستدراج الغرور في الإنسان يصله إلى عدم التمييز المؤدي إلى الضياع ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[٢] .

وعليه يتضح أنَّ الإنسان كما يقول مرتضى مطهري : « قد يقع تحت مؤثرات تجعل أحكامه سقيمة بحيث يخطئ في قضائه ، ويجانب العدالة ويفقد حرية عقله إذا سيطر القلب وأهواء القلب عليه ، فلا يرى الإنسان نفسه طاهراً ظاهرياً فحسب ، بل إنه يعتقد في قرارة نفسه أنَّه نقي ولا عيب فيه مطلقاً »[٣] .

وقد أكد الأشعري ذلك في جوابه إلى الإمام حينما استصغر ذنبه في اتباع الأهواء المضلّة وتركه المصدر الأساس للمعارف ـ القرآن والسنة النبوية ـ في حكمه إذ يقول:

«أما لزومي بيت الله الحرام غير حاجٍّ ولا قاطِن فإني أسلمت أهل الشام ، وانقطعت عن أهل العراق وأصبْتُ أقواماً صغَّروا من ذنبي ما عظمَّتهم ، وعظَّموا من حقي ما صغرتم ، فأقمت بين أظهرهم إذا لم يكن لي منكم ولِيٌّ ولا نصير»[٤] .

الإنسان يحمل في ذاته غريزة حب الذات ، وينظر لها بمنظار حسن الظن دائماً أي إنَّه يقضي فيما يتعلق بذاته وبخاصته بما يرضي قلبه ، لا بما يرضي الحق والحقيقة ، إنه يرى أخلاقه الرديئة جيدة ، ويحسب أعماله السيئة حسنة [٥] ، ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾[٦] ، ولا يستسلم للحق عندما يعرض عليه ، بل يرفضه ويزين له الحق

---

[١] العقد الفريد : ٢ / ٢٣٩ .

[٢] سورة النساء : ١٢٠

[٣] أنسنة الحياة في الإسلام : ٤٩٨ – ٤٩٩ .

[٤] العقد الفريد : ٢/ ٢٣٩ ، والإمامة والسياسة : ١ / ١٦٠ .

[٥] ينظر : أنسنة الحياة في الإسلام : ٤٩٨ .

[٦] سورة فاطر : ٨

الحق باطلا والباطل حقاً ، وبذلك يكون اتباع هوى النفس أداة لهدم كيان وحياة الإنسان والمجتمع معاً [١]، قال تعالى :﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ »[٢].

ففي الأمراض الأخلاقيّة، والانحرافات النّفسية، غالباً ما يكون حبّ الذات مانعاً قويّاً لِلناس، يحول من دون معرفة صفاتهم الرّذيلة، و عيوبهم الأخلاقيّة والاعتراف بها، إذ يتذرعون بالأعذار المختلفة، في عملية التغطية اللّاشعورية، على تشوّهات الأنا ليكون الشّخص متعالياً عن النّقد والنّقص، و بذلك يعيش مثل هذا الإنسان، حالةَ الوَهم في ثياب الواقع البعيد عن المعرفة ، وفي الوقت نفسه سيتحرك على مستوى تغطية عيوبه، و يُدرجها في طيّ النسيان، ليخدع بها نفسه و من حوله ، بالظّواهر الخادعة والعناوين الزائفة [٣] .

ولهذا نرى أبا موسى يلتجأ إلى أفانين القول في خطابه مع الإمام في تغطية عيوبه في قلب الحقائق وإخفائها خلف أهل مكة بأسلوب يجعل الحق باطلا والباطل حقاً ، وكما ذكر ابن وهب أنَّ «مما يدل على بلاغة المجادل أن يكون قادراً على تصوير الحق في صورة الباطل ، والباطل في صورة حق »[٤] ، أو كما ذكر ابن رشيق «قالوا: قالوا: حسن البلاغة ، أن يصور الحق في صورة باطل ، والباطل في صورة الحق»[٥].
الحق»[٥].

ومن خلال نظرية المعرفة ، نرى أن حلاوة الحق لا يعرفها إلا أصحاب الإيمان والتقوى لأنَّ الإيمان هو المقياس القلبي للجمال ؛ لكون الجمال تصوراً فطرياً كما يقول بييزويتوف[٦] ، وأفانين القول مهما كانت لا تصل إلى الشعور والإحساس بجمالية

---

(١) نظرية المعرفة في الإسلام : ٤٣١ .

(٢) سورة القصص : ٥٠

(٣) ينظر : الأخلاق في القرآن : ١ / ٢٨٣ .

(٤) البرهان في وجوه البيان : ١٩٣ .

(٥) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ١/ ٢٤٧ .

(٦) ينظر : فلسفة الالتزام في النقد الأدبي ، بين النظرية والتطبيق : ٤٥ .

الحق وإنكار قباحة الباطل ، وهذا ما يلتمسه أي باحث عند قراءة نهج البلاغة ، فضلاً عن أنّ من المشهورات أنَّ سالك الأدب مهما كان من الإبداع لابد أن يشرب من معين نهج البلاغة الذي يحمل كل ما هو حق بين دفتيه .

إنَّ القرآن الذي يعد مصدر المعرفة الأساس من منظور نظرية المعرفة الإسلامية نهى عن تلبس الحق بالباطل في القول والفعل ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2] إذ يكون القبح بالاعتبار كما بين التهانوي في كشافه :«واعلم أيضا أنّ القبح في الأشياء إنَّما هو بالاعتبار لا بنفس ذلك الشيء، فلا يوجد في العالم قبيح إلّا بالاعتبار، فارتفع حكم القبيح المطلق من الوجود، فلم يبق إلّا الحسن المطلق، إذ أنَّ قبح المعاصي إنّما ظهر باعتبار النهي، و قبح الرائحة المنتنة إنّما هو باعتبار من لا يلائمها طبعه »[3]، ولكون القرآن تشرَّب في روح المؤمن فأصبح الجميل ما يراه القرآن والقبيح ما يبغضه .

وهوى النفس له الجانب الأكبر في حجب العقل عن المعرفة ، وإبعاده عن الحقيقة وليس هناك من سبب للخطأ سوى الهوى وحب النفس ، فكلما زكّى الإنسان نفسه وتنوَّر بنور الوحي كلما زاده الله بسطة في العلم ونوراً من الهدى قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[4] ، إذن فمشكلة المعرفة ليست مشكلة عقلية حتى ننظّم للعقل قوالب منطقية ليسير العقل على وفق خطاها ، ولذا فمن النكات التي تحسب على المنطق التقليدي ، «هو التصور الخاطئ ، بأنَّ العقل يمكن أن يخطئ ، ولذا حاولوا أن يجدوا نظماً يتدارك بها العقل الوقوع في الخطأ ، وقد نتج هذا التصور

---

[1] سورة البقرة : ٤٢

[2] سورة آل عمران : ٧١

[3] كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم : ١ / ٥٧١ .

[4] سورة محمد : ١٧

الخاطئ ، عن مفاهيم مغلوطة للعقل ، فتصوروا أنّ العلم صور ، وكليات ذهنية ، في حين أن هذه الكليات نفسها مكشوفة ومعلومة بحقيقة أخرى ، وهي العقل ، وليس أمامنا إلا الاعتراف ، بأنَّ العقل نور معصوم ، لا يمكن تصور الخطأ فيه أبداً ، فلا يعرف العقل إلا بالعقل نفسه ، فمن عرفه بهذا الطريق ، وجد أنّه نور مباين لذواتنا ، وذوات الأشياء ، وأن ذاته هي الكشف والحقيقة»[١] ، ولذا يقول أمير المؤمنين في أحدى رسائله لمعاوية بن أبي سفيان :

«ولَعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنَّي أبرأ قريش من دم عثمان »[٢].

إنَّ الثقة بالعقل وإثارته وتزكية النفس هو المنطلق الذي بنى عليه الإمام (عليه السلام) في إظهار الحقيقة في تبرئته من دم عثمان ، وإنَّ هذه الثقة المطلقة جعلت الإمام (عليه السلام) يبدأ بأسلوب القسم .

فقد «يتصور الرأي السائد في المنطق أنَّ مشكلة الإنسان في العلم ، هي مشكلة عقلية محضة ، يمكن حلها بوضع قواعد لتنظيم عملية التفكير ، إلا أن الحقيقة هي أن المشكلة نفسية ، قبل أن تكون عقلية ؛ لذا نحن بحاجة إلى معالجة النفس البشرية، قبل أن نضع قواعد لعقله ، وتنظيم فكره ، وذلك ؛لأن النفس البشرية قد تستأثر بإرادة الإنسان وتوجهها إلى حيث تتحرك أهواؤها ، وهناك تبقى قدرة الإنسان على التفكير معطلة رأساً ، ولا تغنيه القواعد الموضوعة لتنظيم التفكير »[٣] .

إنَّ تتبع الإنسان لكل النصوص القرآنية الواردة ، لا يجد نصاً واحداً ، ينسب فيه الخطأ إلى العقل ، أو إلى أي سبب يعود بشكل أساسي إلى العقل ، فالعقل نور كاشف للحق لا يحتاج إلى أي نوع من الضوابط إذا لم يحجبه الهوى ، فضوابط المنطق الإسلامي إنْ جاز لنا الاصطلاح في تدارك الخطأ واجتنابه لا يتأتى إلا بالتزكية ولتحقيق هذه الغاية لابد من معرفة شهوات الإنسان وأهوائه لاجتنابها [٤].

---

[١] بصائر في نظرية المعرفة : ١٣١

[٢] العقد الفريد : ٤ / ٣٣٢ .

[٣] المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه : ٢٠١ .

[٤] ينظر : بصائر في نظرية المعرفة : ١٣٤ .

ولهذا جاء في رواية عن رسولُ اللّهِ (صلى الله عليه وآله)، لَمّا سَأَلَهُ شَمعونُ بنُ لاوي بنِ يَهودا عن العقل فقال : إنَّ العَقلَ عِقالٌ مِنَ الجَهلِ و النَّفسُ مِثلُ أخبَثِ الدَّوابِّ، فإن لَم تُعقَلْ حارَتْ ، فالعَقلُ عِقالٌ مِنَ الجَهلِ . و إنَّ اللّهَ خَلَقَ العَقلَ ، فقالَ لَهُ : أقبِل فأقبَلَ ، و قالَ لَهُ : أدبِرْ فَأدبَرَ ، فقالَ اللّهُ تَبارَكَ و تَعالى : و عِزَّتي و جَلالي ما خَلَقتُ خَلقا أعظَمَ مِنكَ ، و لا أطوَعَ مِنكَ ، بِكَ اُبدِئُ و بِكَ اُعيدُ ، لَكَ الثَّوابُ و عَلَيكَ العِقابُ ...»[1]

وقد جعل الله على الإنسان حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة كما جاء في وصية الإمام الكاظم (عليه السلام) لهشام بن الحكم في وصية طويلة جاء منها :

«يا هشام إنَّ لله على الناس حجّتين حجّة ظاهرة ، وحجّة باطنة ، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء ، والأئمة ، وأما الباطنة فالعقول »[2] ، وحاشا لله أن يضع على الإنسان حجة تؤول به إلى الخطأ والهلاك .

إنَّ «الآيات والروايات توقفنا على أن المعرفة الحقيقية التي تحيا بها نفس الإنسان ، لا تستوفي بالسَّبر الفكري ، وإنما بتهذيب النفس ، وتطهير القلب ، والانقطاع عن كل شيء ، حتى يرفع دونها كل حجاب مضروب ، وكل ستار مسدول ، فيرى عالم الغيب ويعاين معارفه وحقائقه بعين القلب »[3] .

ومن ذلك يمكننا القول من استقراء أدب الرسائل ونصوصها المعرفية : إنَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) قد وضع أهم مرتكزات المنطق ، وهي الثقة بالعقل وإثارته وبيان أهمية جانب النفس وعيوبها التي تؤول إلى حجب المعرفة وآفاقها ، فضلاً عن ذلك يظهر لنا الخطأ الفادح الذي أرتكبه علم المنطق عندما ركز على تقنية التفكير، وتجاهل بشكل أو بآخر أهواء النفس وملاذها ، يتبعه عدم وجود بلورة واضحة من علماء الإسلام في بيان ركائز المنطق الإسلامي برؤية القرآن والسنة النبوية ، على الرغم من جهودهم الجبارة في هذا المجال.

---

[1] تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليهم : ١٥ .

[2] الكافي : ١ / ١٣ .

[3] نظرية المعرفة المدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات : ١٨٨ .

الفصل الثاني ـــــــ

وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾[١] ، وقد جاء اليوم الذي عرفوا به الحقيقة بعد أنْ خسف الله بقارون وما يملك ، واستيقظوا من غفلتهم وأبدوا سرورهم من حيث إنهم لم يكونوا مثله ، ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾[٢] .

ويعد التضليل الإعلامي أحد أساليب الدعاية والحرب النفسية والإعلامية التي استعملها معاوية في بث المعلومات والأفكار المغلوطة ونشرها عن سابق تصور وتصميم في أوساط المجتمع الإسلامي ، فقد استطاع خداع كثير من الناس ، وجعلهم يتخبطون في تيه الضلالة والجهل ويركبون الفتن ، فقد روي أنَّ العبسي دخل على أمير المؤمنين ـ وكان رسول معاوية إلى الإمام ـ «فدفع إليه الطومار[٣] ففض خاتمه، فلم يجد فيه كتابه إلاّ من معاوية إلى علي ! مقدما اسمه على اسمه ! فقال للرسول ما وراءك ؟ قال : أنا آمن ؟ قال : نعم ، إن الرسل آمنة لا تقتل، فقال : تركت ورائي ستين ألف شيخ وقد نصب لهم قميص عثمان على منبر دمشق وهم يبكون تحته ولا يرضون إلاّ بالقصاص منك ! قال : أمنّي يطلبون دم عثمان ! ثم رفع يديه وقال : اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان ! اخرج وأنت آمن »[٤] .

إنَّ هذا الخداع والتضليل يكشفه الإمام مصرحاً لمعاوية ؛ إنه سبب لضلالة كثير من الناس، إذ يقول في رسالة لمعاوية في هذا الشأن :

«وقد أرديت جيلا من الناس كثيرا خدعتهم بغيِّك ، وألقيتهم في موج بحرك تغشاهم الظُّلمات ، وتتلاطم بهم الشُّبُهات »[٥] .

---

[١] سورة القصص : ٧٩ – ٨٠ .

[٢] سورة القصص : ٨٢ .

[٣] الطومار الصحيفة أو الكتاب أو الوثيقة أي ورقة ملفوفة ومشدودة ومحزّمة .

[٤] البداية والنهاية : ٧ / ٢٥٦ ، وموسوعة التاريخ الإسلامي : ٤ /٤٧٣ .

[٥] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٣٢ .

ونلحظ من خلال بلاغة الإمام مدى الانحراف الذي دهم عدد كبير من الناس بوسائل وطرق متنوعة من موانع المعرفة وأحكام تلك الوسائل الشيطانية وقبضتها على الناس غير المتسلحين بأسلحة العلم والمعرفة والإيمان، من خلال تعبير الإمام بألفاظ (جيل) و (موج بحرك) و (تتلاطم) .

فـ« لا إشكال ولا ريب في أنَّ الإنسان الاعتيادي لا يتحرك عن طريق محض الإيمان العقلي بالحسن والقبح إلاّ في نطاق ضيِّق جداً ، فإنَّ الإنسان بطبيعته كسول ميَّال للدعة والراحة ، وهو يطلب ـ عادة ـ أجراً على ما يقوم به من عمل خير أو شرٍّ ، ويكون للذَّته وألمه الحظُّ الكبير لتحرّكه » [١]

إنَّ الإنسان لو كان لا يملك ميولاً وشهوات وعواطف خاصَّة وغرائز تجرُّه في كثير من الأحيان إلى القبيح وترك الحسن ، لكانت تربيته خلقيَّاً سهلاً ، ولعلَّه كان نفس التفاته العقلي إلى الحسن والقبح كافياً في اعتناقه للأخلاق الفاضلة ، ولكن أساس صعوبة التربية الأخلاقية يكمن في أنَّ الإنسان يملك ميولاً وشهوات لها الحظُّ الأوفر للتحريك [٢]وهو إشارة الإمام (عليه السلام) بأنَّ معاوية استطاع تحريك تلك الميول والشهوات لدى الشاميين وغيرهم ـ بغَيِّه ـ في أرداء جيلاً من الناس كثيراً .

وَهُنا ينبغي القول بأنَّ مَن يريد أن يسلك الصراط المستقيم وأن يأمن مِن الانحراف يجب عليه أوّلا وَقبل كل شيء إِصلاح نفسه، من تطهير القلب مِن البغض والحسد والعناد، وَتطهير الروح مِن التكبر والغرور، وَبشكل عام تطهير النفس مِن جميع الصفات الرذيلة، لأنَّ القلب إذا تطهَّر مِن هَذِهِ الرذائل وأصبحَ نظيفاً نقيّاً، فسوف يدرك جميع الحقائق ، لِهذا السبب نرى أنَّ الأميين وأصحاب القلوب النقية يدركون الحقائق أسرع مِن العالم الذي لم يقم بتهذيب نفسه.[٣]

والإمام (عليه السلام) يكشف في معركته مع الجاهلية التي تمثلها أساليب معاوية الإعلامية الماكرة في تضليل الناس وإردائهم إلى الجاهلية الأولى ، وابتعادهم

---

[١] تزكية النفس : ٥٣١ .

[٢] ينظر : م . ن : ٥٣١ .

[٣] ينظر : الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ٩ / ١٩

عن نور المعرفة ، واصفاً جيلا من الناس قد خدعهم معاوية محملا أياه مسؤولية هذا الانحراف إذ يقول :

«فجاروا عن وجهتهم ونكصوا على أعقابهم ، وتولّوا على أدبارهم ، وعوّلوا على أحسابهم »[١]

يشير الإمام (عليه السلام) إلى حركة معاوية الزمانية في إتباع أسلافه الذين رعوا الجاهلية ونادوا بها لإرجاع عجلات الزمان المعرفية إلى الوراء وتقمصها بشكل جديد في إرجاع الناس عن الحق إلى زمان الجاهلية وإعراضهم عن الإسلام والرسالة الإلهيّة؛ لذا يشير الإمام أنَّ من الناس كثيراً أخذوا يبتعدون عن معارف الإسلام ومبادئه ، وأخذوا يتفاخرون بالحسب والنسب كما كان العرب يتفاخرون في الجاهليّة[٢].

إنَّ الحركة الأموية وعلى رأسها أبو سفيان ، الذين أعلنوا ظاهراً إسلامهم ، أخذوا يتحينون الفرص ، ويتربصون دوائر السوء للإسلام ، وينتظرون اليوم الذي تملك فيه بنو أميّة مقاليد الأمور ويسيطرون على أجهزة الحكومة الإسلامية ويجلسون مجلس النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وحينئذٍ يتحركون على مستوى إعادة الناس إلى قيم الجاهليّة وثقافتها ، وفي هذا الشأن يقول الكاتب عبد الله العلايلي في تشجيع حياة المجون من جانب الأمويين إلى حد الإباحية : « وقد أثبتُّ في موضوع لي عن حياة عمر بن أبي ربيعة وشعره أنَّ الأمويين استأجروا طوائف من الشعراء والمغنّين والمخنّثين من بينهم عمر لأجل أن يمسحوا عاصمتي الدين مكة والمدينة بمسحة لا تليق بهما ولا تجعلهما صالحتين للزعامة الدينية ، ولقد نجحوا كثيراً عدا ما نتج عن هذا من تأثير عملي وتطوير حقيقي في نفسية الأشخاص التي غدت لا تأبه للحركات الإسلامية المستمرّة ، ثم لا تألف إلا الحياة الماجنة من كلّ الأطراف ، حتى قال الأصمعي : دخلت المدينة فما وجدت فيها إلا المخنّثين ورجلاً يضع الأخبار

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٣٢ .

[٢] ينظر : نفحات الولاية شرح نهج البلاغة ؛ ١٠ / ٩ .

والطُّرف»[1]، وقد أغفل الدكتور شوقي ضيف هذه السياسة الإعلامية في تضليل الناس في نشر حجب المعرفة وأعدها تحضراً ومرحاً بريئاً ، إذ يقول : « نحن إذن بإزاء مجتمع متحضر اكتملت له كل الأسباب كي يمرح أهله مرحاً بريئاً ، مرحاً قوامه الغناء والدعابة والذوق الراقي المهذب »[2] .

أنَّ هؤلاء قد نجحوا في مسعاهم في تضليل الناس وحرفهم عن مبادئ الإسلام من خلال ما وظفوه من ماكنة إعلامية وما جندوه من ضعاف النفوس ، غاية النجاح ، ولولا حركة الإمام الحسين (عليه السلام) الإصلاحية واستشهاده هو وأهل بيته وأصحابه (رضوان الله عليهم) في عاشوراء ، ويقظة المسلمين في ظلّ الثورات المتكررة بحيث لم تستمر حكومتهم أكثر من ثمانين عاماً ، فإنه لا يعلم أحد ما سيجري على الإسلام والمسلمين .

وينبه الإمام (عليه السلام) من أساليب التضليل الإعلامية ، ولاسيما التي تأخذ منحى المواعظ والإرشاد بأساليب منمقة من القول في أخفاء الباطل بطرق استحسان الحق ؛ لأنَّها أشد خداعاً للناس وأكثر أكنة للقلوب ، إذ يقول في رسالته الجوابية لمعاوية يكشف فيه أساليبه في خداع الناس وتضليله الإعلامي :

«أما بعد : فقد أتتني منك موعِظةٌ مُوصَّلة ، ورسالة محبَّرة ، نَمقْتَها بضلالك ، وأمضيتها بسوء رأيك »[3].

فالإمام بعباراته القصيرة يكشف إحدى طرق معاوية وأساليبه المضللة للناس في تنميق القول بأساليب البلاغة البيانية وفنون الموعظة ، وتزين الضلالة بصور الحق .

أو بعبارة أخرى ، أنَّ الإمام (عليه السلام) ينبه العامة من الناس أنْ لا ينجرُّوا وراء الأسلوب الفني من أفانين القول من البلاغة ؛ لأن في بعض الأحيان يكون خلف هذا التزويق الفني أهداف مضلة غايتها تضليل العوام ، وحرفها عن قيادتها الحقة ،

---

[1] الإمام الحسين (عليه السلام) سمو المعنى في سمو الذات : ٢٦، والمذهب الذاتي في نظرية المعرفة: ٤٨١.

[2] تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي : ١٤٢ .

[3] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٤ / ٤٣ .

والنظر إلى أعمال الناس لا أقوالهم ، وهذه الأفانين من أساليب تخبط المنافقين لخبط الأوراق عليهم .

إنَّ أسلوب معاوية في تضليل الناس الذي كشفه الإمام (عليه السلام) ، يشابه إلى حد بعيد طريقة (الفطيرة السكرية)[١] التي تستعملها وسائل الإعلام الحديثة بفعالية وإمكانية التأثير النفسي في ترويج الأخبار البعيدة عن الحقيقة إذ يقنع الخبر السلبي بمقدمة إيجابية تجعل الإنسان لا ينتبه إلى الحقيقة ، فتضيع الحقائق ، وتختلط الأوراق وتسود ثقافة معينة ، تحاول من خلالها الهيمنة على أفكار وسلوك الناس .

ولهذا نشير وننبه القارئ الكريم على أن لا يتجاهل حقيقة أساسية في عصرنا الحديث ، وهي قدرة الماكينة الإعلامية المضللة للغرب التي أصبحت بدرجة كبيرة من التأثير بوجود أجهزة المخابرات الخاصة بها ، وأجهزة الإعلام التي تحدد توقعات البشر، وتخلق أحلامهم بمقاييس تم إعدادها بعناية شديدة ، ومن ثم فالمسلم الذي يقيم تعاليم دينه بحرص شديد ، ويذهب إلى القرآن والسنة بشكل مباشر ، قد لا يدرك أنَّ التعاليم المعرفية العلمانية قد غزت وجدانه ووجدان أسرته ، وأنَّ هذه النماذج قد تشكل إدراكه حتى للقرآن والسنة [٢]، ولهذا يجب عليه أنْ يتسلح بالعلم والمعرفة من مصادرها الحقيقية وإدراك الحقيقة المطلقة لأهل العلم من بيت النبوة إذ « لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد ولا يسوى بهم مَنْ جرت نعمتهم عليه أبداً ، هم أساس الدين ، وعماد اليقين ، إليهم يفيءُ الغالي، وبهم يلحق التَّالي »[٣] .

---

[١] وهي طريقة معاكسة للفطيرة المسمومة تستخدمها وسائل الإعلام على نطاق واسع في تغطية الأخبار ، تراعي فيها الشكل وتكوين هيبة لها ، ينظر : الدعاية والتضليل الإعلامي أساليب وطرق : ١٣٥ .

[٢] ينظر : في أهمية الدرس المعرفي ، عبد الوهاب المسيري مجلة إسلامية المعرفة : ١١٩ .

[٣] نهج البلاغة : ٢٥ .

٣- التقليد الأعمى :

الكتاب الحكيم يذم تبعية التقليد الأعمى الذي يحجب التعقل ، ويمدح المتفكرين والمتذكرين وأولي الألباب ،إذ يشنع على الذين لا يفقهون ولا يتذكرون ، ويرفض هذا المانع المعرفي في مواضع مختلفة من آياته الكريمة ، كاشفاً عن أن هذا الاقتفاء في السلوك لا يغني عن أطروحته الهادية في إيقاظ الإنسان من غفلته ، والممزقة لحجب التقليد ، والهادفة للوصول إلى الحقيقة ، إذ يقول : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١) ، رافضاً هذا التحجر والتصلب في التفكير ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ* إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (٢)، منبّها عاقبة اتباع هذا السلوك في التفكير ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (٣) .

إنَّ هذا الحجاب كان سبباً ومانعاً لهداية الأمم ، ودافعاً لتوارث الكفر والآثام والعادات والسنن القبيحة ، إذ نسجت روح هذا الاقتفاء الأعمى والسير على منوال الآباء حجب سميكة ، وموانع غليظة ، وأغلال لا تكسر فكانت سبباً لضياع الأمم والأفراد في مستنقعات التخلف والوهم وضياع الحقائق الكاشفة نحو طريق الهداية والتكامل ؛ بسبب ما يحمله من ترسبات الجاهلية ، فبدل أن يأخذنا هذا النوع إلى التفكر والتعقل يجعلنا ننقاد إلى الاعتماد على اعتقادات الآخرين ،إذ يشير القرآن بوضوح إلى ذلك فيقول : ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا

---

(١) سورة المائدة : ١٠٤ .

(٢) سورة الشعراء : ١٣٦ – ١٣٨ .

(٣) سورة لقمان : ٢١ .

عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾[١] .

«إنَّ رجوع الجاهل إلى جاهل آخر مثله مذموم في سنة العقلاء »[٢] ، والحال أن كلا الطرفين جهال لا يعلمون من الحق شيئاً ، وكما نعلم إن تقليد العالم لمثله لا يجوز فمن الطبيعي أنْ يكون تقليد الجاهل للجاهل غير جائز ، وأنَّ هذا التقليد أعمى [٣]، يقلب الموازين ، ويهدم النفوس والعقول ، ويفقد الإنسان هويته وشخصيته ولا يعود عليه بالنفع ؛ لأنَّ الهدف الأساس منه هو تقليد الآخرين ، من دون أدنى تقدير لنتائجه [٤]

وبما أنَّ الإمام (عليه السلام) أكثر بحثاً في أصول المعرفة ، فضلاً عن خبرات السنيّن اللتين وهبته مستوى معرفياً وفكرياً في شؤون الرجال يؤكد هذه الموانع المعرفية لمعاوية ويرجعها إلى أصولها البيئية والوراثية إذ يقول :

«أما بعد : فإن ما أتيت به من ضلالك ليس ببعيد الشَّبَه مما أتى به أهلك وقومك ، الذين حملهم الكفر ، وتمنِّى الأباطيل على حسد محمد صلى الله عليه واله حتى صُرعوا مصارعهم حيث علمت ، لم يمنعوا حريماً ، ولم يدفعوا عظيماً ، وأنا صاحبُهم في تلك المواطن ، الصَّالي بحربهم ، والفالُّ لحدِّهم ، والقاتل لرؤوسهم رؤوس الضَّلالة، والمُتبع إن شاء الله خَلَفهم بسَلفهم ، فبئس الخَلفُ خلفٌ اتَّبع سلفاً محلُّه ومحطُّه النارُ ، والسلام» [٥].

إنَّ القراءة المعرفية للواقع التاريخي لآل أبي سفيان في نظرتهم للنبوءة بأنها ملك عضوض [٦]، فضلاً عن سلوكهم كل الطرق لمحاربة الإسلام ، يجعل من الإمام

---

[١] سورة الزخرف ٢١/ ٢٣.

[٢] تفسير الميزان : ٦ /٤٢٥

[٣] ينظر : أدوات المعرفة في القرآن :٥٠-٥١.

[٤] ينظر : التقليد الأعمى ذلك السلاح الفتاك ، أسباب وعلاج ، د . سلام عمر ، مقال على موقع بصائر ٨ / ٩ / ٢٠١٨ م . https://basaer-online.com/

[٥] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٣٤ .

[٦] ينظر : الكامل في التاريخ : ٢ / ٢٤٦ .

(عليه السلام) يضع مقارنة شبه بين معاوية وأسلافه ، لما سار عليه معاوية من الضلال ، يستنتج من معطياته الكفر ثم النار.

فالإيمان بعقائد أسلافه بالسيطرة والسلطة وعدم إيمانهم بمبادئ الإسلام جعلت ظلمة في قلب معاوية وسلبت منه نور الهداية لتقليده الأعمى والتعصب الذي سار عليه آل أبي سفيان كما في قوله تعالى : ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [١].

إن هذا التقليد للأسلاف جعل من معركة الإمام علي (عليه السلام) مع معاوية معركة الإسلام مع الجاهلية وأن يعيش الإمام تلك المعركة بقوله ، بوجوده ، بسلوكه، بكلّ جوارحه ومشاعره ، هذا المفهوم المعطى من قبل الإمام علي (عليه السلام) أي أنَّ معركته مع معاوية كانت معركة بالصيغة الإسلامية الكاملة الشاملة للحياة مع الجاهلية ولكن بالثوب الجديد وعلى مستوى جديد ؛ لأنّ الجاهلية بالأمس لم تكن تقتنع بأفكار الصيغة الإسلامية وبأفكار النبوّة ، ولكن بعد أن سيطر الإسلام على مقاليد كسرى وقيصر، وملك المعمورة ، أصبحت الجاهلية بإزاء واقع استشعرت في مقابل هذا الأمر فعدّلت من موقفها ، فبينما تريد أن تنكر الإسلام ككلّ بدأت تحاول أن تنكر جزءاً من الإسلام ، الجزء الذي يتعارض مع واقع مصالحها السياسية والاجتماعية ، وفهمها لأساليب الحياة وتقييمها للسلوك [٢] .

ولهذا كان (عليه السلام) يرفض هذا التقليد الأعمى للآباء ويحذر منه في كثير من مواضع خطاباته لخصومه بخاصة وللناس بعامة لعل نور الهداية يجد آذاناً صاغية ، ومن ذلك ما نجده في رسالة منه (عليه السلام) إلى معاوية جاء فيها :

«أما بعد : فقد آنَ لك أن تنتفعَ باللَّمحِ الباصرِ من عيان الأمور، فلقد سلكتَ مدارج أسلافك بادِّعائك الأباطيل واقتحامك غرورَ المَيْنِ والأكاذيب[٣] ، من انتحالك ما قد علا عنك، وأبتزازك لما قد اختزن دونك فراراً من الحق)[٤]

---

[١] سورة الشعراء : ٧٤

[٢] ينظر : أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية : ٢٥٥- ٢٥٦ .

[٣] غرور المين : أي الكذب وعطف الأكاذيب للتأكيد .

[٤] نهج البلاغة شرح محمد عبده : ٣ / ٤٢٨ .

إنَّ الخطاب المعرفي للإمام (عليه السلام) يظهر أنَّ صورة الحقيقة واضحة المعالم أمام مرأى الجميع ولكنها لم تكن واضحة في ذهن معاوية ، وهذه الرسالة من الأدلة الواضحة على ذلك في عدم تقبل واقتناع معاوية عن مواعظ الإمام (عليه السلام) فضلاً عن الصورة الملفقة التي «اعتمدها بنو أمية على أنَّ لهم في جاهلية سابقة ومجداً وأنهم ليسوا بأقل من بني هاشم ، فقد كان لواء قريش في الجاهلية لبني عبد شمس ، وسقاية الحاج لبني هاشم ... ثم زعموا جهلاً للالتفات حول الحقائق أنهم ورثة النبي وأحق العرب بالحكم وزعم بعض أنصارهم ذلك ، فقال الشاعر في تكذيبهم»[١]:

أيُّها الناس اسمعوا أخبركم	عجبّا زاد على كل العجب
عجبا من عبد شمس إنهم	فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا احمد فيما زعموا	دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه	يحرز الميراث إلا من قرب [٢]

إنَّ اتباع الأشخاص لإسلافهم في طريق الضلالة والغي والشقاق لكفيل أنْ يؤدي بهم هذا السير إلى الابتعاد عن الحقيقة التي تتلاشى خضم الأوهام فلا ينتفعوا بالحقيقة المسداة لهم فيكون مصيرهم النار ؛ لذا يقول أمير المؤمنين في هذا الصدد في رسالته إلى معاوية :

« ولبئسَ الخلَف خلف يتبع سلفاً هَوَى في نار جهنم »[٣]

فبئس هذا الاستعداد النفسي والاقتفاء الذي يقود لتلك النتائج ، ولا يخفى بأن « التصور الإسلامي لعنصري : الوراثة و المحيط يتمثل في : أنَّ النوع الإنساني يرث أصلا نفسياً عاماً على مستوى الوراثة النقية لا يتمايز من خلالها فرد عن آخر سواء

---

[١] أدب السياسية في العصر الأموي : ١٤ .

[٢] قال هذه الأبيات إبراهيم بن المهاجر البَجَليّ ، مروج الذهب ومعادن الجوهر: ٢/ ٧٣ ،

[٣]شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ١١٧ ، وجمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة : ١ / ٤٢١ .

ذلك متصلا بالمهارات العقلية أو العمليات النفسية بعامة ، بيد أنَّ هناك (وراثة طارئة) تدرج ضمن شروط خاصة تتصل بالأفراد أو الرهوط ، فيما تشكل (استثناء) للقاعدة العامة ، وخارجاً عن ذلك ، فان (التنشئة) تتكفل بتحديد النمط الذي تخطه الشخصية في ضوء (الأصل النفسي) الذي ترثه بـ (القوة) ، ونعني به قدرتها على (التمييز) و (اختيار) النمط الملائم من السلوك »[1] وهي إشارة الإمام (عليه السلام) للفظة (يتبع) ودلالتها إلى اقتفاء الخطوات بدون الإجبار.

ونشير إلى أن الإمام (عليه السلام) لا يذم معاوية على انحراف أسلافه فقط ، بل يؤكد في خطابه على أنَّ هذا الابن يسير في طريق آبائه الضالين الذين ينهى مصيرهم إلى النار[2]، وبهذا يظهر خطورة اتباع الأسلاف واقتفاء سلوكهم في الانحراف عن جادة الصواب ؛ لأنَّ نتيجة هذا التقليد الأعمى نار جهنم .

وسار على هذا الخط في الاقتفاء الأعمى ، عمرو بن العاص في إتباع معاوية لذا يخاطبه الإمام موبخاً إياه في رسالة له جاء فيها :

«فإنك قد جعلت دينك تبعا لدنيا امرئ ظاهر غيه، مهتوك ستره، يشين الكريم بمجلسه، ويسفه الحليم بخلطته، فاتبعت أثره، وطلبت اتباع الكلب للضرغام يلوذ بمخالبه، وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته ، فأذهبت دنياك وآخرتك، ولو بالحق أخذت أدركت ما طلبت»[3]

هذه الرسالة مليئة بالتوبيخ الشديد من قبل الإمام (عليه السلام) لعمرو بن العاص حيث يوبخه الإمام ، لخضوعه وإتباعه الأعمى لمعاوية ويصف معاوية أيضا بالصفات التي يستحقها ، وفيه إشارة إلى المعارف الحقّة ، في أنَّ الإنسان يصل إلى أهدافه عن طريق قدراته وإمكانياته التي وهبها الله له وتسخيرها لصالحه ولكن بطريق الحق ، وليس بطريق الضلالة وإتباع المضلين ، فضلا عن إن التقليد الأعمى قد تصل نتائجه إلى خسارة الدنيا والآخرة .

---

[1] دراسات في علم النفس الإسلامي : ١ / ٤٣ .

[2] ينظر : نفحات الولاية شرح نهج البلاغة : ٩ / ١٩٥ .

[3] نهج البلاغة : ٤٧٩ .

إن القرآن يدعو دائماً ، كل مسلم أن يستغل عقله في ما خلق له من التدبر ، فيتأمل وينظر ويحكم لا عن عقائد موروثه ، بل عن دليل ناطق وشهادة صحيحة [١]

فعمرو بن العاص أخذ يقلد تقليد الأعمى في دنياه إلى رجل قد أعلن الضلالة ، واستباح المعاصي ، ويشين أهل الكرم ، ويستقبح العاقل في مجلسه .

هذه الأوصاف كانت تجسد شخصية معاوية بكل وضوح وتبين من يدعي خلافة النبي الأكرم ومن يجلس على منبره والأدهى من ذلك حال الأشخاص الذين اطلعوا على سيرته وتاريخه ومع كل ذلك يعدوه من صحابة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ويقتدوا بسيرته نتيجة التعصب الأعمى الذي يجر الإنسان إلى كثير من البلايا والآفات وقد بين القرآن أسباب ضلالة هؤلاء في محكم كتابه ، إذ قال عز وجل : ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾[٢]

ولعلنا قد لاحظنا أنَّ نظرية المعرفة الإسلامية حين أدانت اتباع الآباء على ذلك النحو من التشديد فإنما يرجع ذلك إلى الجاذبية الشديدة التي تربط الناس بميراث الآباء، بصرف النظر عن نوعية هذا الموروث ، ودون أن تلفت إلى سنن الله وقوانينه الثابتة ، ومن هنا فإن مشكلة الاقتفاء الأعمى لدى الكافرين ؛ تعني جميع من يقع في مشكلة مخالفة السنن حتى وإن كان مسلماً ، أي أنَّ المشكلة لا يستثنى منها المسلمون كما قد يغفل بعضهم أو يتوهم حين يظن لنفسه مزية خاصة على غيره من الأمم ، مع أنَّ القرآن حين سقَّه تلك المعتقدات ضمن بطريق الإشارة خطورة أنْ يقع المسلمون في تقليد الأعمى على غير بصيرة [٣]، وهذا ما نجده عند بعض شعراء المسلمين الذين أخذوا يقتفون الأثر لموضوعات الشعر الجاهلي كغرض الخمرة ، إذ أوسعوا في هذا المعنى، وأطنبوا فيه وتنوعوا ، فمنهم من مدحها ، ومنهم من وصفها وشبب بها ، ومنهم من ذكر أفعالها وتغزل بها .

---

[١] ينظر : تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي : ١٦ .

[٢] سورة الأحزاب : ٦٧

[٣] ينظر : نظرية المعرفة في القرآن الكريم وتضميناتها التربوية : ١٥٦ .

إنَّ السير على وفق هذا المسلك من شعراء المسلمين لا يفسره سوى التقليد الأعمى لأغراض الشعر الجاهلي ، وعودته من جديد في العصر الأموي بعد أن أمر بتحريمها الإسلام وحدِّ شاربيها ، ويبقى هذا الاقتفاء الأعمى للشعر على الرغم من تأويلات نقاد الأدب الكثيرة ينافي ما دعا إليه الإسلام ويخالفه في إعمال العقل وتوظيف الفكر .

وما يزيدنا تأسفاً أنَّ هناك كثير من الدراسات الأدبية في شأن الخمريات وشعرائها في بيان لغتها وأسلوبها وتطورها[١] ، ولا يوجد دراسة في بيان حجب التي يخلفها مثل هذا الأدب وآفته على الشباب المسلم ولو في مجمل تلك الدراسات كما فعل الكاتب الأندلسي إبراهيم بن علي البونسي في كتابه (كنز الكتاب ومنتخب الآداب) عندما تطرق إلى أدب الحب حيث وضع فصلاً آخر بين آفة الحب وأضراره على المجتمع المسلم [٢] .

إن آفة هذا الأدب تظهرها قصة الشاعر حسان بن ثابت عندما هجم على الفتية من قومه يشربون الخمر فعيرهم في ذلك فقالوا يا أبا الوليد ما أخذنا هذا إلا منك وإنا لنهمُّ بتركها ثم يثبّطنا عن ذلك قولك :

وَنَشْـــرَبُـهـــــا فتتركُـــنـا مُلُـوكـــاً وأُســداً مـــــا يُنَهْنِهُـنا اللّقـــــاءُ[٣]

« إن الإنسان الواقعي هو الذي لا يكتفي بترك الذنوب فحسب ، بل لا يفسح مجالاً في ذهنه وفكره للتفكير في الذنب ، ولا يدع الفكرة المظلمة تمر بخاطره ، فإن التفكير في الذنب حتى ولم يصل إلى مرحلة التطبيق ، يوجد ظلمة روحية في القلب ويمحو

---

[١] ينظر على سبيل المثال لا الحصر : خمريات أبي نواس ومسلم بن الوليد دراسة أسلوبية ، ومجالس الخمر في الشعر الأموي ، وشعر الخمر في العصر المملوكي الأول ، وخمريات أبي نواس دراسة في ضوء علم اللغة النصي ، وخمريات أبي نواس دراسة تحليلية في الشكل والمضمون وغيرها من الدراسات .

[٢] ينظر : كنز الكتاب ومنتخب الآداب : ٢ / ٦٧٢ – ٨٥٤ .

[٣] ينظر : وديوان حسان بن ثابت : ١٩ ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ١ / ٣٤٤ .

الصفاء الروحي من الإنسان »[١] لذا يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) : « صيام القلب من الفكر من الآثام أفضل من صيام البطن عن الطعام »[٢] .

٤- الأماني والطموحات :

الأماني ، جمع أمنية ، والتمني ، تشهِّي حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون وما لا يكون[٣] ، وهي الحالة النفسية التي تعرض للإنسان من جراء تمنيه لشيء ما ، والأماني والطموحات المعقولة والمنطقية ليست نقصاً ، بل هي عامل لتقدم البشر وبناء مستقبل أفضل لهم ، وإنما العيب في الأماني والطموحات البعيدة وغير المنطقية التي تجعل الإنسان في غفلة وتسدل حجاباً من الظلمة على قلبه[٤].

والأماني تنسج حجب غليظة على العقول ، وتفتن الإنسان وتجعله يعيش في متاهات التصورات الخاطئة ، ويصور القرآن هذا الحجاب وما حال بالمنافقين في ذلك اليوم ، إذ يقول سبحانه : ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[٥] .

ومن قراءة الرسائل المتبادلة نجد هذا اللون من الحجب التي تحول من دون الوصول إلى العلم والمعرفة وتخترق نوافذ معرفة الإنسان لتزيغ قلبه وتردمه في الضلال ، ويحذر الإمام من هذا المانع من المعرفة والتمسك به في رسالته إلى معاوية جاء منها :

---

(١) الطفل بين الوراثة والتربية : ١ / ١٩ .

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم : ٢٠٣ .

(٣) ينظر : لسان العرب مادة مني : ١٥ / ٢٩٤ .

(٤) ينظر : نفحات القرآن : ١ / ٢٧٨ .

(٥) سورة الحديد : ١٤ .

«وأُحذِّرك أن تكون متمادياً في غِرَّة الأُمنية ، مختلِفَ العلانية والسريرة »[١]

فالغفلة الناشئة من الأماني والطموحات الموهومة تقود صاحبها في طريق الشيطان وإبعاد الإنسان عن طريق الحق ، بل التمرد على الحق وعن الإيمان بالله واليوم الآخر فيغفل الإنسان حتى واقعه وما يصلحه في هذه الدنيا ؛ لأن «رغبات النفس وآمالها لا تنتهي ولا تصل إلى حد أو غاية »[٢].

والجملة الثانية من النص تشير إلى مانع آخر من موانع المعرفة وهو النفاق في إظهار الإنسان خلاف ما يبطن فيُعد من الرذائل النفسانية والملكات الخبيثة التي تنجم عنها آثار كثيرة ،«فحالة النفاق والازدواجية في الشخصية لدى المنافقين هي أشد خطراً من الشرك ؛ لأن المسلمين يعرفون تكليفهم الشرعي في مقابل المشركين وأعداء الإسلام في حين أنّهم لا يعرفون الموقف الصحيح من المنافقين بسبب تسترّهم بقناع الإسلام والإيمان الظاهري وطعنهم للإسلام من ورائه »[٣] ، ولهذا يقول الأستاذ مرتضى مطهري : «لقد رأينا في التاريخ أنَّ الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) يحارب وينتصر ، ولكن (عليه السلام) لا يستطيع أن ينتصر مثل رسول الله ، والسبب هو أن الرسول كان يحارب الكفار ، وعلي كان يحارب المنافقين »[٤].

فالمرء إذا ترك النفس الأمارة على حالها ، دفعت به بسبب آمانيها وطموحاتها البعيدة ، ومساعدة الشيطان، إلى الفساد ، فيتفاقم حالها ، وتزداد قوة وشدة يوماً بعد يوم ، حتى يصل الأمر بتلك الرذيلة التي تابعها أن تتخذ الصورة الجوهرية للنفس وفصلها الأخير ، وتصبح مملكة الإنسان ظاهرها وباطنها تحت سيطرة تلك الرذيلة ، فإذا كانت رذيلة شيطانية ، كالنفاق والاتصاف بذي وجهين ، مما هو من صفات ذلك الملعون (أي الشيطان) كما جاء في القرآن الكريم : ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ

---

[١] نهج البلاغة : ٤٣١ .

[٢] الأربعون : ١٦٦ .

[٣] نفحات الولاية شرح نهج البلاغة : ٩ / ١٢٣ .

[٤] معرفة القرآن : ٢١٢ .

النَّاصِحِينَ﴾ [1]، بينما كان الأمر خلاف ذلك استسلمت مملكة الإنسان للشيطان ، وأصبحت الصورة الأخيرة للنفس وباطنها وذاتها وجوهرها ، صورة للشيطان ، وقد تصبح صورته الظاهرة في الدنيا أيضا كصورة الشيطان ، وإنْ كانت ملامحه هنا بشرية [2] ، واستحكمت هذه الصفة بنفس معاوية وأصبحت باطنها وذاتها وجوهرها صورة شيطان؛ لذا جاء في كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى زياد بن عبيد[3] هذا المعنى :

«وقد عرَفتُ أن معاوية كتب إليك يَستزِلّ لبك ، ويستفلُّ غربَك ، فاحذَره فإنما هو الشيطان يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ؛ ليقتحم غفلته ، ويستلِبَ غِرَّته ، وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطَّاب فلتةٌ من حديث النفس ، ونزْغَة من نزَغات الشيطان »[4].

ومما ينبغي أنْ نشير له أنَّ البناء الفني لنص الإمام (عليه السلام) ، جاء في جملتين الجملة الأولى ، هي مقدمة للجملة الثانية ، أي بعبارة أخرى أنَّ الطموحات والأماني البعيدة هي أحدى منزلقات النفس التي تقود الإنسان إلى نهاية خطرة تصل به إلى هلاكه ، وهي محطة النفاق ؛ لكونهم هموا بما لم ينالوا وما نقموا ، ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [5] .

---

[1] سورة الأعراف : ٢١ .

[2] ينظر : الأربعون : ١٤٥ .

[3] المستفاد من كتب التاريخ أنَّ أم زياد كانت جارية لطبيب معروف عند العرب يدعى (حارث ابن كلدة) والتي تزوجت من عبد يدعى (عبيد) وحسب الظاهر كان زياد نتيجة ذلك الزواج ، ولذلك يقال له زياد بن عبيد ، ولكن بما أنَّ والده كان عبداً وغلاماً غير معروف فرجح بعضهم أن يقال عن زياد (زياد بن أبيه) والظاهر أنّ زياد نفسه لم يكن يأبى هذا الاسم ، ولكنّه بعد ألحقه معاوية بأبي سفيان أدعى أنّه أخوه لذا كان يقال له : زياد بن أبي سفيان ، ينظر : نفحات الولاية شرح نهج البلاغة : ١٠ / ١٢٢ ، والاستيعاب في معرفة الأصحاب : ٤ / ١٥٣٠ .

[4] نهج البلاغة : ٤٨٥ .

[5] سورة التوبة : ٧٧

إنَّ الطموحات والأماني البعيد لمعاوية ومحاولة تحقيقها من خلال النفاق نراها في نص أخر في رسالة أخرى لأمير المؤمنين كاشفاً فيها أهداف معاوية ومقتل الخليفة عثمان :

« ولعمري ما قتلَه غيرُك ، ولا خَذَلَه سواك ، ولقد تربَّصْتَ به الدوائرَ ، وتمنَّيتَ له الأمانيَّ ، طمعاً فيما ظهر منك ، ودل عليه فعلُك »[1] .

فالإمام (عليه السلام) يعلن أنَّ سبب مقتل عثمان كان بسبب إمارة معاوية وإسرافه وتبذيره وتعصبه القبلي وعدم مساواته بين الرعية ، من جانب والأماني وتضليل الخليفة عثمان من النهوض بواقع الأمة وتغرّره في عدم تلبية مطالب الجماهير من جانب آخر ، وحتى أنَّه حينما استنجده عثمان تركه وحيداً أمام أصوات الجماهير المطالبة بالتغيير.

إنَّ الأماني والطموحات كانت سبباً في ضياع الحقيقة ، وعدم سماع صوتها من قبل الخليفة عثمان الذي غرر معاوية ورسم له الآمال الطويلة في التغاضي عن مطالب الجماهير ؛ التي كانت سبباً لمقتله ، فضلاً عن الطموحات معاوية الباطلة التي وجهت مسار الخلافة الإسلامية إلى منعطف خطير ، إذ أوصل الأمة إلى الضياع والتشتت ، وتحويلها من أمة ذات رسالة سماوية إلى مجتمع مشبعٍ بالروح المادية الطاغية متسترٍ بظل دولة إسلامية كانت تستمد قوتها الروحية والمادية والفكرية من الإسلام .

٥- الترف :

الترَف عند أهل اللغة هو النَّنعم ، والتُّرفة والنَّعمة ، والمتْرَف : الذي قد أبطرته النعمة ، وسعة العيش ، والمترَفُ ، المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها ، وأترفته النعمة ، أي أطغته[2]، أو هو : التنعم في الدنيا بغير طاعة الله تعالى[1] .

---

[1] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٨٤ .

[2] ينظر : لسان العرب مادة ترف : ٩ / ١٧ .

ويعرف الترف اصطلاحاً : بأنَّه « هو مجاوزة حد الاعتدال في التنّعم وإشباع رغبات النفس » [٢] أو هو « كل مترف بدّل نعمة الله كفراً ، وقد يكون هذا المترف فرداً أو جماعة، أو مجتمعاً، أو سلطة حاكمة، كما هو حال وشأن السلطات التي تعاقبت على حكم المسلمين وغيرهم في تاريخ الإنسان »[٣] ، ومن هنا يمكن لنا أن نميّز بين النعمة بما هي نعمة أفاضها الله تعالى على الإنسان ؛ لتكون في سبيل الله تعالى، وبين التُّرْفة بما هي شهوة ولذّة وخروج عن طاعة الله تعالى، وكثير من الناس ممّن بدّلوا النعمة إلى ترفة ، وأخذوا يحاربون نعم الله في نشر المعارف وهداية البشر إلى سبل الرشاد ، ولعلّ ما عرض له القرآن من علاقات سلبية بين الأنبياء (عليهم السلام) والمترفين كاشفاً عن هذه الحقيقة، باعتبار أن المترفين، بما هم أصحاب نفوذ ومشاريع سلطوية كانوا دائماً في طليعة المعارضين للمشروع الإلهي التي تحمله النبوّة ، وقوله تعالى ﴿ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [٤]دليل حيّ وساطع على أن المترفين هم سبب كل جهل وفساد في المجتمع الإنساني، وقد تجاوز الحال بالمترفين إلى أن يكونوا في طليعة من يواجه المشروع الإلهي من خلال استثمار ليس المال وحسب في مشروع الصدّ عن سبيل الله وتعاليمه، بل تجاوزوا ذلك إلى أن يكون الدين أيضاً، بما هو سنّة اجتماعية، سبيلاً للترف ، على نحو ما بيّن فرعون في مواجهة مع النبي موسى (عليه السلام) بقوله :﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾[٥].

والمترفون تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل، ويغرهم ما هم فيه من ثراء وقوة ، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله، ويخالون أنَّه آية الرضا عنهم، أو أنهم في مكان

---

[١] ينظر: مجمع البحرين : ٥/ ٣٠ .

[٢] الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي : ٩ .

[٣] المترفون وصناعة الفساد ، إشكالية الترف في الدين والسياسة ، قراءة من منظور قرآني : ١ / ١٨ .

[٤] سورة سبأ : ٣٤ .

[٥] سورة غافر : ٢٦ .

أعلى من الحساب والجزاء: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [1] ، والقرآن يضع لهم ميزان القيم كما هي عند الله ويبين لهم أنَّ بسط الرزق وقبضه، ليست له علاقة بالقيم الثابتة الأصيلة ، ولا يدل على رضا ، ولا غضب من الله ، ولا يمنع بذاته عذاباً ولا يدفع إلى عذاب ؛ إنما هو أمر منفصل عن الحساب والجزاء ، وعن الرضا والغضب، يتبع قانونا آخر من سنن الله : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [2].

وعند مطالعة الرسائل المتبادلة بين الإمام (عليه السلام) وخصومه نجد هذه الآفة قد حفرت موقعها عند معاوية ، إذ يقول أمير المؤمنين في أحدى رسائله منبها معاوية عن غفلته في هذا الشأن :

«أعلِمك ما أغفلت من نفسك ، فإنّك مترف، قد أخذ الشّيطان منك مأخذه ، وبلغ فيك أمله ، وجرى منك مجرى الرّوح والدّم »[3].

لا شكّ في أنَّ كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) كاشف عمَّا يعنيه حبّ الدنيا والتنعّم فيها إلى حدّ الترف والتلهّي، فهو (عليه السلام) يبيّن أن الترف، كما جاء في المعنى اللغوي، يمنع من التبصّر بحال الدنيا وما هي عليه من فناء وجلاء والتباس على الناظر إليها والمتمتّع فيها، هذا فضلاً عن كلامه هو استنطاق للآيات القرآنية وما تختزنه من مفاهيم ودلالات عن الترف والمترفين، والدعوة إلى صرف النظر والقلب عمّا متّع به المترفون فيها، الذي دفع بالإنسان إلى الاستغناء بالدنيا عن الآخرة، والركون إلى ما هو زائل ومدبر.

فالترف «يغلظ القلوب، ويفقدها الحساسية ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل، ولا تتفتح للنور»[1] ، فيتراكم الرين

---

[1] سورة سبأ : ٣٥ .

[2] ينظر: في ظلال القرآن : ٥ /٢٩١٠ ، سورة سبأ : ٣٦

[3] نهج البلاغة : ٤٣١ .

على قلب الإنسان ، جراء كثرة الذنوب ؛ يصبح حبيس الأهواء والشيطان ، فلا يكاد يبصر ولا يعقل بسبب غفلته وعدم تدبره للحقائق على الرغم من امتلاكه العقل والحواس ، فيخرج عن طاعة الله الى طاعة الشيطان ، ويصبح عبداً لتلك الأهواء والشهوات التي أصبح أسيراً لها .

إنَّ مفهوم الترف يمكن استجلاؤه من رؤية الإمام علي (عليه السلام) في اقترانه بالشيطان ، طالما عرفنا كما بين أهل اللغة ، هو التنعم بالملذات والشهوات ، والاهتمام بملاذ الدنيا وحطامها الزائل على حساب القيم والمبادئ السامية ، فيكون ضرر الترف كضرر الشيطان في الإنسان والأمم ، فيكون مانعاً لرؤية المعارف الحقّة، التي تترك الإنسان يصنع ما يشاء لا تهمه المعصية ، ولا تستهويه قيمة .

وظّف الإمام (عليه السلام) دلالة معنى الترف مثلما وظّفها القرآن الكريم ، باعتبار أنَّ القرآن لم يأتِ على كلمة الترف إلا بالذم ، والإمام جعل هذه الكلمة ملازمة لكلمة الشيطان الذي هو عدو الإنسان كما وصفه القرآن في كثير من المواضع[٢] .

نعم، فإنَّ هذه الفئة المترفة الغافلة الطاغية كانت في الصف المتقدم من مخالفي الأنبياء عادة، لأنَّهم يرون أنَّ تعليمات الأنبياء تتضارب مع أمانيهم وأهوائهم من جهة، ولأنَّ الأنبياء يدافعون عن حقوق المحرومين التي اغتصبها هؤلاء المترفين ونالوا هذا النعيم، من جهة ثانية، ولأنهم دائماً يستخدمون عامل التسلط لحماية مصالحهم وأموالهم

---

[١] في ظلال القرآن : ٥ /٢٩١٠ .

[٢] قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة : ٢٠٨] ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء : ١٢٠] ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف : ٥] وغيرها من الآيات الكريمة .

من جهة ثالثة، والأنبياء يقفون قبالتهم في كل هذه الحالات؛ لذا فإنهم يهبون فورا لمخالفة الأنبياء [١] .

وقد أطلق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لفظ الموتى على كل غنيٍّ مترف وسلطان جائر وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام : «أربع يمتن القلب الذنب على الذنب وكثرة مصاحبة النساء وحديثهن وملاحاة الأحمق تقول له ويقول لك ، ومجالسة الموتى قيل يا رسول الله وما مجالسة الموتى قال كل غنى مترف وسلطان جائر»[٢].

ومن دلالة حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) للترف ، نجد لوناً آخر من ألوان الترف إلا وهو ترف السلطة لدى الحكام الطغاة ، كما جاء في رسالة معاوية إلى الإمام علي (عليه السلام) :

«وقد كنت سألتك الشام على أن لا تلزمّني لك بَيعة وطاعة فأبَيت ذلك عليّ ، فأعطاني الله ما مَنعت ، وأنا أدعوك اليومَ ما دعوتُك إليه أمس ، فإني أرجو من البقاء إلا ما ترجو ولا أخاف من الفناء إلا ما تخاف»[٣].

إنَّ المعرفة تستمد قيمتها من حصيلة مردودها للمجتمع[٤] ، لا من حب السلطة وتسخير الأرض وكل من عليها لمجموعة من الناس ، ومن أجل إشباع الشهوات والغرائز ؛ لذا نجد معاوية في رسالته يطلب عدم التقيد بالقوانين والمبادئ التي تسيِّر السلطة في حكومة الإمام لمعرفة بان تلك البيعة لا تخدم مصالحه ؛لأنَّ الحكم في نظره هو التعالي والتآمر والتسلط على الناس والنوازع شخصية إذ يخاطب أهل العراق:

« ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا إنكم لتفعلون ذلك ولكن قاتلتكم لأتأمر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وانتم له كارهون »[٥] .

وهؤلاء المترفون غطى الرين قلوبهم ، وجرى الشيطان مجرى دمهم وأطلقوا العنان

---

[١] الأمثل في تفسير الكتاب الله المنزل : ١٣ / ٤٥٩ .

[٢] وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة : ١٣ / ١٩٨ .

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ١٢٣ .

[٤] ينظر : فلسفة العلوم بنظرة إسلامية : ٢٥ .

[٥] مقاتل الطالبيين : ٤٥ ، والبداية والنهاية : ٨ / ١٤٠ .

لشهواتهم الحيوانية، وأصبحوا لا يقبلون برقابة إلهيّة، ولا يعترفون بيوم البعث حيث تنتظرهم محكمة العدل الإلهي ، هذا هو شعارهم المعبّر عن فتنتهم و ضلالهم الصارخ ، فيغتنموا هذه الفرصة فلا خبر جاء و لا وحي نزل ، و من يدّعي ذلك فهو كاذب .

وترف السلطة يجلب الشعراء وغيرهم من أهل اللهو واللعب ، فقد كانوا ينادمون الخلفاء والوزراء وكبار الدولة ، ويختلطون بالجواري والإماء ، وانصب في جحورهم كثير من الأموال التي جعلتهم يعيشون عالماً مترفاً زاخراً بالحلي والزينة ، يقول الجاحظ : « وكانت الشعراء تلبس الوَشْي والمقطّعات والأَرْدية السود وكل ثوب مشهَّر»[1] ، ويقول: إنَّهم كانوا يتندرون على من يتزيَّا بزي الماضين، ويقول صاحب الأغاني عن سُلَّم الخاسر: « كان يأتي باب المهدي على البرذون (الفرس المطهم) قيمته عشرة آلاف درهم، والسرج واللجام المقذوذين (المزينين) ولباسه الخزُّ والوشي وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه »[2]، وكان غير سلم يصنع تصنيعه في حياته وثيابه وطيبه .

إنَّ شغف السلطة و« الترف والبذخ والإسراف يوجد في الإنسان حالة نفسية وفكرية تغير الموازين والمقاييس الإنسانية إلى موازين ومقاييس حيوانية ، وتوجب حالة من الشعور ، تعمي القلوب ، وتصمّ الآذان عن رؤية وسماع الحقائق ، وإن هذه الأشياء توجد حالة خاصة في الإنسان وتذيب كيانه ، وتصهر شخصيته ، وتطمس إنسانيته»[3].

ومن ذلك نعلم إنَّ هذه الفئة الضالة الطاغية تعيش في كل زمان وتتخذ كل مكان ميداناً لجولاتها في نشر الفساد والقتل والتدمير وتعيش حالة الشغف اللامحدود بالمال والثروة والجاه ، تراهم يضربون طبول الحرب في كل مكان ، ويقدون نار الفتنة في

---

[1] البيان والتبيين : ٣ / ٧٨ .

[2] الأغاني : ١٩ / ١٨٠ .

[3] نظرية المعرفة في الإسلام : ٤٥٤ .

صفوف الذين يخالفونهم ، وينعقون بآلتهم الإعلامية كل صنوف الغواية والانحلال ، ويصنعون كل صنوف أسلحة الدمار ، أصموا آذانهم وأعموا عيونهم ، واقفلوا قلوبهم عن رؤية الحقائق وأصوات الخير والتفكر في الغاية من خلق الإنسان ، فهؤلاء أصبحوا عبيداً للدرهم والدينار ، وأضحوا ألعوبة بيد الدنيا ، والدنيا ألعوبة بيدهم .

٦- التعصب :

التعصب في اللغة : من العصبية ، وهو: أنْ يدعو الرجل إلى نصرة عصبته ، والتألب معهم على من يناويهم ظالمين كانوا أو مظلومين ، أو من يعين قومه على الظلم [١] .

ويعرف التعصب اصطلاحاً : « اتجاه سلبي يتضمن مجموعة من الأفكار والمعتقدات الثابتة حول الأشياء أو الأشخاص الآخرين بحيث يصدر أحكاماً ثابتة ضدهم في جميع الظروف ، وتحدد الاتجاه السلبي في الاتجاهات الشخصية والدينية والقومية »[٢] أو هو « اتجاه نفسي لدى الفرد يجعله يدرك فرداً معيناً أو جماعة معينة أو موضوعاً معيناً إدراكاً محباً أو سلبياً كارهاً دون أن يكون لذلك ما يبرره من المنطق أو الشواهد التجريبية » [٣].

والتعصب حجاب خطير من حجب المعرفة ، يجعل الإنسان أسيراً لواقعه وإن كان فاسداً ، ويجعله خاضعاً لأفكاره وإنْ كانت باطلة ، إذ يمنع الإنسان إلى الوصول إلى الحقائق والسير على هداها ، فهو طريق إلى الضلال والانحراف عن السلوك السوي .

---

[١] ينظر : لسان العرب مادة عصب : ١ / ٦٠٦ .

[٢] التعصب وعلاقته بالهوية الاجتماعية والمكانة الاجتماعية لدى العاطلين عن العمل ، د . بشرى عناد مبارك ، مجلة الفتح ، العدد ٥٣ : ٧٥ .

[٣] موسوعة علم النفس والتحليل النفسي : ٢١٥ .

وطريق التعصب طريق سيىء ، أول من سنَّه إبليس ، إذ يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبة له في ذم إبليس : « إبليس اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخَلْقِه وتعصب عليه لأصلِه ، فعدّو الله إمام المتعصِّبين ، وسلف المستكبرين ، الذي وضع أساس العصبيّة » [١] .

والإسلام نبذ تلك العصبية ، وألغى المفهوم القبلي ، ووضع مفهوم الأمة بدلاً منه ، وأقره بصريح القرآن ﴿إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [٢] ، فذم حاملها وداعيها والغاضب من أجلها ، وناصرها [٣] ، بصريح الأحاديث الكثيرة ، إذ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «من قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبة، أو ينصر عصبة، أو يدعو لعصبة، فقتل، قتل قتلة جاهلية »[٤] ، وقوله صلوات الله عليه وعلى آله : «ليس منّا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل عصبيّة ، وليس منا من مات على عصبية »[٥] .

وعلى الرغم من ظهور الإسلام وأثره في الحياة العربية لكن مازالت الجاهلية قد ألبست عباءتها في المجتمع العربي ، وأخذ الكثير يتوسل بالعصبية القبلية كوسيلة للوصول إلى أهدافه وغاياته المحدودة الضيقة ، وأصبح التعصب والجدال « هذين المانعين من أعظم سدود المعرفة عبر التاريخ وهما اللذان منعا الناس من الإيمان

---

[١] نهج البلاغة : ٣٣٢ .

[٢] سورة الأنبياء : ٩٢ .

[٣] ينظر : الايجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام : ١٧٥ ، وتاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي : ١٩ .

[٤] مسند أحمد: ٤ / ٤٢١ ، وجامع الأصول في أحاديث الرسول (صلى الله عليه وآله) : ١٠ / ٨٥ .

[٥] صحيح مسلم : ٦ / ٢١ ، وسنن أبي داود : ٢ / ٥٠٣ ، وجامع الأصول : ١٠ / ٨٥ .

ببراهين أنبياء الله الواضحة والقاطعة » [١] ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ [٢] .

إن التعصب والجدال الأعمى والمكابرة أمام أمواج المعرفة ما هو إلا ضرب من الجنون الذي يهدم الإنسان والأمة على حد سواء ، وتأخير عصب الحياة [٣] .

والتعصب والجدل والتمسك بالمصالح بغير حق وقول الزور ، نجد له ملامح واضحة في بعض نصوص الكتب المرسلة من قبل معاوية بن أبي سفيان إلى الإمام (عليه السلام) ومن ذلك في كتابه :

«أما بعدُ : فدعني من أساطيرك ، واكفُفْ عني من أحاديثك وأقصِر عن تقوُّلك عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وافترائك من الكذب ما لم يقل ، وغُرورِ من معك والخداع لهم فقد استغويتهم ويوشكُ أمرك أن يكشف لهم فيعتزلوك ويعلموا أن ما جئت به باطل مُضمحلٌّ ، والسلام »[٤].

نلحظ من النص السابق وضوح صورة التعصب والجدل واستعمال مقاييس المغالطة التي لا تفيد المعرفة بشيء ، وليس في رسالة معاوية إلا التمادي في الباطل والعداء للحق والتنكر للقيم والأعراف والمُثل التي تؤمن بها الأمم والشعوب [٥] فإن الهدف من المجادلة تعمد تغليط الغير[٦] ، وحجب الرؤية وإيصال المتلقي إلى صورة ضبابية غير واضحة المعالم .

ومعاوية وأمثاله «في الواقع غمسوا قلوبهم وعقولهم في التعصب الجاهلي الأعمى وفي المصالح المادية بحيث أصبحت وكأنها واقعة تحت الأستار والحواجز »[٧] .

---

[١] أدوات المعرفة في القرآن : ٤٨

[٢] سورة الزخرف : ٢٣

[٣] ينظر : أدوات المعرفة في القرآن : ٤٨

[٤] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٣٥ .

[٥] ينظر : موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) : ٤/ ٤٤٠ .

[٦] ينظر : نظرية المعرفة المدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات : ٣١٨ .

[٧] تفسير الأمثل :٤٠/٤٢.

ويظهر الإمام (عليه السلام) أسباب هذا التعصب والجدل والغاية منه وبيان أسباب الابتعاد عن نور المعرفة ، إذ يجيب معاوية على رسالته السابقة :

«أما بعد : فطالما دعوتَ أنت وأولياؤك أولياءُ الشيطان الرجيم الحقَّ أساطيرَ ، ونَبَذتموه وراء ظُهوركم ، وحاولتم إطفاءَ نُورِ الله بأيديكم وأفواهكم ، وَيأبى الله إلاَّ أن يُتمَّ نُوره وَلَو كره الكافرونَ ، ولعمري لَيتمنَّ النورُ على كرهك ولينفذنّ العالم بصغارك وقَمأتِك ، ولتخسأنَّ طريداً مدحوراً أو قتيلاً مبثوراً ، ولتجزينّ بعملك حيث لا نصار لك ولا مصرخَ عندك»[1]

ويظهر من مكاشفة النص أنَّ الذي تظهر عليهم سمات موانع المعرفة من التعصب والجدل ، ويطغى عليهم الرين ، يتمظهرون بصفات أولياء الشيطان في نكران الحق ، واتهامه بالباطل ، والابتعاد عن الحقيقة ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[2]، محاولين إطفاء نور الحق المطلق بكل ما أتيح لهم من قوة عضلية أو لسانية ؛ ولكن يأبى الله إلا أن يتمَّ نوره في إشارة واضحة ومكاشفة قرآنية للآية الثانية والثلاثين من سورة التوبة [3] .

ويظهر النص أيضاً دعوة الإمام (عليه السلام) لمعاوية الخضوع لنداء الحق ورضا الله تعالى من خلال بيان عاقبة الإصرار على أفعاله ؛ ولكن ابن هند أعار ذلك أذناً صماء وعيناً عمياء فأصرَّ على الغي والعدوان ومناجزة وصي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وباب مدينة علمه [4].

ويظهر الإمام (عليه السلام) موضع آخر من مواضع التعصب ومجادلة أهل الحق إذ يقول في رسالته إلى معاوية بن أبي سفيان :

---

[1] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٨٤ .

[2] سورة الأنعام ٢٥.

[3] قوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ .

[4] ينظر : موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) : ٤/ ٤٤٣ .

«يا بن حرْب ، إنَّ لجَاجَك في منازعة الأمر أهلَه من سفاه الرأي فلا يُطْمعنَّك أهل الضلال ، ولا يوبقَنَّكَ سفة رأي الجهال »[١]

فمنازعة أصحاب الحق في حقهم تبعد عن الحكمة في إصابة الحق والعمل به وتضفي إلى الندم ؛ لذا روي عن رسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : «إياكم واللَّجاجة ؛ فإن أولها جهل ، وآخرها ندامةٌ »[٢].

ويبين الإمام (عليه السلام) أيضا إنَّ من حجب المعرفة ، هو سماع صوت أهل الضلالة والجهل فهم كالشيطان يزين القبيح .

إنَّ اتباع طريق الضلالة والغواية والتعصب هو سبب الابتعاد عن المعرفة والتمسك بموانعها والابتعاد عن منطق العقل وعدم التمسك بمصادر المعرفة ولاسيما الغيبية منها لكونها طريق المعرفة والهداية .

ونجد أثراً آخر من أثار التعصب ، وهو الحمية القبلية في أخذ الثأر بطرق همجية رعناء بعيداً عن مفهوم الحضارة والمعرفة ، قال تعالى : ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [٣] إذ نلتمس هذا التعصب الجاهلي في أخذ الثأر ، ما جاء في كتاب معاوية إلى الإمام (عليه السلام) :

«أما بعدُ: فلعمري لو بايعكَ القوم الذي بايعوك وأنت بريءٌ من دم عثمان لكنت كأبي بكر ، وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ، ولكنك أغرَيت بدم عثمان المهاجرين ، وخذَّلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهلُ وقويَ بك الضعيفُ ، وقد أبَى أهل الشام إلا قِتالَك ، حتى تدفع إليهم قتله عثمان ، فإنْ فعلت كانت شورى بين المسلمين »[٤]

إنَّ روح الجاهلية لدى معاوية كانت نافذة للتمسك بالسلطة واللهث بالمطالبة بدم

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٨٥ .

[٢] تحف العقول عن آل رسول : ١٤ ، بحار الأنوار : ٧٧ / ٦٧ .

[٣] سورة الفتح : ٢٦

[٤] العقد الفريد ، ٤ / ٣٣٣ ، والإمامة والسياسة : ١ / ١٢١ .

عثمان المزعوم من علي (عليه السلام) ، إنَّ روح الأخذ بالثار والابتعاد عن مفاهيم المعرفة قد نادى بحرمتها الرسول العظيم في حجة الوداع[١] .

والمعروف «إنَّ معاوية قد نشأ في وسط أغلظ الجاهليات القبلية التي حاربت الإسلام وأعرافه حتى أخضعها الإسلام بقوة السيف ، نشأ فيها حتى صلب عوده، وانتقل على كبر سنّة من مكّة بعد فتحها إلى المدينة ، ومن الجاهليّة إلى الإسلام ، ولم يمكث في المجتمع الإسلامي الناشئ إلا وقتاً قصيراً لا يكفي ليتطبع فيه بالطابع الإسلامي الجديد عليه ويتمرن به ليستطيع أن يؤثر على ذلك المجتمع الذي امتدت حضارته إلى آماد بعيدة في الدهر بل هو الذي تأثر بها» [٢]

أما الشام التي تناصره وتطيعه في معصية الله «وكما تجمع عليه كل المصادر التاريخية ، دخلت الدولة الإسلامية بالفتح العسكري ، ولم يدخلها الإسلام دخولاً كبيراً ، بل دخلها بالاسم والشعارات فقط ، ولم يدخل بمضمونه الحقيقي الواعي إلى قلوب الشام ، فهم ما زالوا يعيشون رواسب جاهلية ، متأثرين بالأفكار التي آمنوا بها قبل الإسلام ، حتى أن أوضاعهم الفكرية والاجتماعية والسياسية لا تختلف بدرجة كبيرة عما كانوا عليه قبل الإسلام » [٣] ، معاوية لم يكن يرى أي تناقض بين أهدافه وأطروحته ، وبين المجتمع الشامي ، الذي كان وضعه الفكري والاجتماعي والسياسي مؤهلاً تماماً لتقبل أطروحة معاوية [٤]؛ ولهذا استفحلت آفة المعرفة في الركون إلى الروح العصبية الجاهلية وجعلته يتخبط تخبط التيه في صحراء الجاهلية ، فيناقض كتابه بدايته ، فمرة يعترف بالبيعة للإمام ويضع لها شرط القبول ، ثم ينقضها بطلب الشورى ، ولا سرّ لهذا التَّناقض والتَّهافت إلَّا الهوى والجهل ، والعصبية .

والركون إلى أفات المعرفة من الجهل في تدليس الحقائق في دعوى خصوم الإمام تتلقى في المقابل صدى المعرفة والعلم ، وحنكة التدبير ومراس التنظيم ، فمعاوية

---

[١] ينظر : خطبة الوداع ، تحف العقول عن آل الرسول : ٢٩ .

[٢] الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ادوار محورية وقيادة متميزة : ٢٤٢ .

[٣] م . ن :٢٤٨- ٢٤٩ .

[٤] ينظر : م . ن : ٢٤٩ .

يريدها حمية جاهلية وسلطة كسروية وأمير المؤمنين (عليه السلام) يجاهد من أجل دولة قانون ، وسلطة قيم وحكم شرع ، إذ يقول (عليه السلام) في رسالة إلى معاوية جاء فيها :

«وقد أكثرتَ في قتلة عثمان ، فإن أنت رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكَمت القومَ إليّ حملتك وإياهم على كتاب الله ، وأما تلك التي تُريدها فهي خُدعة الصّبيّ عن اللّبن » [١]

إنَّ الإلحاح في طلب الثأر بطرق الأعراف الجاهلية والابتعاد عن مفاهيم سلطة المعرفة يكشف ألاعيب معاوية في الركون إلى الجهل والضلالة وانغماسه في مستنقع الجاهلية، لزعزعة النظام المعرفي في الأمة الإسلامية التي أراد الله أن يجعلها خير الأمم ، ويقول شوقي ضيف في هذا الشأن : « ومما لاشك فيه أنَّ موقف معاوية كان سبباً قوياً من أسباب استشعار جماعته للعصبية القبلية ، فقد مضى يطالب بحق عشيرته الأموية في الأخذ بثأر عثمان ، وكأنه أحيى قاصداً أو غير قاصد الفكرة القديمة التي كانت تجعل حق الثأر للقبيلة والعشيرة ، والمعروف أنَّ الإسلام هدم هذا الحق وحوَّله من القبائل والأفراد إلى الدولة ، فهي التي تعاقب عليه بما يفرضه دستور القرآن الكريم » [٢] .

فالإلحاح في قضية مقتل عثمان ، ما هو إلا إلحاح للرجوع إلى الحمية الجاهلية التي نهى عنها الشرع المقدس ، والحصول على مكسب ميداني حاضر ومحدود يكون « على عكس التفسير الواقعي للحياة الذي يقدمه الإسلام ، الذي يوسع ميدان الإنسان، ويفرض عليه نظرة أعمق إلى مصالحه ومنافعه »[٣].

وآفة العصبية المتأصلة في معاوية تجعل منه رجلاً قبلياً متعصباً للنسب والمكان ، حيث يظهر ذلك في كتابه الذي أرسله إلى الإمام (عليه السلام) بعد أن استقام له الأمر بعد واقعة التحكيم ، جاء فيه :

---

[١] العقد الفريد : ٤ / ٣٣٢ .

[٢] تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي : ٢٣٠ .

[٣] فلسفتنا :٤١ .

«سلام الله على من اتبع الهدى .

أما بعدُ : فإنا كنا نحن وإياكم يداً جامعة ، وأُلْفَة أليفةً ، حتى طمعتَ يابن أبي طالب ، فتغيَّرت وأصبحت تَعُدُّ نفسك قوياً على من عاداك بِطغَام أهل الحجاز وأوباش أهل العراق ، وحمقى الفسطاط[١] ، وغوغاء السَّواد وآيم الله لينجِلينَّ عنك حَمقاها ، ولينقشعنَّ عنك غوغاؤها انقشاع السَّحاب عن السماء »[٢] .

إنَّ رداء العصبية يغلف بعض فيجعلهم محامين ومدافعين عن الباطل مستعملين أساليب غير مشروعة في الوصول إلى أهدافهم وغاياتهم المحدودة ، إذ تخرجهم العصبية من دائرة العقل والاتزان إلى دوائر الغرائز المنفلتة ، فتنعدم لديهم معايير الحق والعدل حينئذ ، وينجرون إلى الكذب والتدليس ، فضلاً عن المبالغة والتهويل أو التهوين ، ومعاوية يرتدي هذا الرداء لأنه « رجل قبلي ينظر إلى الأمور بمنظار العصبية ، ويقيس الأفكار بمقياسه العشائري »[٣].

ويحاول معاوية إخفاء هذا الأثر الجاهلي في خلط الأوراق وإيهام المتلقي غير المباشر في تصوير الماضي تصويراً مبهما كما لو كان يقصد بتلك الألفة ألفة الإسلام، وبتلك اليد الجامعة يد الإيمان ، لخداع المتلقي والوصول إلى غاياته ، وهنا نفهم معنى قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «من كان في قلبه حبَّةٌ من خردلٍ من عصبيةٍ بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية»[٤]

ولكن الإمام (عليه السلام) يبين الفاصل بين الجاهلية والإسلام وينقض تلك الأفكار الجاهلية في كتابه الذي أجاب فيه معاوية :

«أما بعد : فقدّر الأمور من ينظر لنفسه دون جُنده ولا يشتغل بالهزْل من قوله ، فلعمري لئن كانت قوَّتي بأهل العراق أوثق عندي من قوتي بالله ومعونتي به ليس عند

---

[١] الفسطاط : مدينة مصر التي بناها عمرو بن العاص ، ينظر : معجم البلدان : ٤ / ٢٦٤ .

[٢] الإمامة والسياسة : ١ / ١٠٠ .

[٣] رسائل الإمام علي (عليه السلام)، دراسة أدبية نقدية :٢٧٠.

[٤] الكافي :٢/ ٣٠٨ ، والخصال : ٧٠٤ ، وبحار الأنوار ٧٢ /٢٨٤ .

الله تعالى يقين من كان على هذا ، فناج نفسك مناجاة من يستغنى بالجدِّ دون الهزل ، فإن من القول سعةٌ ، ولن يُعذر مثلك فيما طمحَ إليه الرجال .

أما ما ذكرتَ من أنا كنا وإياكم يداً جامعة ، فكنا كما ذكرت ، ففرِّق بيننا وبينكم إنَّ الله بعث رسوله منا فامنَّا به وكفرتم » [١].

بعد إنْ استلهم معاوية أفكاره من الوسط الجاهلي والقبلي ، يجد الإمام (عليه السلام) نفسه ملزما في خطابه بالعودة إلى المرجعية الدينية المتمثلة في الكتب السماوية ، بأنَّ حقيقة الإيمان هي الفاصل الوحيد في العلاقات الاجتماعية ، إذ يقول سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز :﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [٢] .

إنَّ سير الإنسان التكاملي وإنسانيته «سواء أكانت في الفرد أم المجتمع وبأي نسبة تتكامل فهي تخطو نحو الاستقلال والسيادة على سائر الجوانب ، وإنَّ الفرد المتكامل هو المسيطر أو المنفصل عن سيادة المحيط الخارجي والداخلي والمتصل بالعقيدة والإيمان »[٣] ولهذا فالعصبية الجاهلية تذهب باستعداد النفس الإنسانية لتقبل الحق ، ولا تبقى من ذلك الاستعداد شيئا ، ومن الصعب جداً أن يتهيأ لأمة بهذه حال ظرف صالح يخرجها من ظلم الجهالة وينفى عنها رذائل الأعمال .

وفي هذا الجانب وبسبب آفة التعصب القبلي وضعف أثر الدين عند الأدباء ، نجد أنَّ الأدب العربي قد مهدَّ وعمقَّ وأشاعَ هذه الآفة إذ نظر لها كثير من الأدباء والنقاد باستحسان كبير في كثير من مواضع الشعر العربي ، إذ راح كثير من الشعراء يسطرون القصائد تلو القصائد في الافتخار بالقبيلة والتعصب لها وذهب دارسو الأدب يظهرون إعجابهم بتلك الأشعار جاعلين منه غرضاً منفرداً من فنون الأدب العربي ، ناسين أو مُتناسيين أنها آفة النار في الهشيم ، وما لها من ضرر كبير على مجتمعنا

---

[١] الإمامة وسياسة :٢/ ٦٣.

[٢] سورة الحجرات : ١٣

[٣] أنسنة الحياة في الإسلام : ٢١٣.

العربي الإسلامي ورجوعه إلى الجاهلية الأولى ، وليتهم التفتوا إلى ذلك معربين عن تنبيه المتلقي إلى خطورة هذه الآفة .

ونجد لوناً آخر من ألوان التعصب وهو العناد الذي كان حجر عثرة أمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في النهوض بواقع الأمة الإسلامية ، إذ نجد مصداقه بوضوح لدى الخوارج بعد أن عجزت كل وسائل الإمام لهدايتهم ، إذ راحوا يتخبطون في الضلالة والتيه ويكفّرون علي (عليه السلام) وأصحابه ، إذ كتبوا للإمام (عليه السلام) رسالة جاء فيها :

«أما بعد : فإنك لم تغضب لربك ، إنما غضبت لنفسك ، فإن شهدتَ على نفسك الكفر ، واستقبلت التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك »[١].

إنَّ النص السابق لدليل على جهل الخوارج وعنادهم في الابتعاد عن المعارف الحقة ، وأنَّ قلوبهم زاغت عن الحق لعنادهم وحماقتهم ، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾[٢]، إنَّ فتنة هؤلاء في تكفير الإمام ناتجة عن تغلغل آفة الجهل والعناد في الابتعاد عن الحقيقة ، حيث يقول الأستاذ حنا فاخوري بشأن الخوارج «ومن ثم فنهوض الخوارج إنما هو عناد وجهل لنيّة الإمام والحقيقة والواقع »[٣]

إنَّ حواس المعرفة لدى هؤلاء، تعطلت بل أخذت تنفر من الحق وتستقبل وتتذوق الباطل ، وينفذ إلى أعماقها بسرعة وسهولة ، لاسيما وأنَّ التجربة أثبتت أنَّ الإنسان إذا لم يكن راغباً بشيء فسوف لا يسمعهُ بسهولة، وأمّا إذا كان راغباً فيه، فإنَّهُ سيدركُه بسرعة، وَهَذا يدل على أنَّ الإحساسات الداخلية لها تأثيرها على الحواس الظاهرة، بل وَتَستطيع أن تطبعها بالشكل الذي تريدُه [٤] ، إنّهم «حملوا عليّاً عليه السلام على

---

[١] تاريخ الطبري : ٤ / ٣٧٣ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام) : ٨٠ .

[٢] سورة آل عمران : ٧

[٣] الجامع في تاريخ الأدب العربي ، الأدب القديم : ٣٤٧ .

[٤] ينظر : الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل :٩/ ١٨

الموادعة والرضوخ للتحكيم ، رجعوا عن فكرتهم وزعموا أنّ أمر التحكيم على خلاف الذكر الحكيم حيث يقول :﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1] ، فحاولوا أن يفرضوا على عليّ (عليه السلام) أمراً رابعاً ، وهو القيام بنقض الميثاق بينه وبين معاوية »[2].

وأخيرا فآفة التعصب آفة خطيرة تبنها أولياء الشيطان متخذيها وسيلة للتشبث بالسلطة جاعلين من الأدب أداة لخلق فجوة كبيرة بين قبائل العرب فضلاً عن الشعوب الأخرى التي دخلت الإسلام ، بعد أن عادت القبائل تحتمي بشعرائها بدل أن تلوذ بالحكومة من لسان الشعراء ؛ لكونها هي التي تبنت هذا الأسلوب من أيام هجاء الأخطل للأنصار برأي يزيد بن معاوية وتحت حمايته [3] ، ومازالت تعاني منه الشعوب وحتى المتقدمة منها إلى يومنا هذا ؛ لكون التعصب له أشكال وألوان ومصاديق مختلفة يبدأ بالافتخار والتعصب للأصل ولا ينتهي بالعناد والتعصب للقبيلة واللون والمؤسسة والحزب وغير ذلك .

٧- التكبر:

ومعناه في اللغة : العَظَمَة والتَّجَبُّر والتَّعَظُّم ، والكبير صفة الله تعالى : العظيم الجليل المتكبر الذي تكبَّر عن ظلم عباده ، والمتكبر والكبير، أي العظيم ذو الكبرياء ، وقيل المتعالي عن صفات الخلق [4] .

وقد عُرِّف اصطلاحاً : « استعظام الإنسان نفسه، واستحسان ما فيه من الفضائل، والاستهانة بالناس، واستصغارهم، والترفع على من يجب التواضع له »[1] ، وقد عَّرفه النراقي : « إنّه الركون إلى رؤية النفس فوق الغير »[2] .

---

[1] سورة يوسف : ٦٧

[2] بحوث في الملل والنّحل دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الإسلامية : ٥ / ٩ .

[3] الإيجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام : ٢٣٢ .

[4] ينظر : لسان العرب مادة كبر: ٥ / ١٢٥ .

والكبر آفته عظيمة ، وغائلته هائلة وبه هلك خواص الأنام ، فضلاً عن غيرهم من العوام ، وهو حجاب غليظ ، ومانع كبير للوصول إلى المعارف ، وقد ورد ذمه في آيات كثيرة منها : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[٣] ، وقوله تعالى : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[٤] ، ووعد جلاله الذين تكبروا نار جهنم : ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٥] ، وغيرها من الآيات .

وأحاديث بيت العصمة (عليهم السلام) في هذا الشأن كثيرة ، منها عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): « اللهم أعوذ بك من نفخة الكبرياء »[٦] ، وعنه (صلى الله عليه وآله): إنَّ أبغضكم إلينا وأبعدكم منا في الآخرة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارين المتشدقين ، فمن المتفيهقون؟ قال: المتكبرون»[٧]، وعن الإمام الكاظم (عليه السلام) قال : « إنَّ الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر الجبار، لأنَّ الله جعل التواضع آلة العقل، وجعل التكبر من آلة الجهل، ألم تعلم أنَّ من شمخ إلى السقف برأسه شجه، ومن خفض رأسه استظل تحته وأكنه »[٨].

---

[١] تهذيب الأخلاق : ٣٢ .

[٢] جامع السعادات : ١ / ٣٢٨ .

[٣] سورة غافر : ٣٥ .

[٤] الأعراف : ١٤٦ .

[٥] سورة الزمر : ٧٢ .

[٦] المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء : ٦ / ٢٢٨ .

[٧] المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء : ٦ / ٢١٤ ، المتشدق هو: المتكلم بملء شدقيه تفاصحاً وتعاظماً واستعلاء على غيره . (كما في هامش المصدر)

[٨] تحف العقول عن آل الرسول : ٣٩٦ .

وهو يجعل صفحة القلب الشفافة سوداء مظلمة ، فإذا اغبرت المرآة فقدت قدرتها على الانعكاس ، فلا تظهر الأشياء في صفحتها ، ولو كانت لها قدرة على مشاهدة نفسها فرضاً ، فإنها ستفقد هذه القدرة أيضاً بسبب التصاق الغبار بها.

والكبر له باع في تفسير ظاهرة الفخر بالنفس والقبيلة ، وقصص الحب في الأدب العربي التي لم يتزوج أصحابها بسبب التفاوت في النسب والطبقة كما حدث لعنترة بن شداد أو لغيره من أبطال القصص الغرامية الكثيرة ، كذلك ليس للأدب الترفع عن هذا الحجاب للمعرفة ، سوى القول بأنّه جزء من منظومة المفاخرة التي خدرت كثيراً من عقول القبائل العربية قديماً وحديثاً حتى غدا هذا الفخر أيضاً عاملاً من عوامل التخلف يقاوم سنن التطور ، فلطالما دندن العرب بمثل قول لبيد بن ربيعة العامري حينما تحدث عن أهله ويراهم :

ومن معشر سنّت لهم آباؤهم ولكلّ قومٍ سنّة وإمامُها [1]

والكبر «حيث تعزز النفس و ترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وذلك تارة يصرف عن الفكر و الاستبصار، فيبقى في ظلمة الجهل بكبره ، فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه ، وتارة يمتنع مع المعرفة، ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق ، والتواضع للرسل»[2]، كما حكى اللّه عن لسانهم : ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾[3]، وقولهم: ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾[4] وقولهم : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾[5] لَخَاسِرُونَ ﴾[5]

---

[1] ينظر : الإيجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام : ٤١ ، وشرح القصائد العشر : ٢٥٧ .

[2] إحياء علوم الدين : ١١ / ٢١ .

[3] سورة المؤمنون : ٤٧

[4] سورة إبراهيم : ١٠

[5] سورة المؤمنون : ٣٤

ويظهر معاوية تكبره وامتناعه عن انقياده للحق في كتابه إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) جاء فيه :

«فإنَّ هذا الأمر قد طال بيننا وبينك ، وكل واحد منا يرى أنه على الحق فيما يطلب من صاحبه ، ولن يُعْطِيَ واحد منا طاعة للآخر وقد قُتل فيما بيننا بَشر كثير ، وأنا أتخوَّف أن يكون ما بقي أشدَّ مما مضى ، وإنَّا سوف نُسأل عن هذه المواطن ، ولا يُحاسَب غيري وغيرك »[١] .

إنَّ الناظر لكلمات معاوية يرى بوضوح مقدار التكبر والزهو على الحق في مقارنة باطلة ساوى بين كفتيها بأسلوب فني يحمل أفانين العزة بالإثم ، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[٢] ، ومنه أيضاً نفهم حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « إنَّ أعظم الكبر غمص الخَلْقِ وسَفَهُ الحقِّ »[٣].

وبما إنَّ التكبر «حالة أو ملكة في الإنسان تضفي على صاحبها روح الأنانية والغطرسة ، والشعور بالاستعلاء والتفوق على الغير : فالحقُّ ما يراه هو حقّاً ، والباطل ما يراه هو باطلاً »[٤] لذا فهو من أخطر الأهواء التي تضل الناس، فإنه يطبع القلب ويحجبه عن نور الإيمان والمعرفة ، والله سبحانه يصرف المتكبر عن آياته[٥] ، ولذلك نرى معاوية استهوته نفسه إذ يخاطب أمير المؤمنين (عليه السلام) في رسالة له جاء فيها :

«فأربع على ظلعك ، وقِسْ شِبرك بِفتْرك[٦] ، لتعلمَ أين حالُك من حالِ من يزنُ الجبالَ حِلمُه ، ويَفصلُ بين أهل الشك علمُه »[١]

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢ / ٢٢٥ .

[٢] سورة البقرة : ٢٠٦.

[٣] الكافي : ٢ / ٦٢٧ ، أي يجهل الحق ويطعن على أهله .

[٤] نظرية المعرفة المدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات : ٣١٩ .

[٥] ينظر : التشريع الإسلامي مناهجه ومقاصده : ٩ / ١٢٦ .

[٦] فتر : المقاس بين طرف الإبهام وطرف السَّبَّابة عند فتحها ، أي الانكسار والضعف ، ينظر لسان العرب ، مادة فتر: ١٣ / ٢٩٢ .

إنَّ التكبر لا يليق بالإنسان ؛ لكونه من الصفات التي ترتبط بالشيطان فضلا عن إن الإنسان خلق ضعيفاً هلوعاً ، من نطفة مهينة ، فهو العبد المملوك العاجز الذي لا يقدر دفع الضر عنه ، فمن أين يليق بحاله الكبر ، وكيف بالعالم يكون متكبراً ، وقد قرن بالخشوع والخضوع له سبحانه ! فيا لتناقض معاوية، ويا لجرأته على خالقه في منازعته لصفة لا تليق إلا بجلاله ، فكيف به وقد أحكمته الرذيلة ودعته إلى مخالفة الله تعالى ، إذ يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) واصفا معاوية في رسالته الجوابية على النص الذي أسلفنا ذكره :

«زعمتَ أن يَزِن الجبالَ حلمُك ، ويفصل بين أهل الشك عِلْمك ، وأنت الجِلف المنافق ، الأغلَف القلبِ ، القليلُ العقلِ ، الجبَان الرَّذْل »[٢] .

فالإمام (عليه السلام) يرفض زعم معاوية ، الناتج عن صفة التكبر والتعالي على الغير ، وأن اعتقاده لبعيد عن رأي العقلاء ، وأن الحليم والعالم لا يكون منافقاً ، وقليل العقل وجبان ، ولهذا روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) : «ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخله من ذلك »[٣] ، وبهذا يريد الإمام (عليه السلام) أنْ يبين لمعاوية أن لا يغتر بنفسه ، وأن لا ينعت ذاته بصفات ليست له ولا لأمثاله ؛ لأنها صفات تخص الصادقين المخلصين ، ولا تتأتى للإنسان إلا بجهاد النفس ، وهي صعبة المنال أو مستحيلة ، للذين غطى قلوبهم ستار الذنوب والآثام .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٣٥ .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٣٥ .

(٣) سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار: ٢ / ٤٦٠ .

٨- حب الدنيا :

كما أنَّ تقوى الله الشرط الأساس للمعرفة ، فحب الدنيا هو المانع الرئيس عنها[١]

« اعلم إن الدنيا عدوة لله ولأوليائه ولأعدائه : أما عداواتها لله فإنها قطعت الطريق على العبادة ، ولذلك لم ينظر إليها من خلقها كما ورد في الأخبار وأما عداوتها لأوليائه وأحبائه فإنها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها ، حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها ، وأما عداوتها لأعدائه ، فإنها استدرجتهم بمكرها ومكيدتها واقتنصتهم بشباكها وحبائلها حتى وثقوا بها وعولوا عليها ، فاجتنبوا منها حيرة وندامة تنقطع دونها الأكباد ، ثم حرمتهم عن السعادة أبد الآباد ، فهم على فراقها يتحسرون ومن مكائدها سيتغيثون ولا يغاثون»[٢] بل يقال لهم : ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[٣] .

ودين الإسلام يرفض تفضيل الدنيا على الآخرة ، إذ يقول سبحانه وتعالى في محكم كتابه : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[٤]، وقوله أيضاً: ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾[٥].

ومن الأخبار الواردة في التحذير من الدنيا والتمسك بها قاله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « مَن أُشرِبَ قَلبُهُ حُبَّ الدُّنيَا التاطَ منها بِثَلاثٍ : شَقاءٍ لا يَنفَدُ عَناهُ ، وحِرصٍ لا يَبلُغُ غِناهُ ، وأَمَلٍ لا يَبلُغُ مُنتَهاهُ »[٦] وعنه صلى الله عليه و آله : « مَن أَحَبَّ الدُّنيا ذَهَبَ خَوفُ الآخِرَةِ مِن قَلبِهِ ، وما آتَى اللّهُ عَبداً عِلما فَازدادَ لِلدُّنيا حُبّا إلّا

---

[١] نظرية المعرفة في القرآن :٣٥٠

[٢] جامع السعادات : ١ / ٣٧١ .

[٣] سورة المؤمنون : ١٠٨

[٤] سورة البقرة : ٨٦

[٥] سورة إبراهيم : ٢ – ٣

[٦] المعجم الكبير : ١٠ / ١٦٣ ، ومجمع الزوائد : ١٠ / ٢٤٩ ، وبحار الأنوار : ٧٧ /١٣٢ .

ازدادَ مِنَ اللّهِ تَعالى بُعدا ، وَازدادَ اللّهُ تَعالى عَلَيهِ غَضَبا »[1]، وقال صلوات الله عليه : «حب الدنيا رأس كل خطيئة »[2] وقال (صلى الله عليه واله وسلم) لأصحابه : «هل منكم من يريد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية؟ هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرا ؟ ألا إنه من رغب في الدنيا وأطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك، ومن زهد في الدنيا وقصر أمله فيها أعطاه الله علما بغير تعلم، وهدى بغير هداية »[3].

ونظرية المعرفة من منظورها الإسلامي تؤكد مبدأ التوازن ، «فإذا كان الله سبحانه وتعالى سخر للإنسان الأرض لما فيه خيره وخير ما حوله وطلب منه إعمار الكون ليستمتع بها من دون تقتير أو إسراف ، وفي حدود المسؤولية الأخلاقية ، فيصبح من التناقض أن تجئ الأديان وهي من عند الله أيضا ؛ لكي تفصل بين الجانب الروحي والجانب المادي فتجنح إلى الأول »[4] قال تعالى :﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ* قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[5] .

«إنَّ القرآن يسعى إلى أن يبلغ الإنسان الكمال ، ولكنه لا ينسى طبيعة الناس وتفاوت استعداداتهم فمثالية القرآن تعني الاعتدال والشمول ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾[6] أما الشمولية فلا يريد القرآن الكمال بجانب والضعف بآخر،

---

[1] النوادر الراوندي : ١٥٧ ، وبحار الأنوار : ٢ / ٣٦.

[2] الكافي : ٢ / ١٣١ ، وكنز الفوائد : ١ / ٢١٧ ، وبحار الأنوار : ٧٠ / ٣١٥

[3] وربيع الأبرار ونصوص الأخبار: ١ / ٦١٨ ، وكنز العمال في سنن الأقوال والأفعال : ٣ / ٢٠٩ .

[4] نظرية المعرفة من منظور إسلامي ، مسعود جميل أحمد ، وعصام محمد عبد ماجد ، مجلة العلوم والبحوث الإسلامية ، العدد ١٥ ، سنة ٢٠١٤ : ١٢ .

[5] سورة الأعراف : ٣١ – ٣٢

[6] سورة الفرقان : ٦٧

بـآخر، أمـا الواقعيـة فتظهـر مـن أنَّ التكـاليف جـاءت علـى قـدر أقـل طاقـة للنـاس فالاستطاعة متوفرة للجميع ، وإلى جانب هذا هناك مستوى أرفع كمالاً رغب القرآن فيه ؛ لأن هناك من يملك استعداداً أعلى »[١]

الإسلام دين الاعتدال والوسطية فهو لا يدعو إلى مقاطعة الحياة والرهبنة وإذلال النفس تقرباً إلى الله كما في النصرانية أو يفصل بين الدين والدنيا كما في العلمانية ، بل يدعو إلى ممارسة جميع الأنشطة الحياتية ويعد هذا من العبادة إذا كان في الإطار المرسوم من قبل الله تبارك وتعالى [٢]، ولكن الكثير يشغفون بحب الدنيا ويضحون في كل شيء من أجلها فتكون حاجباً بل مانعاً للمعرفة والحقيقة .

ومن خلال النظر في الرسائل المتبادلة بين الإمام (عليه السلام) وخصومه نجد هذا المانع للمعرفة قد تأصل في نفوس خصوم الإمام ، وغرتهم الدنيا ، فاتخذوا آيات الله هزوا ؛ لأنَّ حبهم لهذه الدنيا يدفعهم إلى الانغماس في شهواتها والركون إلى متاعها الذي من طبيعته يفسد الفطرة ، ويغلظ المشاعر ويسد منافذ المعرفة.

ويظهر الإمام (عليه السلام) حجب المعرفة من أنَّ الدنيا منقطعة محدودة كما جاء في رسالته إلى معاوية التي جاء فيها :

« فعِثْ في دنياك المنقطعة عنك ما طاب لك ، فكأنك بباطلك قد انقضى ، وبعملك وقد هوى ، ثم تصير إلى لظى ، لم يظلمك الله شيئاً ، وما ربُّكَ بظلَّامٍ للعبيد »[٣]

بين الإمام (عليه السلام) قضية كلية بانقطاع الدنيا وقد قرنها بالباطل ، لكون الدنيا اقترنت بالشهوات لانقطاعها عن الإنسان موضوعياً وانقطاعها زمنياً ، وأن اقتران العمل بدون معرفة ينتج الجهل وعدم القبول .

إنَّ هذا الجهل في حقيقة الدنيا قد أخذ غوره في نفس معاوية إلى درجة فقد فيها الجانب الروحي وراح يتخبط في باطلها ، إلى درجة يئس الإمام(عليه السلام) منه على الرغم من محاولات الإمام (عليه السلام) المتكررة في نصحه وإرشاده وتذكيره

---

[١] المنهج المعرفي في القرآن : ٦٣

[٢] ينظر : نظرية المعرفة من المنظور الإسلامي : ١٢ .

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٨٤ .

بالآخرة ولكن كما قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): ((بئس العبد عبد خلق للعبادة ، فألهته العاجلة عن الآجلة ، فاز بالرغبة العاجلة وشقي بالعاقبة))[١] ؛ لأن الوَله بالدنيا يورث الشقاء والبلاء الذي يجعل الإنسان يركن إلى الباطل للوصول لغاياته وإشباع غرائزه .

ومن الجدير بالذكر أنَّ هذا التوغل في باطل الدنيا من جانب ، ويأس الإمام من معاوية وأمثاله من جانب آخر ، يفسره عدم إيمان معاوية وأتباعه بحقيقة الوحي في الانفراد بمعرفة عالم الغيب بعد ان يسلم العقل بمبدأ وجوده ((لان مجال المعرفة التي ينزل بها الوحي إنما موضوعها ومجالها عالم الغيب وعالم الشهادة بما تتجلى فيه من آثار إلوهية الله ووحدانيته وخالقيته وعلمه وقدرته وإراداته))[٢] ، وتتميز هذه المعرفة الموحى بها من عند الله سبحانه وتعالى في أصلها أنّها خاصة لأناس معدودين من البشر وهم الأنبياء[٣] ، في إنارة الطريق إلى الناس ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٤] ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[٥] ولكن معاوية وأمثاله كذبوا ذلك ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾[٦] فكان العاقبة التكذيب ؛ لانغماسهم في المحسوسات والمشاهدات وعدم إدراك عقولهم لعالم الآخرة الذي هو أحد أهداف الأنبياء .

---

[١] النوادر الراوندي : ١٤٥ ، بحار الأنوار : ٧٧ / ١٣٥ .

[٢] نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة : ١٧٤

[٣] مصادر المعرفة في القرآن والفلسفات التربوية ، دراسة مقارنة ، عماد عبد الله محمد ، وأحلام محمود علي ، مجلة جامعة القدس للأبحاث والدراسات :٤١٦ .

[٤] سورة الأعراف : ٢٠٣

[٥] سورة إبراهيم : ١

[٦] سورة الأنعام : ٣٩

ومن جانب آخر من تلك الرسائل ، يصور الإمام (عليه السلام) غرور الدنيا تصويراً حسياً ، ويحذر من عواقب التكالب على الدنيا وزخرفها ، لأنَّ الإنسان مسؤول عنها يوم القيامة، إذ يقول لمعاوية في رسالة جاء منها :

«وكيف أنت صانِعٌ إذ تكشَّفَت عنك جلابيب ما أنت فيه من دنيا: قد تَبَهَّجت بزينتها، وخدَعَت بلذتها ، دعتك فأجبتَها ، وقادتك فاتَّبعْتها ، وأمرتك فأطعْتَها ، وإنه يوشك أن يَقفَك واقِفٌ على ما لا يُنْجيك منه منج ، فاقعَس عن هذا الأمر وخُذ أُهبة الحساب ، وشمِّر لما قد نزل بك »[1].

فخطاب الإمام (عليه السلام) يوقظ النفس التي خدعتها الدنيا ، وجرفتها عن جادة الحقيقة ، بأسلوب التساؤل والوقوف والتنبه ، على عاقبة هذا الانجرار؛ «فالأشخاص الذين يتحركون في خط الأهواء والشهوات والذين لا يعرفون حقيقة الدنيا سيقعون في فخاخها سريعا ومن اجل الاستفادة من زينتها ولذاتها وسيجدون أنفسهم مضطرين لإتباع أوامرها والامتثال لمطالبها ، وبذلك يبتعدون عن طريق الحق والإيمان ويتحركون في متاهات الضلالة ومنزلقات الخطيئة »[2] .

ثم إنَّ الإمام (عليه السلام) يشير إلى عاقبه هذا المسار المنحرف ، فان هذه الحوادث الأليمة والوخيمة ستصيب معاوية ومن سار على هذه الطريق وإنّها حتمية الوقوع فان الإمام ذكرها بصيغة الماضي «ولكن تلك الأمور غفلت عنها العصاة في الدنيا ما داوموا في حجب الأبدان ، فإذا نزعت عنهم تلك الحجب اطّلعوا على ما قدّموا من خير أو شرّ وما اعدّ لهم بسبب ذلك من سعادة أو شقاوة كما أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ﴾[3]، وذلك المطّلع والموقف هو الله سبحانه» [4].

---

[1] نهج البلاغة : ٤٣١ .

[2] نفحات الولاية شرح نهج البلاغة : ٩ / ١١٨

[3] سورة آل عمران : ٣٠

[4] شرح نهج البلاغة ، كمال الدين البحراني :٧٩١.

وبما أنَّ الدنيا تتلون بألوان شتى نجد لوناً آخر تظهره رسائل الإمام (عليه السلام) لخصومه ، وهو قدرتها على إشغال مراوديها عما ينفعهم ، إذ يقول (عليه السلام) بعد رسالة لمعاوية أراد بها ـ معاوية ـ أقراره حكم الشام :

«أما بعد : فإن الدنيا حلوة خضرة ذات زينة وبهجة ، لم يصب إليها أحد إلا شَغَلَته بزينتها عما هو أنفع منها ، وبالآخرة أُمرنا ، وعليها حُثنا ، فدع يا معاوية ما يفنى واعمل لما يبقى »[1] .

فالإمام ينبه معاوية عواقب التكالب على الدنيا وزخارفها ويحذره الوقوف أمام الله تعالى يوم القيامة لعله ينتبه لخطئه ويرعوي من سلوكه ، ويتحرك نحو الطريق المستقيم .

ويؤكد الإمام أيضاً أنّ الدنيا لها قدرة في شغل الإنسان في ما لا ينفعه ؛لأنَّ طرق تفكير المتعلق بالدنيا «تتعلق بتعلم الإشباع من حقائق الدماغ والفكر ، ولا يهمها تعلم الحق ، بل يلح عليها الإشباع الغريزي من دون منهج أو نظام من الحق لأن لهفتها إلى هذا الإشباع تعميها عن البحث في الحق ، بل هو ليس من أهدافها ، ولذلك فقلوبهم لا تنتفع كثيراً من حقائق الفكر ، بل تحاول تحرف تفكير الدماغ وجهوده لخدمة هواجس نفوسهم وإشباع رغباتها »[2] .

وحجب المعرفة في حب الدنيا والأنغرار بها لا تقتصر على معاوية فحسب وإنما معاونيه ، ومنهم عمرو بن العاص فقد ألبستّه جلبابها ، إذ يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في رسالة له ينصحه فيها :

«أمَّا بعد : فإن الدنيا مشغلة عن الآخرة ، صاحبها منهوم فيها لا يصيب منها شيئاً إلا ازداد عليها حرصاً ، ولم يستغنِ بما نال عما لا يبلغ ، من وراء ذلك فراق ما جَمَع »[3] .

---

[1] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٥٣ .

[2] الظاهرة الأدبية في ضوء نظرية المعرفة القرآنية ، عباس المناصرة ، مجلة الثقافة الجزائرية : ١٣ – ١٤ .

[3] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢ / ٢٢٧ .

فالإمام (عليه السلام) يبين إلى المتلقي أنَّ حب الدنيا يعصف في داخل الإنسان فيفقده توازن عقله بالكامل ، وينقله إلى عالم الطمع والجشع بل يسلخه عن الإسلام ويوجهه نحو وادي الكفر ، فيطبع الله على قلبه وسمعه وبصره ، ويغلق عليه أبواب المعرفة ، فيصبح من الغافلين .

إنَّ عمل الدنيا وسلوكها إلى درجة من التعقيد والتنوع المثير للتشويش بحيث أنَّ الإنسان إذا اتجه نحوها فإنها ستشغله في جميع عمره ووقته حتى يغفل عن الاهتمام بسلامته وراحته والقيام بوظائفه فكيف بتكاليف الشريعة[١] ، وفي هذا المعنى يقول الإمام الباقر (عليه السلام) : «مثل الحريص على الدنيا كمثل دودة القز كلما ازدادت من القز على نفسها كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غمَّاً »[٢].

والمسالة معرفية خطيرة وهي حالة الحرص لدى أصحاب الدنيا الذي «هو أقوى شعب حب الدنيا وأشهر أنواعه ، ولا ريب في كونه ملكة مهلكة وصفة مضلة ، بل بادية مظلمة الأرجاء والأطراف ، وهاوية متناهية الأعماق والأكناف ، من وقع فيها ضل وباد ، ومن سقط فيها هلك وما عاد والتجربة والاعتبار والأخبار متظاهرة على أنَّ الحريص لا ينتهي إلى حد يقف دونه ، بل لا يزال يخوض في غمرات الدنيا إلى أن يغرق ، وتطرحه أرض إلى أرض حتى يهلك»[٣].

وقد ورد في بعض الروايات تشبيه الدنيا بماء البحر المالح الذي كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً ، وهذا ما ورد عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) : «مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشا حتى يقتله »[٤]

ويتحدث القرآن الكريم عن هذه الحالة ضمن قصة بليغة تتلخص في أخوين متخاصمين جاءا إلى النبي داود (عليه السلام) فقال أحداهما ﴿إِنَّ هَـذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ

---

[١] ينظر : نفحات الولاية شرح نهج البلاغة : ١٠ / ٢٣٧ .

[٢] الكافي : ٢ / ١٣٤ ، وبحار الأنوار : ٧٠ / ٢٣ .

[٣] جامع السعادات : ١ / ٤٣٨ .

[٤] الكافي : ٢ / ١٣٦ .

وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾[1] ، فحكم داود (عليه السلام) بينهما : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾[2] ، هذه القصة تشير إلى أن أصحاب الدنيا يعيشون الحرص والولع إلى درجة أنهم لا يرضون للآخرين أن يتملكوا أدنى شي حتى لو كانوا أخوتهم .

«ولعل هذه القراءة لهذه الوضعية الإنسانية العامة إنما كانت من أجل توجيه دعوة إلى الإنسان ، لكي يواجه الدنيا بقلب مفعم بالإيمان ، وجنان شجاع يقوى على كل المغريات ، ومما لا شك فيه أنَّ هذه الدعوة جزء من فهم الإمام علي (عليه السلام) للإسلام وحلقة قوية من حلقات فلسفته الحياتية »[3].

وفي رسالة أخرى يؤكد أمير المؤمنين (عليه السلام) لعمرو بن العاص ما أكده سابقاً في «جملة تكرارية ـ المعنى ـ لا تحتاج إلى خبرة حسية تؤيدها أو تفندها» [4] ليتم الحجة على خصومه :

«أما بعدُ : فإن الذي أعجَبَك من الدنيا مما نازَعَتْك إليه نفسُك ، ووثِقْتَ به منها لمنقلِبٌ عنك ، ومفارق لك ، فلا تطمئن إلى الدنيا فإنها غَرَّارة ، ولو اعتبرتَ بما مَضَى لحفظتَ ما بقى ، وانتفعتَ منها بما وُعِظت به والسلام »[5]

إنَّ سيطرة هوى النفس على العقل ، والتحكم به وابتعاده عن المعرفة الحقّة ، والاطمئنان للانجرار في السير وراء النفس المتصدئة لدليل الخسران ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[6] ، إن المزيد من الجهد والتعب

---

[1] سورة ص : ٢٣ .

[2] سورة ص : ٢٤

[3] دور التشبيه الدلالي في نهج البلاغة ، د. علي زيتون ، مجلة المنهاج العدد :٢ : ٢١٠ .

[4] نظرية المعرفة : ٥٢ .

[5] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢ / ٢٢٧ .

[6] سورة الكهف : ١٠٤

يتحصَّل المزيد في منازعة النفس ، فانه لا تمضي مدة حتى يجد الإنسان نفسه وهو يودع ما تعب في تحصيله من طمع وأموال نفيسة ومملوكات وأشياء جميلة سوف يتركها جميعا[١] .

لذا يشير الإمام (عليه السلام) إلى نقطة مهمة في آخر رسالته إلى الاعتبار من مصير السابقين، ويعده مصدراً من مصادر المعرفة البشرية فالتاريخ جزءٌ مهمٌ من مصادر المعرفة وأورد التأكيد عليه في القرآن الكريم :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[٢] ، وفي هذا المجال أيضاً ، يتحدث القرآن الكريم عن قصور الفراعنة وما تركوه من بساتين ومزارع وعيون وقرى مزدهرة ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾[٣] ، وقد ذكرت مصادر التاريخ «لما حضرت عمر الوفاة قال لابنه : لودّ أبوك أنّه كان مات في غزاة ذات السلاسل ، إني قد دخلت في أمور لا أدري ما حجتي عند الله فيها ، ثم نظر إلى ماله فرأى كثرته ، فقال : يا ليته كان بعرا ، يا ليتني مت قبل هذا اليوم بثلاثين سنة ، أصلحت لمعاوية دنياه ، وأفسدت ديني ، آثرت دنْياي وتركت آخرتي ، عُمّي عليّ رشدي حتى حضرني أجلي ، كأني بمعاوية قد حوى مالي وأساء فيكم خلافتي »[٤] .

إنَّ المتأمل في حجب المعرفة وآفاتها في ضوء نظرية المعرفة « يرى بوضوح تام وجلي ، الفروقات الجوهرية بين المحتوى والشكل الداخلي الشعوري والعقلي للإنسان المتربى تربية قرآنية إلهية في مدرسة الأنبياء والمرسلين ، وبين الإنسان المادي الذي تربى تربية مادية محضة في مدرسة الماديين والمفكرين الماديين بشتى أشكالها

---

[١] ينظر : نفحات الولاية شرح نهج البلاغة : ٩ / ١٢٣

[٢] سورة الحج : ٤٦.

[٣] الدخان : ٢٥ – ٢٨

[٤] تاريخ اليعقوبي : ١٤٥ .

وألوانها»[١]، وأنَّ من نتائج هذا الفكر المادي والانغرار وراء الدنيا والحرص الشديد في زيادة منِّها عواقب وخيمة منها البغي والتجاوز على شرع الله وحقوق الآخرين ، ولهذا يخبر الإمام معاوية ويقول بعد تحذيره من الدنيا :

«فغدوتَ على طلب الدنيا بتأويل القرآن ، وطلبتَني بما لم تَجْنِ يدي ولا لساني وعَصَبْتَه أنت وأهل الشام بي وألَّب عالِمكم جاهلَكم ، وقائِّمكم قاعدكم ، فاتق الله في نفسك ، ونازع الشيطان قيادك »[٢] .

إن الإدراك المعرفية لمعاوية تسير على وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة في استعماله تأويل القرآن من أجل الوصول لغاياته الدنيوية وكيل التهم لخصومه في التجني على الإمام في خصوص قتل عثمان .

«وفي الحقيقة أن هذا المنطق هو الذي يتوسّل به الساسة الماديون اليوم لإنجاح مقاصدهم ، وتحقيق مآربهم، فهم يعتقدون ، بكل جد أن عليهم لتحقيق أهدافهم التوسل بكل وسيلة ممكنة مشروعة كانت أو غير مشروعة ، وهذا هو مقولة (الغاية تبرر الوسيلة) التي طرحها ميكافيلي[٣] ، وبالتالي فان (الأخلاق) في منظور هذه الجماعة هو ما يخدم مصالحهم ويحقق أغراضهم ليس إلاّ » [٤].

ومن هنا يبقى حب الدنيا رأس كل الخطايا والبلايا والمصائب التي يقع فيها الإنسان ويبقى أمير المؤمنين (عليه السلام) الواعظ الأول قولاً وفعلاً بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) في التقوى والزهد وتطبيق تعاليم الإسلام في هذه الدنيا .

---

[١] نظرية المعرفة في الإسلام : ٥١ .

[٢] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٧ / ١٣٥ .

[٣] نيكولو ميكافلي (١٤٦٩ . ١٥٢٧ هـ): سياسي ومؤرخ إيطالي، عرف بكتابه الشهير (الأمير) الذي أيّد فيه نظام الحكم المطلق، وأحلّ فيه للحاكم اتّخاذ كل وسيلة تكفل استقرار حكمه واستمراره، وذلك على أساس توظيف المكر والازدواجية ، ومن هنا صار لفظ «الميكافلية» وصفاً لكل مذهب ينادي بأنّ الغاية تبرر الوسيلة.

[٤] سيد المرسلين (صلى الله عليه وآله) : ٢ / ٢٣٩ .

وفي الختام نرى أنَّ حجب المعرفة وآفاتها كان له الأثر الكبير في انحراف الأفراد والمجتمعات على حد سواء ، وكان لخصوم الإمام وما تلاهم اليد الطُّولَى في نشر تلك الحجب والآفات وتوفير مستلزماتها من المال والشعراء والأسواق، إذ يقول شوقي ضيف في حديثه عن كتاب له : « والكتاب الثاني يَبسط كل هذه الظروف الجديدة في حياة الأمة العربية لعصر بني أمية ، وكيف اندفع الشعراء في ظلالها ينهضون بالشعر ويتطورون به في فنونه وأغراضه ، فقد مضى شعراء الهجاء والفخر ينفذون إلى لون جديد هو النقائض التي بثّوا فيها مناظرة عنيفة في المثالب والمفاخر القبلية ، كان يجتمع لها معاصروهم في سوق المربد للاستماع إليها والفرجة والمتعة » [١] ، وهذا يدل على اتساع هذه الحجب ، وتنوعها ولم تكتف بذلك وإنما راحوا ينزلقون في حجب أشد ، إذ يقول شوقي ضيف أيضاً : « وقد اضطرمت فنون الشعر اضطراماً لا في المديح والهجاء والفخر فحسب بل أيضاً في الغزل ، فظهر فيه الغزل العُذري بجانب الغزل الصريح ، ونما شعر المجون ، ومد الرُّجَّاز طاقة أراجيزهم، وسلكوا فيها الطَّرديَّات ، فهي ليست عباسية ــ كما كان يظن ــ إنما هي أموية » [٢] وبهذا يكون للأدب موضع من تلك الحجب ، وسبباً لنشر بعضٍ منها بين الخاصة والعامة ؛ لذا حاول الإمام كشف تلك الحجب والآفات ناصحاً ومبيِّناً ضررها في إبعاد الإنسان عن الحقيقة حتى تتضح طرق إزالتها ، لكي لا تحرمه وتفقده القدرة على الإنصات لنداء الفطرة ، والسير في طريق الحق .

---

[١] تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي : ٦ .

[٢] م . ن : ٦ .

الفصل الثالث

الأبعاد المعرفية

مدخل

الإسلام هو دين الله الذي اختاره لهذه البشرية ، جاء ليستوعب بأصوله وتشريعاته كل جزئيات الحياة وتفاصيلها ، وليصوغ بأنظمته الرائدة نسيجاً متكاملاً يغطي جميع احتياجات الإنسان ، ويهدي مسيرته في كل مجال من مجالات حركته في هذه الحياة ، سواء ما كان منها مرتبطاً بكيانه المادي ، أم ما هو متعلق بجانبه الروحي ، وسواء أكان ذلك ضمن إطار فرديته الخاصة ، أم ضمن كونه جزءاً من كل كبير مترابط ترابطاً عضوياً متيناً [١].

والحياة على وفق هذا المنظور «حائزة على جميع خصائص الحياة الكاملة ، فلا يعطل فيها أي بعد من أبعاد حياة الإنسان ، ولا أية قوة من قواه ؛ بل لوحظت جميع هذه الأمور في بنيتها ، وذلك ببيان مرتبة كل واحدة منها والدور المناسب لها لتصبح موجهة من أجل الوصول إلى أهداف الحياة الدينية » [٢]

ورسالة الإسلام إلى الإنسانية هي الوصول إلى هذا المستوى المثالي من المناقب والصفات الخيرة ، التي تكون محفزة بعوامل ذاتية ،إذ إنَّ المناهج الإسلامية التربوية والسياسية والاقتصادية جاءت لتوصل عوامل الخير إلى داخل الإنسان ؛ لتصبح هذه العوامل هي المحرك المباشر له في الحياة [٣].

ولا شك أنَّ الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) قد بذل كل ما يملك من وسع في سبيل تحقيق أهداف الإسلام النبيلة ، وتبدو هذه الحقيقة جلية من خلال نظرة متأملة إلى هيكلية المجتمع المسلم الذي أنشأه (صلى الله عليه وآله وسلم) في تلك المدة من عمره الرسالي المبارك ، إذ يلاحظ حجم التحول الإيجابي الكبير ومضمونه الذي طرأ على بناء المجتمع ، وهو البناء الذي كان يعيش قبل بدء هذه

---

[١] ينظر : دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة : ١ / ١١

[٢] التفسير السياسي للقرآن دراسة في المبادئ المعرفية :١٤.

[٣] ينظر : الفكر الاقتصادي في نهج البلاغة : ٢٠٩ .

الدعوة حالة من التخبط والشرك بالله ، والضلال عن سبيل الحق والرشاد [١].

إنَّ النظام الإسلامي مرَّ بتجربة من أروع النظم الاجتماعية وأنجحها ، وأكثرها غزارة في السعي الحثيث من أجل الوصول بالبشرية إلى ساحل التكامل والسعادة ، ونحن نجد ذلك من خلال تتبع الرسائل المتبادلة بين أمير المؤمنين (عليه السلام) وخصومه ، إذ نلحظ عظمة هذا البناء وارتفاعه الشاهق أمام الأنظمة الأخرى ، على الرغم من كون الرسائل لا تعبر إلا عن مدة مخاض من الصراع دار بين جبهة الحق من جانب وجبهة الطمع والركون إلى الباطل من جانب آخر ، غير أنَّ هذا النظام الذي مثل تلك التجربة ما أنْ «عصفت به العواصف بعد أن خلا الميدان من القادة المبدئيين أو كاد يخلو، وبقيت التجربة في رحمة أناس لم ينضج الإسلام في نفوسهم ، ولم يملأ أرواحهم بروحه وجوهره فعجزت عن الصمود والبقاء ، فتقوض الكيان الإسلامي ، وبقي نظام الإسلام فكرة في ذهن الأمة الإسلامية ، وعقيدة في قلوب المسلمين ، وأملا يسعى إلى تحقيقه أبناؤه المجاهدين »[٢] .

إنَّ المحور الذي تدور عليه حركة التطور في ضوء نظرية المعرفة الإسلامية ، هو تطور البشرية ، ودفعها إلى الانطلاق والارتفاع وإلى الخلّق والإبداع ، لذا فإن « محاولات النظر في الواقع دون إدراك البعد المعرفي يخلق الوهم بأننا ننتج معرفة إسلامية ، ومن ثم فنحن نضيع فرصة تاريخية نادرة ، فإدراك البعد المعرفي الإسلامي قد ظهر مع تآكل النموذج المعرفي في الغرب وبسبب عجزه ، ومع تزايد إحساس الأمة بمفكريها وجماهيرها ، بأنه لا بد أن نأتي ببديل من داخل منظومتنا الإسلامية »[٣] ، إذ كان لابد أن نظهر بعض جوانب تلك التجربة العظيمة ونرسم بعض أبعادها المعرفية للقارئ الكريم من خلال استلهام أبعادها التربوية والاقتصادية والسياسية في ضوء استقراء تلك النصوص من الرسائل المتبادلة بين الإمام (عليه السلام) وخصومه والتجربة في ضوء منظورها النظري والعملي لتلك الأبعاد .

---

[١] ينظر : دور أهل البيت (عليهم السلام) في بناء الجماعة الصالحة :١١

[٢] فلسفتنا :١٣ .

[٣] في أهمية الدرس المعرفي ، عبد الوهاب المسيري ، مجلة إسلامية المعرفة : ١١٨ .

البعد التربوي :

مما لا شك فيه إنَّ القرآن الكريم يمثل عقيدة كلية للمسلم ، تعمل على تحديد تصوره للإنسان ، والكون ، والحياة ، نظراً لما يحويه من المبادئ الخلقية والتربوية والإنسانية المهمة التي تصب في خدمة المجتمع، تلك المبادئ التي جاءت لتنظيم حياة الإنسان في كل دقائقه وتفصيلاته، وبالتالي بنائه خلقياً ليكون قادراً على السير في خطى رسالة الإسلام .

إنَّ المنهج التربوي في القرآن يمثل منهجاً متكاملاً له مميزاته وخصائصه التي يتفرد بها من دون سائر المناهج والأنظمة والقوانين قال تعالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [١].

وخصائص المنهج القرآني ، شامل لجميع أنواع الأخلاق ، وجميع جوانب الحياة ، فهو مرتبط بجانب العقيدة والعبادة ، والمعاملات ونحوها ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [٢]، أنه عام لجميع البشر ، صالح لكل زمان ومكان ولكل فرد ومجتمع ، وأمة؛ لأنه الدين الذي ارتضاه الله للعالمين[٣] ، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[٤] .

إنَّ المفهوم التربوي في ضوء نظرية المعرفة الإسلامية ينظر إلى الإنسان والكون والحياة في الإطار الإسلامي الأشمل المبني على حقيقة التوحيد ، بتكامل عالم الغيب وعالم الشهادة ، والوحي ، والعقل ، والكون ، والإيمان ، والعمل ، والتوكل ، والسعي ،

---

[١] سورة الملك : ١٤

[٢] سورة الأنعام : ٣٨

[٣] ينظر : المنهج الأخلاقي وحقوق الإنسان في القرآن الكريم : ٢٨ – ٢٩ .

[٤] سورة المائدة : ٣

وتتكامل عقيدة القضاء والقدر ، والثقة بالكليات الربانية ، والأوامر الإلهية مع جدية السعي لفهم السنن ، والعلم بالفطرة والأسباب، وطلبها والحرص عليها [١] .

إنَّ هذه الشمولية « قد جسدت نمط العلاقة بين الإنسان وهو من عالم الشهادة مع الغيب ومعطياته الإنسانية على نحو يجعل من هدف هذه العلاقة تحقيق معاني التسخير والاستخلاف ؛ فإن ذلك يرجع إلى أصل الإنسان الذي ينتمي بجسده الى عالم الشهادة ،غير أنه ينتمي بروحه ونفسه وسيره إلى عالم اللقاء وهو عالم الغيب»[٢] :

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ* ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ [٣].

ومن ذلك فقد أهتم الدين الإسلامي بتقويم الأخلاق اهتماماً بالغاً ، وجاء بقوانين مثالية متكاملة لا يضاهيها أي دستور بشري ، فقد قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[٤] أي علة بعث الرسل وإرسال نبينا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ،إنما هي تكميل مكارم الأخلاق والوصول بالإنسان إلى آخر حد ممكن من الكمالات الأخلاقية.

إنَّ المستقرئ للرسائل التي تبادلها الإمام علي (عليه السلام) مع بعض خصومه يلتمس بعض المفاهيم والأبعاد التربوية التي غايتها الارتقاء بالإنسان المتلقي المباشر وغيره إلى سمو التكامل المعرفي وهدايته إلى طريق الرشاد .

ومن تلك الإبعاد القطيعة عن الذين لا ينتهون عن المحارم والابتعاد عن مبادئ الإسلام ، في تأدية حقوق الناس ، والمساواة بينهم ، إذا نجد ذلك عند أمير المؤمنين (عليه السلام) إذ يظهر قطيعته للخليفة عثمان واعتزاله عنه يقول في رسالته إلى معاوية :

---

[١] ينظر : أزمة العقل المسلم ، ١١٠ – ١١٥ .

[٢] نظرية المعرفة في القرآن وتضميناتها التربوية : ١٥٣

[٣] سورة السجدة : ٧ – ٩ .

[٤] كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال : ٣ / ١٦ .

«وأما ما ذكرت من أمر عثمان ، وقطعيتي رَحِمة وتأليبي عليه ، فان عثمان عمِلَ ما قد بلغك ، فصنع الناس به ما رأيتَ ، وإنك لتعلم أني قد كنت في عزلة عنه إلا أنْ تتجنَّى فتجَنَّ ما بدا لك» [١]

إنَّ خطاب الإمام (عليه السلام) بيَّن مدى إدراك الإمام لخطورة موقف الخليفة عثمان من عدم امتثاله لأوامر السماء ، والسير على هدى القرآن ؛ لذا كان على الإمام (عليه السلام) محاولة إيفاء عثمان إلى رشده ، ورجوع إلى صوابه ، وسير في سيرة الإسلام .

واتخذ الإمام (عليه السلام) الأسلوب نفسه مع معاوية في الإعراض عن معاوية لسوء سيرته إذ يقول (عليه السلام) في كتاب إلى معاوية عندما بويع الإمام بالخلافة:

«من عبد الله أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان أما بعد : فقد علمت إعذاري فيكم وإعراضي عنكم حتى كان ما لابد منه دفع له والحديث طويل والكلام كثير»[٢]

فأسلوب المقاطعة والإعراض هو جزء من منهج الإمام (عليه السلام) التربوي في السير في التكامل البشري .

ومن الأبعاد المعرفة التربوية الأخرى التي نلتمسها من رسائل الإمام (عليه السلام) لخصومه ، حرصه على الإيفاء بالعهود ليس من جانب مواليه فحسب ؛ وإنما حتى من جانب أعدائه أيضاً، إذ نراه يظهر الجانب العملي في السير بسلوك الإيفاء بعهوده ، فضلاً عن سنح الفرصة لهم للرجوع عن الخطأ الذي ارتكبوه ، فنراه يبعث برسالة للخوارج من أتباع الخريت جاء فيها :

«فمن رجع إلى أهله منكم ، وكف يده ، واعتزل هذا المارق الهالك الحارب الذي جاء يحارب الله ورسوله والمسلمين ، وسعى في الأرض فساداً فله الأمان على ماله ودمه »[٣] .

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٧٨ .

[٢] نهج البلاغة : ٥٤٥ .

[٣] تاريخ الطبري : ٤ / ٣٧٩ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام) : ٨٨ .

فخطاب الإمام (عليه السلام) على الرغم مما يحمله من سلوك عملي نادى به الإسلام ، فهو يحمل أيضاً بعداً تربوياً آخر في حفظ دماء الناس ، والمبالغة في الدعوة إلى السير على هدى القرآن ، والسنة النبوية ، وفتح كل أبواب الرجوع والاستيقاظ من الغفلة قبل فوات الأوان .

ولهذا نجد قائد جيش الإمام (عليه السلام) معقل بن قيس الرياحي ، يلبي ما عاهد به الإمام لهذه الثلة الضالة على أرض الواقع ثم يرسل كتاباً يحمل أخر تطورات الحرب ، إذ يقول في كتابه إلى أمير المؤمنين :

«فدعوناهم إلى الطاعة والجماعة ، والى حكم الكتاب والسنة ، وقرأنا عليهم كتاب أمير المؤمنين ، ورفعنا لهم راية أمان ، فمالت إلينا منهم طائفة ، وبقيت طائفة أخرى منابذة ، فقبلنا من التي أقبلت »[١]

ومن أبعاد المعرفة في ميدانها التربوي ، هو تبيان أن الدنيا محطة اختبار لما بعدها ، وإنها ساحة سعي الإنسان للوصول إلى حياة أخرى ، إنَّ هذه الحقيقة التي يعدها الإسلام منطلقاً للمعرفة ، في ارتباط عالم الدنيا بعلم الآخرة ، إذ يستلزم حضوراً تربوياً يعيشه المسلم ويرافقه على مدى حياته في هذه الدنيا ، هذا البعد يحاول الإمام إيصاله للمتلقي الخاص والعام يقول في رسالته الى معاوية :

«فإن الله سبحانه جعل الدنيا لما بعدها ، وابتلى فيها أهلها، ليعلم أيُّهم أحسنُ عملاً ، ولسنا للدنيا خُلقنا ، ولا بالسَّعي فيها أُمرنا وإنما وضعنا فيها لنبتَلى بها »[٢]

يجب على الإنسان أنْ لا يعيش في تزاحم الدنيا وينسى الهدف الأساس من خلق ، في السعي للآخرة ، لأنها محصلة نهاية الدنيا ، وهي وسيلة وطريق للتكامل البشري ، وقد ابتلى الله أصحاب الدنيا بالشيطان ليعلم أيهم أحسن عملاً ؛ لذا قال (عليه السلام) في دعاء كميل اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء [٣] ، فمحصلة الذنوب

---

[١] تاريخ الطبري : ٤ / ٣٨٠ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام) : ٨٨ .

[٢] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٧ / ١٣٥ .

[٣] ينظر : مفاتيح الجنان :٩٦ .

تزيد من حدة البلاء ، قال تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (١) .

وفي ضوء نظرية المعرفة يعتقد فريق من الباحثين «أنَّ الله تعالى غرس في أعماق الإنسان قوة غير العقل والعاطفة ، وهي تلهم الإنسان ما يجب عليه فعله أو تركه في المجال الأخلاقي ، وهذه القوة ليست هي العاطفة كما تقول الأخلاق الهندية والمسيحية، ولا هي العقل والإرادة كما يقول الفلاسفة ، لأن العقل في أغلب الموارد أمر اكتسابي وهذه القوة أمر فطري »(٢)، قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ (٤).

ومن جملة من ذهب إلى ذلك الفيلسوف الألماني (كانت) حيث يعتقد أنَّ الفعل الأخلاقي هو ذلك الفعل الذي يأخذه الإنسان من ضميره بعنوان كونه أحدى الواجبات، فالفعل الأخلاقي هو الفعل الذي صدر إلى الإنسان وفيه أمر من ضميره ، ويتمثل هذا الأمر من دون اعتراض ، وليس من أجل هدف أو غرض(٥).

وبما أنَّ أفعال الإنسان وسلوكياته ليست ثابتة مطلقاً ؛ لكونها خاضعة للظروف الزمانية ، مثلما يعتقد (كانت) الذي يعدُّ الإنسان كائناً طبيعياً خاضعاً لنظام العليّة ؛ لكونه يمتلك أفكاراً وأحاسيساً ورغبات وقرارات وانطباعات حسّيةً متنوعةً ؛ فهو من هذه الحثية عبارة عن ظاهرة زمانية تتسم بالتدرج والاستمرار ، وعلى هذا الأساس لا بد وأن يخضع لقوانين الطبيعة وقواعد العقل (٦) ؛ لذا فإن ضمير البعض يهفت صوته ،

---

(١) سورة الملك : ٢ .

(٢) سلوك وأخلاق الإسلام : ٢٨ .

(٣) سورة الشمس : ٧ –١٠ .

(٤) سورة الأنبياء : ٧٣

(٥) ينظر : سلوك وأخلاق الإسلام : ٢٩ – ٣٠ .

(٦) ينظر: دراسات نقدية في أعلام الغرب ، إيمانويل كانط :٣ /٤٤

ويضعف سلطانه ، وهذا ما لاحظه أمير المؤمنين (عليه السلام) من سلوك عامله على البصرة الذي سرق بيت مالها وذهب إلى الحجاز ، إذ يقول أمير المؤمنين في رسالته له :

«فحملته إلى الحجاز ، رحيب الصدر بحمله ، غير متأثم من أخذه »[١]

في خطاب الإمام (عليه السلام) محاولة لأنْ يعالج سلوك عامله الذي خان الأمانة من خلال إحياء الفطرة مناداة ضمير الإنسان ؛ لأن الضمير ككل ملكات الإنسان وقواه ، تضعف في الإهمال ، فبعصيان الضمير ، يضعف أو يموت ، يعصى الإنسان ضميره مرة فيحس بلذع شديد من جراء عصيانه ، فإذا تكرر منه العصيان أحس بلذع دون ما كان يشعر به عند أول مخالفة ، ولا يزال الإنسان يتبع السيئة السيئة حتى لا يشعر بأي نوع من اللوم والتأنيب ؛ لانَّ صوت الضمير قد خفت وسلطانه قد ضعف أو مات [٢].

فقلب البعض يصدأ ويظلم كلما تقدم به العمر حتى تصل به إلى أن يقسو ويظلم ، ويكون من الصعب إصلاح نفس الإنسان بالعودة بها الى حالة الصفاء والإيمان .

والإمام (عليه السلام) ينبهه على البعد النفسي لتقدم العمر في السير على منهج الضلالة والغي فهو يحذر معاوية من مغبة الاستمرار على هذا المنهج ، إذ يقول في رسالته : بعد أن يحذره عن استدبار الدنيا ، والحسرة يوم القيامة :

«فاقلع عما أنت عليه من الغَيّ والضلال على كِبر سنّك ، وفناء عمرك ، فان حالك اليوم كحال الثوب المُهَلهل الذي لا يصلح من جانب إلا فسد من آخر »[٣].

إنَّ الإمام (عليه السلام) في خطابه التربوي يصور حالة الإنسان المنحرف بعامة ، ومعاوية بخاصة كالثوب العتيق الممزق لا يصلح معه أي ترميم ، أي أنه فقد خواص ضميره ؛ لأنَّ الإنسان كما يقول أحمد أمين : « في أعماق نفسه قوّة تحذره فعل الشر إذا أغوى به ، وتحاول أن تمنعه من فعله ، فإذا هو أصر على عمله أحس بانقباض

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٦٧ .

[٢] ينظر : كتاب الأخلاق : ١٦ .

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٣٣ .

نفسه أثناء العمل لعصيانه تلك القوة ، حتى إذا أتم العمل أخذت هذه القوة توبخه على الإتيان به ، وبدأ يندم على ما فعل »[١].

هذه القوة الآمرة الناهية التي هي الضمير تسبق العمل وتقارنه وتلحقه قد تلاشت في حال معاوية والإنسان الذي مثل معاوية فوصلت به إلى سوء الحال وإلى درجة كبيرة من الانحراف قد لا ينفع معه النصح والإرشاد ، بل لا يرجى منه الإصلاح ؛ ولكن في الوقت نفسه تكون الإرادة محط نظر في التغيير والتوقف عن سلوك الانحراف على الرغم من الزمن الطويل للانحراف كما يشير الإمام (عليه السلام) ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[٢]

بتلاشي الضمير يفقد الإنسان عناصر الهداية ويصبح يستقبل عناصر الغي والضلال الذي هو دلالة الخسران المبين ، وقد ورد في الحديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) : «ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء ، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء ، فإن تاب ذهب ذلك السواد ، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطّي البياض ، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى الخير أبداً ، وهو قول الله عزّ وجلّ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ »[٣].

والإمام (عليه السلام) ينبه إلى مغبة الوصول إلى هذه الدرجة من موت الضمير ويحذر مما وصل إليه معاوية في الغي والضلال ، والمساوئ إلى درجة كبيرة إذ يقول في هذا الشأن في رسالة إلى معاوية :

---

[١] كتاب الأخلاق : ١٠ .

[٢] سورة الزمر : ٥٣ .

[٣] الكافي : ٢ / ٢٧٣ ، ووسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة : ١٥ / ٣٠٣ ، والآية من سورة المطففين : ١٤

«أما بعد : فإن مساويك مع علم الله تعالى فيك حالت بينك وبين أن يصلح لك أمرك ، وأن يرعَويَ قلبك ، يا بن صخر يا بن اللعين ... الجلف المنافق الأغلف القلب القليل العقل ، الجبان الرَّذل » [١] .

لا شك أنَّ قوانين الطبيعة تمتاز بأنَّ مخالفتها تؤدي إلى أن يلاقي الفرد جزاءه عاجلاً ، ولذلك فإن الناس يخافون الخروج عليها ؛توجد في القوانين السماوية ذنوباً وجرائم يكون الجزاء عليها في الدنيا بطيئاً وفي الآخرة أبطأ ، ولهذا فإن كثير من الناس لا يرتدعون عن ارتكابها ــ أو لا يجدون في أنفسهم خوفاً من ارتكابها على الأقل ــ ظانين أنهم في حصن حصين عن الجزاء [٢] ، ومعاوية من هؤلاء الذين ساءت حالتهم ووصلت إلى اليأس من أصلاح النفس ،﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾[٣] ، بل وصلت إلى استحقاق اللعن ؛ لكونه وصل إلى مساوئ النفاق الذي غطى قلبه بغطاء الضلالة ، قال تعالى :﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [٤] .

وهذا اللعن هو دلالة التحذير للإنسان من هذا الشخص الذي أصبح كتلة من الغواية والضلالة وكما يقول الشيطان : ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ*إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٥] ، وهذه المرحلة من الصعوبة وصلت الى ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٦].

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ /١٣٥ .

[٢] ينظر : الطفل بين الوراثة والتربية : ١/ ٢٣ – ٢٤ .

[٣] سورة الإسراء : ٤٦

[٤] سورة التوبة : ٦٨

[٥] سورة الحجر : ٣٩ – ٤٠

[٦] سورة الأعراف : ١٨

وكما يضعف الضمير بالعصيان يضعف بصحبة الأشرار ، وإطالة القراءة في الكتب الساقطة كما يقول أحمد أمين ؛ لأنَّ الأمرين يكرر منظر الشر أمام النفس حتى تعتاده ، وكلاهما يتحدث عن الشر حديث المستحسن ، فيتخدر الضمير ويخمد صوته[١]، فكيف بهذه النفس التي مات ضميرها ، وهي لا تقرأ الكتب الساقطة ، بل تحضر مجالس المترفين الساقطة الذين يسفهون أهل الحق ويستقبحون أهل الكرامة وكما يقول أمير المؤمنين في رسالته لعمرو بن العاص :

«فإنك جعلت دينك تبعا لدنيا امرئ ظاهر غيه مهتوك ستره، يشين الكريم بمجلسه ويسفه الحليم بخلطته، فاتبعت أثره وطلبت فضله »[٢].

هذا الضمير الذي خفت نداءه أصبح ينكر الحق بل يحاول خداع الحق ، فبعد أن اعتاد العصيان والرذيلة أصبح يحاول نشر الضلالة والباطل ، وجعله مستساغ ومباح بعد أن كان محكوماً ومحرماً ، ويحاول أن يكون في كل الظروف هو الأقوى والحاكم ، إذ يقول (عليه السلام) مبيناً صحبة الأشرار وكفرهم :

«وكأني بجماعتك تدعوني جزعاً من الضرب المتتابع ، والقضاء الواقع ومصارع بعد المصارع إلى كتاب الله وهي كافرة جاحدة ، أو مبايعة حائدة »[٣]

ومن المفاهيم التي تؤكدها نظرية المعرفة من بعدها التربوي «اقتران العلم بالعمل بوصفه جزءاً لا يتجزأ من فلسفة التربية الإسلامية فهو يعكس أسلوب القدوة الذي يمثل أسلوباً مهماً ومؤثراً من أساليب التربية الإسلامية ، يعكس واقعية نقل الأفكار النظرية إلى مجال التطبيق الذي يمكن محاكاته من قبل المتعلمين»[٤] إذ اعتمد القرآن الكريم في عرضه للمعارف منهج الربط بين البعد النظري والبعد العملي ، «فلو رجعنا إلى القرآن لوجدنا أنه لا يذكر أي قضية مرتبطة بالبعد النظري ، إلا ويذكر معها بعدها العملي ، فلا يذكر علماً إلا وإلى جانبه عمل ، ولا يذكر عمل إلا ويذكر إلى جانبه

---

[١] ينظر : كتاب الأخلاق : ١٦ .

[٢] نهج البلاغة شرح محمد عبده : ٣ / ٦٤ .

[٣] نهج البلاغة : ٤٣١ .

[٤] نظرية المعرفة في القرآن الكريم وتضميناتها التربوية : ١١٣.

الجزاء المترتب عليه »[١] ، إذ يقول في محكم كتابه العزيز : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٢] وقوله تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣].

وقد جاء في الحديث الشريف : «كونوا دعاة بغير ألسنتكم »[٤] ، وجاء أيضاً : «من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[٥]

إنَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) يؤكد هذا المبدأ وينبه عليه في رسائله لخصومه، حرصاً منه لمعرفة صادقه حقه تنجي من الجهل الذي تشرب في قلوب خصومه من جانب فضلاً عن تنبيه المتلقي من خطورة التهاون في هذا المسلك ؛ لذا يقول (عليه السلام) في رسالته إلى معاوية :

«واعلموا أنَّ خيار عباد الله الذين يعملون بما يعلمون ، وأنَّ أشرارهم الجهال الذين يتنازعون الجهل أهل العلم ، فإن للعالم بعلمه فضلاً وإنَّ الجاهل لا يزداد بمنازعته العالم إلا جهلا » [٦].

إنَّ الفرق بين العالِم والجاهل هو العمل ؛ كما يقول الإمام الصادق (عليه السلام): « العلم مقرون إلى العمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل »[٧] ، وقوله أيضاً : « لا يقبل الله عملاً إلا بمعرفة ، ولا معرفة إلا بعمل ، فمن عرف دلّته المعرفة على العمل ، ومن لم يعمل فلا معرفة له ، إلا إن الإيمان بعضه من بعض » [٨].

---

[١] التربية الروحية بحوث في جهاد النفس : ٣٥ .

[٢] سورة فصلت : ٣٣.

[٣] سورة الاحقاف : ١٣.

[٤] الكافي : ٢ / ٧٨ .

[٥] الكافي : ١ / ٤٤ ، وكتاب العلل من المحاسن : ١ / ٣١٤ .

[٦] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٣ / ٢١٠ .

[٧] الكافي : ١ / ٤٤ ، ومنية المريد : ١٨١.

[٨] الكافي : ١ / ٤٤ .

ولهذا نجد الفرق الكبير بين الأنبياء والكثير من الفلاسفة في هذا المجال أنَّ الفلاسفة يتحركون ضمن إطار الحديث والكلام والنظريات فقط ، أما الأنبياء فهم وقبل أن يقولوا شيئاً فإنهم يجسدونه في أعمالهم ، وبهذا ينفذون إلى قلوب الناس ويمتلكون عواطفهم ، فالكلام لا يمكنه أن يتعدى في التأثير على الآذان ، ولكن للعمل أمواج تتردد في أعماق الروح وتنعكس في طوايا القلب [١].

ولكن يبقى العالم الذي جهل العمل أفضل من الجاهل الذي جهل العلم والعمل ، ويبقى هؤلاء يزدادون بعدا وجهلاً عن العلم بمنازعتهم أصحاب العلم والعمل قال تعالى : ﴿ هل يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [٢] ، وقوله سبحانه أيضاً: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [٣] .

وتبقى غاية رسالة أمير المؤمنين (عليه السلام) وهدفها تصدح بما نادى به الإسلام في أنَّ العمل يقترن بالعلم وأنَّ الابتعاد عن ذلك يقع في ما حذر منه القرآن في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ*كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [٤].

ومن هذا المعنى القرآني يؤكد الإمام (عليه السلام) في رسالته إلى زياد بن عبيد بما أخبره بعض مواليه من سلوك خاطئ إذ يقول :

« وأخبرني أنك تتكلم بكلام الأبرار وتعمل عمل الخاطئين ، فإن كنت تفعل ذلك فنفسك قد ظلمت وعملك أحبطت ، فتب الى ربك يُصلح لك عملك » [٥] .

فكلام الإمام (عليه السلام) ناتج عن معرفة قرآنية في ارتباط القول بالعمل ،

---

[١] ينظر : سلوك وأخلاق الإسلام : ٣٦٠ .

[٢] سورة النحل : ٧٦ .

[٣] سورة الزمر : ٩ .

[٤] سورة الصف : ٢-٣.

[٥] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٩٦ .

وصلته بالإيمان بالله ، كما في الآية السالفة الذكر ، فضلا عن أن قبول الأعمال الناتجة عن القول الطيب ترتبط بالعمل الصالح لقوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[١] .

إن رصيد المؤمنين من العمل هو الإيمان بالله والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ يؤكد الإمام ما أكده القرآن الكريم صاحب الرؤيا المعرفية الأولى في سلوك خير الأمم ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[٢] .

وأمير المؤمنين ارتاد بالأمة أن تصل إلى بر الأمان من خلال ترسيخ روح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ يقول في رسالته لمعاوية بن أبي سفيان :

«فقد بلغني كتابك تذكر مشاغبتي ، وتستقبح موازرتي ... إني لم أشاغب إلا في أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر ، ولم أضجر إلا على باغٍ مارق ، أو ملحد منافق ، ولم آخذ في ذلك إلا بقول الله سبحانه : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ »[٣].

إنَّ سلوك الإمام (عليه السلام) نابع من عمق رصيده الإيماني بالله وبمبادئ الإسلام وتجسيده لتلك المبادئ إذ «إن أهم ضمان لتنفيذ الأصول الإنسانية ، وأكبر رصيد للفضائل الأخلاقية لهو الإيمان الديني الذي يؤمن الإنسان في ميدان مقاومة الغرائز والأحاسيس»[٤]، ويوقف المجاملة حتى مع رابطة الدم ؛ لأنَّ الهدف الأسمى

---

[١] سورة فاطر : ١٠ .

[٢] سورة آل عمران : ١١٠

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٧ .

[٤] رسالة الأخلاق : ٨

هو رضا الله الذي لا يخرج عن نفع الإنسان ، ومصالحه المعتبرة ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾[١].

إنَّ من «أهم العوامل التي تكمن وراء توفيق المجتمعات البشرية وانتصاراتها وانتكاساتها هي العوامل الأخلاقية ، بل لها من الآثار الحاسمة والواضحة والظاهرة في نظام حياة الأمم بحيث لا تبقى لأحد مجالا للتشكيك والترديد »[٢] ، إذ نجد في أوقات التخلف والهزائم التي تمر بها الأمم يبدأ الخبراء بجهودهم للبحث عن الأسباب بفحص النظم التربوية القائمة على ذلك من أنَّ التقدم والتخلف يبدآن في المحتويات النفسية والفكرية ثم ينتشران في ميادين الحياة المختلفة [٣]، وهذا ما يوجه إليه القرآن الكريم عند قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[٤]

وبهذا يقوم أهم عامل أخلاقي يترتب على رقي الأمم هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي ذكرتها الآية القرآنية السابقة ، فضلاً عن : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [٥]، وهذا البعد المعرفي في تشخيص المشكلة هو الفرق الأساسي بين التربية الاجتماعية الإسلامية والتربية الغربية التي تجعل من عامل الاقتصادي ورأس المال السبب الرئيس في تخلف الأمم ونهوضها ، في ضوء نظرية المعرفة .

ومن المفاهيم التربوية التي يحث عليها الإسلام وقادته النجباء هو التمسك بالتقوى والابتعاد عن التمسك والاعتزاز بالإثم ، إذ نجد أمير المؤمنين يستعيذ من ذلك الخلق

---

[١] سورة المجادلة : ٢٢

[٢] رسالة الأخلاق : ٧.

[٣] ينظر : فلسفة التربية الإسلامية ، دراسة مقارنة بين فلسفة التربية الإسلامية والفلسفات التربوية المعاصرة : ٦٤ .

[٤] سورة الرعد : ١١

[٥] سورة الفتح : ٢٩

ويحذر الآخرين من الانجرار للمعاصي والآثام والتمسك بها ، إذ يقول في رسالة جوابية لمعاوية :

«فأما أمرك لي بالتقوى فأرجو أنْ أكون من أهلها ، وأستعيذ بالله من أكون من الذين إذا مروا بها أخذتهم العزَّة بالإثم »[١].

فخطاب الإمام (عليه السلام) التربوي هو في تحبيب التقوى التي أمر الله بها ، والتحذير من الدوافع الغريزية التي تسقط أخلاق الإنسان بل في بعض الأحيان تجعله ينقلب رأساً على عقب ، في تمسكه في الإثم والخطيئة .

إنَّ عمل الإنسان على وفق ما تقتضيه المفاهيم التربوية للإسلام ، يقتضي أن يتحلى الإنسان بالصبر، وأن يتخلى عن الميول التي تضاد تلك القيم والمفاهيم ، إذ لا يمكن إشباع تلك الميول إلا بالإعراض عن تلك المفاهيم الأخلاقية بل سحقها وهنا نقول أجل «إن التربية من دون رصيد معنوي لا تستطيع دفع مصادمات الغرائز للأخلاق ، فالذين ليسوا في حصن من المعنويات سيسقطون صرعى ضحايا الضغط الشديد لميولهم وأهوائهم ؛ وذلك لأن قوة هذه التربية غير المعنوية سوف لا تكون راسخة مقاومة بحيث تتمكن من أن تتقدم بصاحبها في كل حال على خلاف مجاري دوافعه الغريزية »[٢].

ومن الإبعاد المعرفية التي تحمل بعداً تربوياً يتسم بالنفس الأبية التي تحمل مبادئ الإسلام والدفاع عنه ، صفة الشجاعة التي يحملها أمير المؤمنين ، وكيف كان سيفاً للإسلام ونصرته ضد أسلاف معاوية الذين حملهم الكفر لمحاربة الرسول العظيم وهذه الشجاعة تحمل في بعدها تربية القرآن والقلب المفعم بالإيمان ، إذ يقول في رسالته إلى معاوية :

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٤ / ٤٣ .

[٢] رسالة الأخلاق : ٨ .

«فأنا أبو الحسن قاتل جدك وأخيك وخالك شدخاً يوم بدر ، وذلك السيف معي وبذلك القلب القي عدوي وما أنت منهم ببعيد »[١]

فشجاعة الإمام (عليه السلام) كانت من قلب قوي صلب يحمل صلابة وشجاعة الأيام حمل الرسالة مع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ، تلك الشجاعة التي بدأت بالمبيت في فراش الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) يوم تآمرت عليه قريش وما تلت من معارك بدر ، وأحد والخندق وغيرها من معارك الإسلام.

إنَّه نفس القلب الذي حمل الإيمان ، اليوم يقاتل نفس الفئة التي لم تؤمن وإنما دعت الإيمان في اليوم الأول لفتح مكة .

وكانت شجاعة الإمام تحمل من القيم والمفاهيم الأخلاقية الكثير من النصح والإرشاد ، فضلاً عن خلق الحرب التي أسسها الإمام ، والتي إلى الآن لم يصبر على الالتزام بها الكثير من جيوش العالم ، إذ يقول في رسالته إلى الأشعث بن قيس[٢] ذكرا معركته مع طلحة والزبير :

«فدعوتهم إلى أن يرجعوا إلى ما خرجوا منه فأبوا فأبلغت في الدعاء وأحسنت في البقيا ، وأمرت أن لا يُذَفَّف على جريح ، ولا يُتْبعَ منهزم ولا يُسْلَب قتيل ، ومن ألقى سلاحه ، وأغلق بابه فهو آمن »[٣].

أي شجاعة هذه وأي خلق ، وأي مبادئ ، وأي معرفة في بعدها التربوي ، إنه خطاب الإمام التربوي لكل الجيوش في كل العصور في المبالغة في نصح العدو ،

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٣٦ .

[٢] الأشعث بن قيس بن معد يكرب بن عدي بن ربيعة ، وفد على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سنة ١٠ هـ ، ارتد بعد رسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وسكن الكوفة ، ثم اسلم ، وشهد مع الإمام (صفين) ، أعان ابن ملجم المرادي على قتل أمير المؤمنين (عليه السلام) ، كما كاتبه معاوية في خلافة الإمام الحسن (عليه السلام) وبنته جعدة فسمت الإمام الحسن السبط (عليه السلام)، ينظر : الإصابة في معرفة الصحابة : ١/ ٥١ ، أصحاب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ورواة عنه : ١ / ٦٤ – ٦٥ .

[٣] الإمامة والسياسة : ١ / ١١١ .

والرحمة للجريح ، والرأفة للمنهزم الفار ، وحرمة للقتيل ، والعفو عن ملقي السلاح، والتغاضي عن من أغلق الباب ، أي سمو وخلق هنا ؛ إنها تربية السماء والدين الحنيف .

ويؤكد الإمام (عليه السلام) السلوك التربوي في عدم إتباع الفار مذكراً معاوية هذا الموقف يوم هرب في بدر ، إذ يقول في رسالته إليه يذكره فيها :

«وأذكّرك ما لست ناسياً ، يوم قتلتُ أخاك حنْظلة ، وجَررتُ برجله إلى القليب ، وأسرتُ أخاك عمراً فجعلتُ عنقه بين ساقيه رباطاً ، وطلبتك ففرَرْتَ ولك حصاص[١] ، فلولا أنّي لا اتبع فارّا ، لجعلتك ثالثهما »[٢]

إنَّ هذا السمو في الأخلاق العسكرية ، لهو نابع من الإيمان بالله والرسالة المحمدية التي تربى عليها منذ نشأته ، وهو يعطي درساً أخلاقياً لكل قيادات الجيوش في اتخاذ هذا الطريق ؛ لأنّ المعركة الأخلاقية والسلوك التربوي هما أعظم من النصر المادي في المعركة ؛ لذا يقول الجاحظ « كان علي رضي الله عنه لا يستعمل في حربه إلا ما وافق الكتاب والسنة، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة، كما يستعمل الكتاب والسنة، ويستعمل جميع المكايد، حلالها وحرامها، ويسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى »[٣].

ومن الأبعاد المعرفية في مجال تربية النفس التي يحاول أمير المؤمنين (عليه السلام) إيصال أفكارها إلى المجتمع الإسلامي هو عدم شغل النفس بالأهواء والخيالات والأعمال التي لا طائل منها ولا فائدة ، وإنما إشغال النفس بالأعمال الحسنة مما ينمي القدرات وينشر الفضل ، إذ يقول في رسالته إلى معاوية :

---

[١] الحصاص : شدّة العدْوِ في السرعة ، ينظر : لسان العرب ، مادة حصص : ٧ / ١٣ .

[٢] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٨٤ .

[٣] رسالة في الحكمين ، ضمن رسائل الجاحظ السياسية : ٣٦٦ ، وشرح نهج البلاغة العلامة التستري :١٣ /٥١٤

«أما بعد فإن أفضل ما يشغل به المرء نفسه إتباع ما حسن به فعله ، واستوجب فضله وسلم من عيبه ، وإنَّ البغي والزور يزريان بالمرء في دينه ودنياه ، ويبديان خلله عند من يعيبه »[١]

فخطاب الإمام (عليه السلام) يوجه معرفة الإنسان بنفسه ، ويؤكد على تقوية إرادته من خلال عدم شغل النفس بأفكار موهمة ؛ لأنَّ «الإرادة القوية سر النجاح في الحياة وفضائل الإنسان وملكاته تظل في سبات حتى توقظها الإرادة ، فمهارة الصانع وقوة عقل المفكر، والشعور بالواجبات ، ومعرفة ما ينبغي وما لا ينبغي كل هذا لا أثر له في الحياة ما لم تحوله قوة الإرادة إلى عمل »[٢].

ويشير الإمام (عليه السلام) أيضاً إلى أن البغي وقول الزور يجعلان من المرء يسقط من عيون الناس ولاسيما من عيّون من يتصيدون العيوب ، فضلاً عن موقف الإنسان يوم القيامة الذي يكون اشد من موقف الناس .

وينبه الإمام (عليه السلام) على بعد آخر من الصفات النفسية التي تحرف الإنسان وتؤدي به إلى التهلكة والضلالة في السير نحو تزكية النفس ، إذ يقول في رسالته إلى معاوية :

«ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه ، لذكر ذاكر فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين »[٣]

فتزكية المرء نفسه من المنهيات في الشريعة الإسلامية قال تعالى : ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[٤] ، وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[٥].

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢ / ٢٢٦ .

[٢] كتاب الأخلاق : ١٦ .

[٣] نهج البلاغة : ٤٥١ .

[٤] سورة النجم : ٣٢

[٥] سورة النساء : ٤٩

وأمير المؤمنين (عليه السلام) لم يصرح في التزكية على الرغم من موضع جواز تزكية المرء نفسه ؛ لكونه في موضع إثبات أحقيته في خلافة المسلمين ، فضلاً عن أنه في موضع الدفاع عن النفس بعد أنْ طعن معاوية في صفاته ، وقد جاء في حديث الإمام الصادق (عليه السلام) بعد أن سأله أحد أصحابه عن جواز تزكية النفس فقال : «نعم إذا اضطر إليه، أما سمعت قول يوسف: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1]، وقول العبد الصالح: ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[2] »[3]، ولكن أمير المؤمنين اكتفى بالإشارة إلى فضائله التي ذكرها رسول الله في مواضع عدة وعرفها ولم يجحدها من ثبت قلبه على الإيمان .

ويؤكد الإمام (عليه السلام) هذا البعد التربوي في عاقبة تزكية النفس في رسالة أخرى لمعاوية أيضا يقول فيها :

«فاحذر يوماً يغتبط فيه من أحمد عاقبة عمله »[4]

إنَّ هذا السلوك يجعل الإنسان يسير في طريق مجهول بل مهلك ، يحرف الإنسان ويجعله لا يلتفت إلى الأخطاء والهفوات التي يقع فيها إلى أن يصل إلى عاقبة لا يحمد عليها .

ومن الأبعاد المعرفية في بعدها التربوي ما نجده من حرص الإمام (عليه السلام)على المنظومة الأخلاقية للمجتمع بصورة عامة والولاة بخاصة ؛ كونهم جزءً مُراقباً من قبل الناس ، إذ هم الطليعة في تطبيق مبادئ الدين الحنيف ، هذه السمة التي تميز الحكومة العلوية جعل بعضهم يكتب عن سلوكية الأخلاق لدى الولاة ، لالتماسهم صورة العدل في هذه الحكومة وعدم غض الطرف عنهم وهذا ما نلتمسه في

---

[1] سورة يوسف : ٥٥

[2] سورة الأعراف : ٦٨

[3] تحف العقول عن آل الرسول : ٣٧٤ .

[4] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢ / ٢٢٦ .

رسالة أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى واليه زياد بن عبيد الذي خالف وصايا الإسلام :

«أما بعد : فإن سعداً ذكر أنك شتمته ظلماً ، وهدَّدته وجبهته تجبيراً وتكبراً ، فما دعاك إلى التكبر ؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : (التكبر رداء الله ، فمن نازع رداءه قضمه) ... وأخبرني أنك تتكلم بكلام الأبرار وتعمل عمل الخاطئين ، فإن كنت تفعل ذلك فنفسك ظلمت ، وعملك أحبطت ، فتب إلى ربك ، يصلح لك عملك»[١]

حرص الإمام على المنظومة التربوية الاجتماعية ؛ فمن خلال الأخلاق تبنى المجتمعات وترتقي ويبين أن على أصحاب المسؤولية أن يتحركوا لتعميق الأخلاق في قلوب الناس وتفعيل عناصر الخير في وجدانهم ، وأنْ لا يتصرفوا عكس ذلك في استغلال منصبهم الدنيوي والتكبر عليهم ، وأنْ ينتبهوا إلى الخطر المحيط بالأخلاق من خلال ممارساتهم غير المسؤولة والبعيدة عن قيم الإسلام ومبادئه ، فتصرفات هذه الثلة ، أكثر خطراً على المجتمع وأكثر ضرراً من عامة الناس ؛ لكونهم جزء المراقب من الناس ويلتمسون منهم الخير قبل الشر ، والنص يبين بعداً تربوياً آخر من بيان قبح صفة التكبر فضلا عن بيان ارتباط الكلام بالعمل فلا خير في كلام بدون عمل .

ودلالة النص واقتباسه للمصدر الغيبي يجعلنا ننتهز الفرصة في أن نشير أننا كمسلمين ولحسن الحظ نمتلك مصدراً عظيماً للمعارف الأخلاقية ، وهو القرآن الكريم الذي لا يدانيه أي مصدر ديني آخر في العالم[٢]فضلا عن السنة والسيرة الأخلاقية للرسول الأعظم ، وأهل بيته الكرام ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ تجعلنا في غنى عن كل مصدر تربوي آخر من أجل السير في طريق التكامل البشري .

ونجد بعداً معرفياً آخر من خلال التقصي في رسائل الإمام (عليه السلام) لخصومه هذا البعد يتجلى بخلق روح الدين في نفوس مسؤولي الدولة الذين تقع على عاتقهم مسؤولية حفظ أموال المسلمين هذا البعد الذي يخلق رقابة ذاتيه للمسؤول يجعل

---

[١] م . ن : ١٦ / ١٩٦

[٢] ينظر : الأخلاق في القرآن الكريم : ١ / ٦ .

نفسه أمام محاسبة أولية قبل محاسبة الله يوم القيامة ، وهذا الدافع الذاتي نراه يتجلى في رسالته لأحد ولاته الذين سرقوا بيت المال إذ يخاطبه في إحدى رسائله :

«أيُّها المعدود كان عندنا من أولي الألباب ،كيف تسيغ شراباً وطعاماً ؟ وأنت تعلم أنَّك تأكل حراماً ، وتشرب حراماً ، وتبتاع الإماء ، وتنكح النساء من مال اليتامى ، والمساكين ، والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال وأحرز بهم هذه البلاد »[١].

إنَّ صاحب العقل والدراية كيف يتجرع شراباً ويضع طعاماً لا يكاد يسيغه وهو يعلم أنَّ أيامه معدودة وكيف به وهو يعلم أنه كان عندنا من أصحاب العقل والمشورة هذا هو حال عامل الإمام الذي راح يتمتع بالحياة من مأكلها ومشربها ونكاح نسائها على حساب اليتامى والمساكين والمجاهدين الذين اوصلوه إلى هذا المقام بحمايتهم لهذه البلاد .

إنَّه خطاب لكل إنسان عليه أن يرى ما يشرب وما يأكل وما يُباح له من أمور الحياة ويكون رقيباً على نفسه لكي لا يكون لغيره فيه حق وهو يسلبه منهم .

إنَّها إنسانية السماء ودعوة الأنبياء في التعايش والتآلف وحب الخير وعدم أخذ حق الغير، إنها نذر السماء : ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ* يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[٢] وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٣].

ومن ذلك نجد حرص الإمام (عليه السلام) على بناء منظومة تربوية متكاملة تتسم بأبعادها التربوية الطويلة الأمد ؛ لكونها مستمدة الخصائص من مصدر معرفي ثابت يستمد معرفته من خالق هذا الإنسان والعارف به ببعديه الداخلي المتمثل بالنفس والخارجي المتمثل بالمجتمع .

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد :١٦ / ١٦٧ .

[٢] سورة إبراهيم : ١٦ – ١٧ .

[٣] سورة النساء : ١٠ .

وخاتمة المطاف فالجدير بالمسلم أنْ لا ينخدع بمظاهر الغرب ، وليعلم أنَّ تراثه في عالم التربية وتكامل النفس غني وغنّي جداً ، ولا يحتاج أن يأخذ شيئاً من الغرب في التربية الاجتماعية والأخلاقية والمدنية ففي شريعة الإسلام يجد الإنسان الكمال الأخلاقي بأوسع معانيه الفلسفية السامية ، وأن يعلم أيضاً إن المسلم له مثال في التكامل البشري متمثلاً بالرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي ذكره عز وجل في محكم كتابه واصفاً له ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] ، وأمير المؤمنين (عليه السلام) ربيب هذا الخُلق ؛ فهل يحتاج المسلم إلى نظريات الغرب وفلسفتها ومناهجها التربوية ، وهل يحتاج إلى آراء ديوي ، وشورانديك وغيرهما في علم الاجتماع التربوي أو الفلسفة الاجتماعية التي تبحث في المجتمع المحسوس ولا تخرج إلى عالم الغيب .

[1] سورة القلم : ٤ .

البعد السياسي :

إنَّ الله سبحانه وتعالى شرَّف الإنسان بالخلافة على الأرض ؛ فكان متميزاً على كل عناصر الكون بأنه خليفة الله على الأرض ، وبهذه الخلافة استحق أن تسجد له الملائكة ، وتدين له بالطاعة كل قوى الكون المنظورة وغير المنظورة [١]، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٢] وقوله أيضاً : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [٣]

والخلافة التي تحدث عنها القرآن ليس استخلافاً لشخص آدم (عليه السلام) بل للجنس البشري كله ؛ لأنَّ من يفسد في الأرض ويسفك الدماء على وفق مخاوف الملائكة ليس آدم بالذات بل الإنسانية على امتدادها التاريخي ؛ فالخلافة أذن ، قد أعطيت للإنسانية على الأرض ، ولهذا خاطب القرآن الكريم المجتمع البشري في مراحل متعددة وذكرهم بان الله قد جعلهم خلائف في الأرض وكان آدم هو المثل الأول لها بوصفه الإنسان الأول الذي تسلم هذه الخلافة وحظي بهذا الشرف الرباني فسجدت له الملائكة ودانت له قوى الأرض[٤]، وبهذا «يحتل الإنسان موقع القطبية المتفردة في هذا الوجود على مستوى المعرفة ؛ وذلك لما خُصّ به من قدرة على الاستيعاب المعرفي للكائنات ، حيث إن وسائله المعرفية الإدراكية تهيؤه لنقل العالم الخارجي في صورته الكمية والكيفية إلى عالمه الداخلي »[٥].

وكما تحدث القرآن الكريم عن عملية الاستخلاف من جانب الله تعالى ، تحدث عن تحمل الإنسان لأعباء الخلافة بوصفها أمانة عظيمة ينوء الكون كله بحملها ، قال الله

---

[١] ينظر : الإسلام يقود الحياة : ١٣٢.

[٢] سورة البقرة : ٣٠ .

[٣] سورة فاطر : ٣٩ .

[٤] ينظر: الإسلام يقود الحياة :١٣٢.

[٥] نظرية المعرفة في القرآن وتضميناتها التربوية : ١٦٩ .

سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [١] ، وبهذا يكون هذا الكائن الصغير حاملاً في ذاته لهذا العالم الكبير، إذ يكون قد حصل على القيومية والإشراف على سائر الكائنات ، والسير بالبشرية في طريق الخلافة الربانية .

أتزعمُ أنَّكَ جرمٌ صغيرٌ وفيكَ انطوى العالمُ الأكبرُ [٢]

إنَّ نظرية المعرفة على وفق سياقها القرآني تعتقد أنَّ للإمام دورا قبل هذا الدور ، وأن دورها المتمثل بالبعد السياسي وقيادة الأمة تتفرع ممارسته عن ذلك الدور الأساسي الذي أعطي للإمام في النظرية القرآنية ، أي أنه يعطي للإمامة بعداً أساسياً ثم يرتب عليه قيادة الأمة وسياستها ، إذ صحت الاستعارة فان الإمامة بحسب الدور التكويني تؤلف الشجرة الطيبة بحسب التعبير القرآني ، والبعد السياسي يؤلف ثمرة هذه الشجرة ولكن عندما ترجع إلى الكتب الموجودة بين أيدينا بالأخص كتب الكلام تجد وكأن الدور الوحيد الذي يقوم به الإمام هو الدور السياسي فقط [٣] .

إنَّ «منطلق البعد السياسي ، هو إيماننا بأنَّ الإسلام خاتم الأديان ، وإذا كان كذلك فلابد لهذا الدين أن يكون قادراً على إدارة الحياة حتى قيام الساعة ، على هذا الأساس عندما نرجع إلى مدة حياة النبي نجد أنها لم تكن قادرة على الاستجابة لكل المستجدات إلى قيام الساعة ، لا بحسب البيانات التي صدرت منه (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الأمة بعامة ، ولا بحسب الواقع والتجسيد العملي الذي عاشه الرسول الأعظم » [٤]

إن البعد السياسي في الإمامة يأتي تالياً للبعد التكويني ، الذي خصها الله سبحانه وتعالى للأئمة الأطهار من آل الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) ، ودورهم الذي

---

[١] سورة الأحزاب : ٧٢

[٢] الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : ٦٧ .

[٣] ينظر : بحث حول الإمامة حوار مع سيد كمال الحيدري : ٢٥-٢٦.

[٤] م . ن : ٤٩-٥٠.

جاء مكملاً لدور الرسول العظيم في السير بالبشرية إلى التكامل المعرفي على وفق ما رسمته السنن الإلهية وتسخير الطاقات البشرية والمادية في هذه الحياة .

إنَّ النظام السياسي في الإسلام «يقوم على أساس نظرة الإسلام وفكرته الكبرى عن الكون والإنسان والحياة ، وإنَّ لها خالقاً خلقها ونسقها ونظمها ، فأبدع خلقها ونظامها ، وعن هذه النظرة الكلية تنبثق قواعد السياسية في الإسلام ، وخطوطها العريضة ، وفرعياتها المختلفة ؛ مما يشكل نظاماً سياسياً متكاملاً مختلفاً عن الأنظمة السياسية الأخرى في فكرته وأساسه وعناصره في أمور جوهرية كثيرة »[١] .

ومن خلال أدب الرسائل نحاول نذكر شيئاً من هذا النظام الفكري العريق على وفق ما صرحت به أو أشارت إليه تلك الرسائل .

إن معطيات الرسائل بين الإمام (عليه السلام) وخصومه تظهر أسباب انتفاضة الجماهير ضد الخليفة الثالث ، والأخطاء الكبيرة التي وقع فيها وتقويض شمل الأمة ؛ وإبعادها عن مبادئ الإسلام ، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في رسالة جوابيه لمعاوية بن أبي سفيان :

«وأما ما ذكرت من أمر عثمان ، وقطعيتي رحمه ، وتأليبي عليه فان عثمان عمل ما قد بلغك ، فصنع الناس به ما رأيت »[٢]

فخطاب الإمام (عليه السلام) يظهر مدى معرفة الإمام بالتغيير الذي أحدثه عثمان في أمور المسلمين وقضاياهم ، إذ لم يعرف أي مظهر من مظاهر الصراع السياسي أو خلاف على الإمامة سواء في عهد أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) أو في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بسبب ما كانا يسيران عليه من سيرة جعل المسلمين يكنّون خلافهم في النفوس ، أما عندما ولي الخلافة عثمان بن عفان فقد تغير الوضع فتكونت المعارضة ، وظهر الصراع السياسي على أشده ، وراح بعض المسلمين يسيرون في ركاب المعارضة ، ويعبّر كل منهم عن استيائه من سياسية الخليفة وبدعه التي استحدثها ، ولاسيما تقريب أهله وعطائهم ؛ بل أنَّه قرب

---

[١] النظام السياسي في الإسلام ، النظرية السياسية نظام الحكم :٢٧.

[٢] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٧٨ .

من ذويه حتى أولئك الذين كان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمون لا يرضون عنهم لما كان يصدر عنهم من تصرفات مخزية ، أمثال الحكم بن أبي العاص[١]، عم عثمان الذي كان يؤذي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله وفعله ، حتى أخرجه الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) من المدينة ، وقال : «لا يساكنني فيها أبداً »[٢] ، وولى الحارث بن الحكم سوق المدينة ؛ فأسرف على الناس وعلى نفسه ، وسار سيرة لا تلائم الأمانة ولا التورع ، وإنما تلائم الجشع والطمع وحب الاستكثار من المال ، ثم اختص عثمان بمروان بن الحكم فأعطاه وأحباه واتخذه لنفسه وزيرا ومشيرا ، ومن صنيعه معهم أيضاً أنه عند فتح أفريقية منح مروان خُمس فيئها ، كل هذه الأمور نقمها الناقمون من عثمان في أمر دينه ، كما نقموا عليه أن عزل ولاة عمر عن الأمصار وولاها ذوى قرباه ومن بينهم صلة [٣] وهذا فضلاً عن فتحه بيت المال لبني أمية وأيذائه بعض الصحابة ومنهم عبد الله بن مسعود ، وعمار بن ياسر ، وأبو ذر الغفاري الذي نفاه إلى الربذة ومنعه من البقاء في المدينة أو الذهاب إلى مكة ؛ لأنه انتقد تصرفاته [٤] لذا اشتدت المعارضة على عثمان وحضر الناقمون إلى المدينة وحاصروه.

لقد «كانت هناك فروق حقوقية جاهلية نسفها الإسلام ولكن عهد عثمان أعادها ، فقريش ذات الماضي العريق في السيادة على القبائل العربية عادت في زمن عثمان

---

[١] الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، عم عثمان بن عفان ، وهو طريد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، نفاه من المدينة الى الطائف ، قد أختلف في السبب الموجب لنفي رسول الله (صلى الله عليه وآله) إياه ، فقيل : كان يتسمع سر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويطلع عليه من باب بيته ، وقيل : كان يحكى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في مشيته وبعض حركاته وقد لعنه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في أحاديث كثيرة ، ينظر أسد الغابة في معرفة الصحابة : ٢ /٤٨ .

[٢] سفينة النجاة : ٢٦٩ .

[٣] ينظر : الكامل في التاريخ : ٣ / ٢٥٤ ، وتاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي :١٨٤_ ١٨٥.

[٤] ينظر : الإسلام السياسي :٢٣.

فأتلَعت جيدها وأعادت تلك الفروق ، فغدا أُناس ليس لهم ماض مشرّف بالنسبة إلى الإسلام ونبيه يتعالون على أعظم المسلمين جهادا وسابقة وبلاء ، لمجرد أنهم قرشيون»[١]

إن نظرية المعرفة على وفق المنظور الإسلامي التي أعدَّت الوحي والسيرة النبوية من مصادر المعرفة الأساس التي يسير عليها خليفة المسلمين لكن عثمان بن عفان بوصفه خليفة للمسلمين تجاوز سلطة المعرفة من منظورها الإسلامي الذي نادى بها الإسلام خلال العقود السابقة في تطبيع تشريعها الإلهي ، لأنَّ «التشريع ما لم يصل إلى مجال التطبيق في عالم الحياة ، والواقع المعاش لا يمكنه أن يؤتى ثماره او يحقق أهدافه ، ومن ثم احتاج هذا التشريع إلى تطبيق بحيث يعيش بين الناس سلوكا صالحا ويثمر في ربوع المجتمع عدلاً ورفاهية »[٢]ومن خلال منطلق المعرفة في العدل الذي هو ثاني أصول المعرفة الإسلامية ، كان لابد أن يظهر أثر هذا التشريع المعرفي في سياسة الحكومة التي تحكم الأمة الإسلامية ، وهذا لم يجده أبناء الأمة في بقاء معمورتها ، بعد أن التمسته في حياة الرسول الكريم (صلى الله عليه آله وسلم) ، وجزء منه في عهد الخليفة الأول والثاني ؛ مما أدى إلى انتفاضة الجماهير ومطالبة الخليفة أما بالتنحي أو بتغيير في سلوك سياسته في الأمة وهذا ما لم يحدث ، مما أدى إلى قتل الخليفة .

ويظهر النص أيضاً سياسة الإمام (عليه السلام) في التعامل مع عثمان ؛ لكونه خالف تعاليم التشريع الإسلامي بعد إن عجز الإمام (عليه السلام) من تغيّر في سلوك الخليفة عثمان لمرات عديدة ، فقد كان عثمان أقل كفاءة من بين الخلفاء في تدبير سياسة المسلمين واقلهم أهلية لتولي أمر المسلمين بلا خلاف بين المسلمين وربما باعتراف الأمويين إذا كان عبد الملك بن مروان يسميه الخليفة المستضعف [٣].

---

[١] دراسات في نهج البلاغة :٢٩١.

[٢] مبحث ولاية الفقيه :٣٨.

[٣] ينظر : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام : ٥ / ٣٢٥ ، ونظرية الإمامة لدى الشيعة الإثنى عشرية : ٢٩٩

وقد بين الإمام في رسالة أخرى لمعاوية ، حجم الخطأ الذي ارتكبه عثمان ، في ابتعاده عن معارف ومبادئ الإسلام ، والدور الأموي في ذلك ، إذ يقول في كتابه :

«وقد أسهبت في ذكر عثمان ، ولعمري ما قتله غيرك ، ولا خذله سواك ، وقد تربصت به الدوائر ، وتمنيت له الأمانيَّ ، طعماً فيما ظهر منك ، ودل عليه فعلك ، واني لأرجو أن أُلحقك به على أعظم من ذنبه ، وأكبر من خطيئته »[١]

ويظهر الإمام (عليه السلام) في خطابه السياسي مدى الدور التآمري الذي أداه معاوية في إسقاط خلافة عثمان ، الذي بدوره مهد استلام الأمويون الحكم فقد كان بسب سوء إدارة السلطة من قبل عثمان من جانب ، وابتعاده عن معارف الإسلام من جانب آخر ، التي طالما أكد عليها قائد الأمة ورائدها الرسول محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) الذي تكفل بدوره قيادة زمام تطبيق شريعة الإسلام ، متبيناً أحكامها في بناء الدولة الإسلامية التي تحيا بمبادئ العدل والمساواة [٢].

نعم إنَّ الخطأ والذنب الكبير الذي ارتكبه الخليفة عثمان كان ناتجا عن ابتعاده الكبير عن مصادر الشريعة الإسلامية ؛ لانَّ «التجمعات البشرية التي تتمثل بالمجتمع الصغير أو المجتمع الكبير العالمي ، إذ أرادت أن تجعل لنفسها كيانا ما يحكم في الأرض أو يحكم نفسه ، لابد وأن يكون من منطق توحيدي قائم على أساس أنَّ الإنسان خليفة الله في الأرض ، وأنْ يعمل على تطبيق الأوامر الإلهية ، وعليه يكون الخضوع لأي كيان كان ، إنما يكون إذا أحرزت فيه خلافة الله تعالى »[٣]

ويظهر أسلوب الإمام (عليه السلام) مدى إدراكه للخطر الذي يداهم الأمة الإسلامية من قبل الأمويين فكان رجاؤه أن يلحق معاوية نفس مصير عثمان الذي كان السبب والممهد لاستلام الأمويين السلطة ؛ «فالأسرة الأموية تسلقت مدارج الحكم على أكتاف المسلمين بواسطة عثمان »[٤] ومدى فداحة هذا الذنب الكبير «فقد تعاونوا

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٨٤ .

[٢] ينظر مبحث ولاية الفقيه :٣٨.

[٣] معالم النظام السياسي :١٠٠.

[٤] لمحات من الصراع السياسي في الإسلام العهد الأموي :٢٥.

ـ أباً عن جد عدا عمر بن عبد العزيز ـ على فصم عرى الإسلام عروة فعروه ، ولم يسلم جانب من جوانب الدين من التعرض لاعتداءاتهم المتكررة كما آنسوا في ذلك الاعتداء تركيزاً لأسس حكمهم الجاهلي البغيض ، فلا يمكن أن يجمع المرء على ما رأى بين الأمويين والإسلام »[١].

وفي ضوء المعرفة الإسلامية فإنَّ للشعب دوراً حيوياً ومصيرياً في إقامة نظام سياسي ، من خلال المقبولية التي يلتمسها الخليفة من الأمة ، عن طريق البيعة أو الانتخاب في تفعيل دوره في إدارة النظام وحفظه .

إنَّ هذه المقبولية لخلافة أمير المؤمنين (عليه السلام) تظهر في نصوص رسائله لخصومه ، إذ يقول (عليه السلام) في أحدى رسائله إلى طلحة والزبير :

«أما بعد : فقد علمتما – وإنْ كتمتا – أني لم أُرد الناس حتى أرادوني ولم أبايعهم حتى يبايعوني ، وإنكما لممن أرداني وبايعني ، وأنَّ العامة لم تبايعني لسلطان غالب ، ولا لعرض حاضر »[٢]

فثورة العامة كانت تنظر للإمام (عليه السلام) بأنه رجلها الوحيد وخليفتها الشرعي دون منازع ، يقول العقاد «ولكنها الثورة الاجتماعية تنشد رجُلها دون غيره ، ولا محيص عنه ، فإن ترددت أياما فذلك هو التردد الذي يرد على الخاطر لا محالة ، قبل التوافق على رأي جازم ، ثم لا معْدل للثورة عن الرجل الذي تتجه إليه وحده على الرغم منها ... فإذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم ووفاق رجائهم فما هم بواجديه في غير علي بن أبي طالب وقد قال بحق : إن العامة لم تبايعني لسلطان غالب ولا لعرض حاضر»[٣]

ويؤكد الإمام (عليه السلام) من اجتماع الناس لبيعته وقناعتهم التامة في اختياره في رسالته إلى معاوية وقد جاء فيها :

---

[١] الصراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام : ٢٧/١.

[٢] الإمامة والسياسة : ١ / ٩٠ .

[٣] عبقرية الإمام علي : ٥٢ .

«أما بعد : فان الناس قتلوا عثمان عن غير مشورة مني ، وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع »[١].

فالإمام (عليه السلام) يظهر أنَّ عملية وصوله للخلافة لم تكن سارت بشكل تقليدي روتيني كالخلفاء الذين سبقوه ، «إذ إن الإمام (عليه السلام) قد بويع بالخلافة بعد ثورة جماهيرية واسعة قادتها قطاعات واسعة من المسلمين آنذاك بعد أن مارست دور المعارضة ردحاً من الزمن ، ولقد انتشرت هذه الثورة وعمليات التمرد على الولاة في معظم الأمصار والولايات الرئيسة وكانت هذه الثورة حصيلة مجموعة من الممارسات الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية _ غير صائبة – التي مارسها الخليفة الثالث عثمان بن عفان وبعض ولاته »[٢] .

إنَّ اجتماع الناس لبيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) حاول معاوية شق صفه ، وتفرقة جمعه من خلال تمرده على الخلافة ، وتحريض الناس ضد الخليفة الشرعي ، وعلى الرغم من هذا كله يتلبس معاوية زيّ لَمْ شمل الأمة ، والحفاظ على كيانها وجمعها ، إذ يقول في رسالته إلى أمير المؤمنين (عليه السلام):

« وإني أحذِّركَ الله أن تُحبطَ عملك وسابقتك بشقِّ عصا هذه الأمة ، وتفريق جماعتها »[٣] .

إنَّ هذا الأسلوب الملتوي والقبيح والمتنكر لأعمال الذات ، الناتج عن تناقض فكري، وازدواجية في الفهم ، وتسفيه للحق ، وتناقض للقول كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [٤] ، بل هو : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[٥] ، وفي هذا الشأن روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنَّه قال : « إنَّ

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١ / ٢٣٠ .

[٢] التنظيم الاجتماعي في الفكر الإسلامي ، فكر الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنموذجا ، دراسة تحليلية :٦٦ .

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد :١٤/ ٤٢ .

[٤] سورة الشعراء : ٢٢٦ ،

[٥] سورة الكهف : ٥ .

من أعظم الناسِ حسرةً يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره »[1]؛ فيجيب الإمام (عليه السلام) عن هذا التناقض وينهاه عن شق عصا الأمة إذ يقول في رسالته له :

«أما شق عصا هذه الأمة ، فانا أحق أن أنهاك عنه »[2]

فأحقية الإمام (عليه السلام) تأتي كونه الخليفة الشرعي للأمة ، بعد بيعته من قبل المهاجرين والأنصار ، فضلاً عن استمداده إمامته وشرعيتها من مصدر التشريع الإسلامي القرآن الكريم والسنة النبوية ، وتواتر الروايات في ذلك .

إنَّ حقيقة ما حصل ويحصل بالمسلمين من مصائب وتخلف في مستويات الحياة كلها وما أوقعوا فيه أنفسهم من قبضة المستعمر البغيض يعود لتفرق كلمتهم وتبعثر جهودهم وتمزق وحدتهم ، ولعل لمحة سريعة لما يجري في بقاع الإسلام المختلفة يوضح لنا هذه الصورة الأليمة ، والمأساة الكبيرة ، والمشاهد التي تدمع العين ، وتدمي القلب ؛ لنتائج هذا التمزق والتبعثر والتفرق ، الذي كان أحد أسبابه قديماً وحديثاً هو الخروج عن شرعية الخلافة .

والمعرفة السياسية تؤكد أنَّ الولاة «هم رجال الإدارة وأيدي الحاكم التي تمتد في أطراف بلاده ، والأداة التي يستعين بها على تنفيذ أمره ، وإمضاء ما يريد إمضاءه من شؤون ، وهم المرآة التي ينظر بها الرعية إليه ، وأعمالهم تنسب إليه وتحمل عليه ، ويناله خيرها وشرّها ، والوجدان الطبقي لهذه الطبقة ينزع بها نحو التسلط الناشئ من تطورات القوة والهيبة والنفوذ ، ويصبح هذا الوجدان خطراً وبيلاً اذ عبر عن نفسه في غير وضعه ، وجرى في غير اقنيته »[3]

وفي ضوء تلك المعرفة في بعدها السياسي كان لابد الحذر من عشاق السلطة ؛ لأن الإسلام احتاط اشد ما يكون الاحتياط في مناصب الدولة ، فلم يسمح لولي أمر المسلمين أن يمنح الولاية لمن طلبها وتهالك عليها ، وقد منع الإمام أمير المؤمنين (

---

[1] الكافي : ٢ / ٦٢٠ .

[2] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٤ / ٤٣ .

[3] دراسات في نهج البلاغة :٩٣.

عليه السلام) طلحة والزبير عن الولاية حينما أصرا عليها ؛ لأنهما لم يكونا مدفوعين برعاية الصالح العام ، وإنما رغبا في الولاية . ليتخذا منها وسيلة للثراء العريض ، والتحكم على رقاب المسلمين[١] .

إنَّ مصدر المعرفة الإسلامي الغيبي المتمثل بالسنة النبوية ، يحذر من توظيف العاشقين للسلطة والمتهالكين على المنصب «فقد روي أنَّ رجلاً قال : يا رسول الله استعملني ، فرده النبي وقال : إنَّا لا نستعمل على عملنا من أراده » [٢]

وكان معاوية شديد الحرص على السلطة والتهالك فيها إذ يقول في رسالته إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) :

«وقد كنت سألتك الشام على أنْ لا تلزمني لك بيعة وطاعة فأبيت ذلك علي فأعطاني الله ما منعت ، وأنا أدعوك اليوم ما دعوتك أمس »[٣]

والنص يظهر إلحاح معاوية وتهالكه في السلطة ، وفي نفس الوقت يظهر امتناع الإمام (عليه السلام) على عدم استعمال السلطة لمن أرداها ؛ لأنَّ ولاية الناس أمانة و«السر في ذلك أن الولايات قوله تعالى : أمانات ، وتصريف في الأرواح والخلائق وأموالهم ، والتسرع الى الأمانة ، دليل على الخيانة ، وأنَّه لا يخطبها إلا من يريد أكلها ... وإذ ائتمن خائن على موضع الأمانات كان كمن استرعى الذئب على الغنم ، ومن هذه الخصلة تفسد قلوب الرعايا على ملوكها ؛ لأنه إذ اهتضمت حقوقهم وأكلت أموالهم فسدت نياتهم ، وأطلقوا ألسنتهم بالدعاء والتشكي ، وذكروا سائر الملوك بالعدل والإحسان »[٤] فكانوا كالبيت السائر :

---

[١] ينظر : موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب :٤/ ١٢٩.

[٢] صحيح مسلم :٢/٧٨٩.

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ١٢٣ .

[٤] موسوعة الإمام علي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب :٤/ ١٢٨-١٢٩ ، وحقيقة الإسلام وأصول الحكم :٧٠.

بالمِلحِ يصلح ما يخشى تغيُّره فكيف بالملحِ إن حلَّت به الغيرُ [١]

الإمارة وسيلة من وسائل إصلاح الأمة ولا يجوز أن تُمنح إلا للمتقين المتحرجين في دينهم الذين لا يخضعون للرغبات والأهواء ، ويجب أن تستغل جهودهم لتحقيق ما ينفع الناس ، فلا يجوز أن تمنح إثرة أو محاباة ، ويظهر الإمام (عليه السلام) هذا الإجراء في رسالته إلى معاوية :

«فأما سؤالك المتاركةَ والإقرار فقد عزل من كان ولَّاه صاحبه ، وعزل عثمان من كان عمر ولَّاه ، ولم يُنصب للناس إمامٌ إلا ليرى من صلاح الأمة ما قد ظهر لمن قبله أو أُخفي عنهم عيبه ، والأمر يحدث بعده الأمر ، ولكل والٍ رأي واجتهاد »[٢].

فرأي الإمام (عليه السلام) واجتهاده في الولاة يعبِّر عنه الكاتب جورج جرداق فيقول : «أما الولاة فلن يكون شأنهم مع الولاية غير شان الخلفاء مع الخلافة ، فهو يختارهم لا عن هوى ولا عن ميل شخصي ، ولا لنشوئهم في بيئة الشرفاء والارستقراطيين ، ولا لما يتحصّنون به من المجد التليد والثورة الطارفة أو السبق إلى الإسلام ، وإنما يختارهم بعد أن يختبرهم في قلوب الناس ويعرف أنَّهم جُبلوا ليَخدموا لا ليُخدَموا ، وأنهم ينظرون إلى جهود العامة ، نظرتهم إلى الأمر المقدس الذي لا يُمس ، وأنهم لا يرتشون ولا ينهبون ولا يفجرون ولا هم بالظالمين ولا بأعوان الظالمين »[٣] ، أي يجب أنْ يكون من الكفاءة والأمانة ، لذا يقول أمير المؤمنين في رسالته لقاضيه رفاعة بن شداد البجلي[٤]:

---

[١] ذكره محمد بن الوليد الطرطوشي (٥٢٠ هـ) في كتابه سراج الملوك ، : ١٠٤ ، ومحمد بن أحمد الأبشيهي (٨٥٢ هـ) في المستطرف في كل فن مستظرف : ٧٢ ، ولم ينسباه لأحد .

[٢] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٥٤ .

[٣] الإمام على صوت العدالة : ٢/ ٤٨٧.

[٤] رفاعة بن شداد الفتياني البجلي ، يكنى بأبي العاصم ، وفتيان بطن من بطون بجيلة اليمانية ، اتصف رفاعة بالشجاعة والإقدام ، شهد مع لإمام (عليه السلام) معركتي الجمل وصفين ، وكان قاضياً على الأهواز ، انحاز إلى المختار وقاتل معه حتى قتل سنة ٦٧ هـ . للتفاصيل ينظر : الأعلام ٣ / ٢٩ .

«اعلم ـ يا رفاعة ـ إنَّ هذه الإمارة أمانة ، فمن جعلها خيانة فعليه لعنة الله يوم القيامة ، ومن استعمل خائناً فإن محمداً(صلى الله عليه وآله وسلم) بريءٌ منه في الدنيا والآخرة »[١] .

فولاية شؤون المسلمين ، شأن صعب ، وعلى الإنسان أن لا يلجم نفسه بلجام الحسرة والندامة ، ويكون من الاشقياء يوم لا ينفع مال ولا سلطة ، يوم يكون الحساب شديد ، إن لم يكن أهلا لتلك المسؤولية أو مادام هناك أولى منه بها ، وكما جاء في الحديث الشريف عن أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) قال : « قلْت : يَا رسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعملُنِي ؟ قالَ : فَضربَ بِيدهِ عَلَى منْكِبي ، ثُمَّ قَالَ : يا أبا ذر ، إنّك ضعيف ، وإنّها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلَّا من أخذها بحقّها ، أدَّى الذي عليه فيها »[٢].

ومن هذا البيان يجدر بنا الالتفاف إلى أنَّ المناصب هي ليست امتياز دنيوي وإظهار التسلط الغريزي على الغير وحب تملك مصير الناس والتأمر عليهم ؛ بل السياسية في نظر العقل والدين والشريعة هي نوع من الهداية للمجتمع وإيصال الحق إلى كل ذي حق على المستوى المادي او المعنوي ؛ ومن ثم هي لطف إلهي بمقام الهداية الاجتماعية كالعقل والعين كما هما لطف إلهي في مقام الهداية الفردية ، ومن هذا المنطلق كان المنصب السياسي وسياسية الناس بنظر الشريعة مقاما إلهياً لا يستحقه كل من هب ودب أمكنه أن يضرب على رؤوس الناس ، بل مقام من كان يمثل خلافة الله في أرضه مهديا في نفسه قادراً على هداية غيره [٣]، ولهذا يقول أمير المؤمنين في رسالة للأشعث بن قيس :

«وإنَّ عملك ليس لك بطُعمة ، ولكنَّهُ في عُنقِكَ أمانةٌ ، وأنت مُسترعىً لمنْ فوقَكَ ،

---

[١] دعائم الإسلام : ٢ / ٥٣١ .

[٢] صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، حديث ٣٥١٢ .

[٣] ينظر : معالم النظام السياسي :٩٢.

ليس لك أنْ تفتاتَ[١] في رعيَّة ، ولا تُخاطرَ إلا بوَثيقةٍ »[٢]

فالسلطة من وجهة نظر الإسلام أمانة وإنَّ أي تجاوز للحقوق من قبل الحاكم يعد خيانة للأمة .

لذا فان الإمام (عليه السلام) يشير إلى السمة الواجب توفرها في الوالي هي سمة الأمانة ، كما أنه يوجب على الحاكم ضرورة عدم استعماله الخونة وتكليفهم بأعمال ؛ لأنَّ ذلك بمثابة الخيانة للنبي محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو صاحب الدعوة ، وإن كان غائباً عن مسرح الحياة ؛ إلا أنَّه يعيش برسالته [٣] ؛ ولكون الإسلام الذي جاء به الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن مجرد عقائد دينية فردية ، إنما استوجب إقامة مجتمع مستقل له أسلوبه المعين في الحكم وله قوانينه وأنظمته ، إذ يقول الأستاذ هاملتون جب في هذا الشأن : « إنَّ الإسلام ليس ديناً بالمعنى المجرد الخالص الذي نفهمه اليوم من هذه الكلمة ، بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال ، يقوم على أساس ديني ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية » [٤] .

فالإسلام لم يأت بالعقيدة الدينية الصحيحة وحدها ولا بالنظام الأخلاقي المثالي الذي يقوم عليه المجتمع فحسب ، بل جاء بالشريعة المحكمة العادلة التي تحكم الإنسان ، ومعاملاته في نفسه ومع الآخر ، لذلك هو دعوة عالمية [٥] ، في كل مجالات الحياة ومنها السياسية .

وفي النص أيضاً إشارة إلى أن الوالي يجب عليه العمل على وفق الموازين الإلهيّة وما ورد في تعاليم الإسلام ، ولا يتصرف كما يحلو له ويتعامل مع الرعية كما يتعامل السيد مع عبيده ، فذلك مدعاة لنقض الأمانة في استخلاف الرعية ، ومن ثم يشير إلى

---

[١] تفتات : أي تستبعد ، وهو افتعال من الفوت كأنه يفوت آمره فيسبقه إلى الفعل قبل أن يأمره ، ينظر : نهج البلاغة شرح محمد عبده : ٣ / ٣٤٤ .

[٢] نهج البلاغة شرح محمد عبده : ٣ / ٣٤٣ .

[٣] ينظر : الخطاب في نهج البلاغة . بنيته وأنماطه ومستوياته دراسة تحليلية :١٤٥ .

[٤] نقلاً عن التكامل في الإسلام : ٢ / ٢٨٤ .

[٥] ينظر :الفلسفة الإسلامية : هامش :٧٥ .

أن الوالي لا ينبغي في الأعمال المهمة والخطيرة أن يتسرع ويتقدم عليها من دون اطمئنان من النتائج والاستشارات ، لأنَّ مصير المجتمع يستلزم التأمل والدقة والمشورة، ودراية في فهم مبادئ الإسلام وروحه ، وإذا لزم الأمر يجب الاستئذان من القائد الأعلى.

لذا فان نظرية المعرفة بمنظورها الإسلامي ، تحرج كثيراً من الخبراء الذين يرون أن السياسية فن وتكتيك، لا علم ؛ لأن إدارة الإنسان حاكمة عليها أكثر من أي حقل آخر من العلوم الإنسانية ، ومن ثمَّ يجب تعلم السياسية في ساحة العمل ، فالإنسان يتعرف إليها بالتعليم العملي ، وفي خضم الأزمات ومواجهة الأخطار والأحداث الشخصية ، فالذين يمسكون بزمام أمور الدولة ، والذين يعملون في العلاقات الخارجية، وفي النهاية أولئك الذين يعملون في الحقل السياسي لم يتعلموا في الغالب علم السياسية في الكلية أو المعهد ، بل تعلموا الفنون السياسية وتعاليمها من خلال التجربة، وفي ميدان العمل ، وقد حاز الواحد منهم لقب السياسي أو صانع القرار عن طريق تكرار الأخطاء وإصلاحها ومواجهة الأحداث ، وقد عُرِّفت السياسية في احد التعاريف إنها : (فن الحكم)[١] مع التفات المعرفين إلى أن هذه العبارة تعني أنها فن لا علم ، لوجوب أن يكون للعلم ضوابط وقواعد دقيقة وكاملة ومجربة [٢]

ورسائل الإمام (عليه السلام) المتبادلة مع معاوية تظهر لنا بعداً معرفياً في فهم الأمة من أن مبادئ الإسلام هي العليا ، وأنَّ التنازل عن تلك المبادئ ، نتيجته الخسران ؛ لكونه ينصب في مصالح الجاهلية ، حتى لو كان لبرهة من الزمن ؛ لذا كان أمير المؤمنين (عليه السلام) حريصاً على عدم التنازل لمعاوية في حكم الشام ، على الرغم من نصح بعضهم إبقائه لفترة وجيزة على الشام لحين أن استقرار الخلافة [٣] ، إذ يقول في رسالته الجوابية لمعاوية :

---

[١] جاء في معجم روبير (عام ١٩٦٢) : «السياسة فنّ حكم المجتمعات » ، مدخل إلى علم السياسة :٧ .

[٢] ينظر : التفسير السياسي للقرآن :٣٠.

[٣] ينظر : قطعة من كتاب الفتوح : ٢ / ٤٤٦ .

«وأما طلبك إليَّ الشام ، فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس»[١]

إنَّ إصرار الإمام (عليه السلام) على عدم تولي معاوية حكم الشام ، والتماسه للمؤامرات التي تحاك ضد هذه الأمة ، هو درس من دروس الإصرار للحفاظ على كرامة الأمة ووجودها وكيانها ، الذي طالما كان عنصر قوتها ، وسر وجودها ، ومصدر أشعاعها ، الذي بدأ يأفل لما يحاك ضدها من مؤامرات لتتنازل عن وجودها وكيانها .

هذه المؤامرات نجحت لانتزاع هذا الوجود ، وأصبحت الأمة كالكتلة الهامدة بعد أن كانت تقول لأقوى خلفائها : نقومك بسيوفنا إذ انحرفت عما نعرف من أحكام الله [٢] ، أي أنها تحولت من أمة تحمل رسالة سماوية ، إلى ملك يحمل هذه الرسالة بتجربة هرقلية وكسروية .

هذه الكوارث والويلات وما حل بالأمة إلى يومنا هذا وما يزال ؛ هو النتيجة الطبيعية لتنازل الأمة عن وجودها وكيانها وتفرقها وتبعثرها .

لقد أخذ معاوية بمبدأ أبيه إنما هو الملك وفي ذلك يقول العقاد «أراد معاوية الملك له ولبنيه .. وعرفوا ـ الناس ـ في زمانه فارقاً شاسعاً بين ولي الأمر الذي يتخذ الحكم خدمة للرعية وأمانة للخلق والخالق ، وشريعة لمرضاة الناس بالحق والإنصاف وبين الحكم الذي يحاط بالأبهة ، ويملي لصاحبه في البذخ والمتعة ، ويجعله قدوة لمن يقتدون به في السرف والمغالاة بصغائر الحياة ، وكان الرجل من النصحاء يدخل عليه كأنما يبكته فيسلم عليه بالملك ولا يسلم عليه بالخلافة »[٣].

وكان قد تتابع عليه في أيامه الأولى من يقول له «السلام عليك أيها الملك ... يقول نعم أنا أول الملوك» [٤]

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ١٢٣ .

[٢] نقصد به الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، ينظر : بحار الأنوار ٤٠: ٨٨٠- ١٨١.

[٣] معاوية بن أبي سفيان : ١٢٨.

[٤] م . ن :١٢٨.

إنَّ الكفاح بين أمير المؤمنين (عليه السلام) وبين معاوية لم يكن كفاحاً بين رجلين ، أو بين عقلين ، أو بين قبيلتين ؛ وإنما هي معركة بين الإسلام والجاهلية ، كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يحرص بشدة على أنْ تفهم الأمة إن واقع المعركة بينه وبين خصومه هو نفسه واقع المعركة بين رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وبين الجاهلية التي حاربته في بدر وفي أُحد وغيرها من المعارك[١]، إذ يقول لأصحابه في حربه عندما يرى رايات أهل الشام :

«والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما أسلموا ولكن استسلموا، وأسروا الكفر، فلما وجدوا أعواناً عليه أظهروه »[٢].

ومن الطبيعي أنْ يُمنى هذا الحرص بالفشل ، وبنكبة كبيرة لو أنَّه أقر معاوية وأقر مخلفات عثمان السياسية والمالية ؛ لأنَّ إقرار ذلك ولو لبرهة قصيرة سوف يرسخ في ذهن المسلمين بشكل عام أنّ القصة ليست قصة معركة رسالية ؛ وإنما قصة أهداف حكم انسجمت مع واقع هذه المخلّفات ، ونتيجة لذلك فسوف تخلق هذه المخلفات ذلك الشك ، الذي نما عند الأمة في أمير المؤمنين (عليه السلام) على الرغم من عدم وجود مبرر موضوعي لذلك ، وإنما كانت له مبررات ذاتية ، وقد استفحل هذا الشك بعدما استشهد فظلّت الأمة شاكة فيه ثم استسلمت وتحولت إلى كتلة هامدة بين يدي الإمام الحسن (عليه السلام) نتيجة لذلك الشك [٣].

إن أسلوب الإمام (عليه السلام) السياسي ، هو انعكاس لمبادئ الإسلام الذي جاء ليكافح كل لون من ألوان السياسة الخداعة ، ويعمل لخدمة البشرية ، وإسعادها ، ولو أبدى الإمام شيئاً من المرونة والتنازل فلا يعدو أن يكون إسلاماً بل حيلة ومكراً ، يقول مرتضى مطهري : « ولو شرع الإسلام مبدأ نفعياً على النحو الموقت لكسب

---

[١] ينظر : أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية :١٢٣.

[٢] شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد : ٤ / ٣١ .

[٣] ينظر : أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية : ١٢٣ .

بعض الناس والاستفادة منهم ، ثم بعد ذلك نقضه ، لما كان إسلاماً حقيقياً بمعنى الكلمة »[1].

ويظهر الخطاب المعرفي لأمير المؤمنين (عليه السلام) شروطا تلتمسها الشعوب في تنصيب حكامها ، للحفاظ على مصالحها ، وتيسير شؤونها ، والسير بها نحو جادّة الهداية ، إذ يقول في رسالة لمعاوية جاء فيها :

« متى كنتم يا معاوية ساسة الرعية ، وولاة أمر الأمة ، بغير قدم سابق ، ولا شرف باسق ، ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء »[2]

فالإمام علي (عليه السلام) يعري معاوية من صلاحيته لحكم المسلمين ؛ لكونه ذا سوابق تاريخية منحرفة ، متأصلة ومتجذرة في لزوم الضلالة والانحراف ، فالمتصدي للحكم يجب أن يكون ذا ماض مشرف متحرراً من النفاق والأهواء النفسية ، وعليه فلا ينبغي لنا أن ننخدع بالحكام ولاسيما الذين لهم سوابق تاريخية منحرفة ؛ لانَّ هذا النوع من الحكام سوف يجلب الويلات للناس في نهاية ، كما سيؤدي بالإسلام والمسلمين إلى الفناء والدمار ، وقد رأينا نحن كثيراً من هذه النماذج في الماضي ولا تزال موجودة منها في عصرنا الحاضر، فعلى الناس أن يكونوا على حذر من الرضوخ للذل والمسكنة والاستسلام لهؤلاء الحكام ، بل عليهم عصيانهم والتمرد عليهم ومواجهتهم وأخذ زمام الأمور منهم ، وهذا هو واجب كل الناس الذين يريدون الحياة بعز وشرف وكرامة ؛ لأنَّ الحكام المتجبرين لن يلبوا أبداً مطالب شعوبهم فعلى الناس أن ينتزعوها منهم انتزاعا[3]، وبهذا يشير الإمام إلى حقيقة أنَّ الحكومة بما فيها مسألة

---

(1) الإسلام ومتطلبات العصر : ٤٠ .

(2) نهج البلاغة : ٤٣١ .

(3) ينظر :المنهج السياسي عند الإمام علي : ٣٨-٣٩، وقد حذر الله تعالى من الركون إلى الظالمين إذ قال في محكم كتابه : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود : ١١٣] ، وقوله تعالى في خطورة مساعدة الظالم في ظلمه : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي

قيادة الأمة الإسلامية وزعامتها تستلزم الشروط والضوابط ومنها أن يكون الشخص ذا سابقة في الإسلام .

إنَّ فلسفة الحكم عند الإمام (عليه السلام) «تتلخص في أنَّ الحكم ، وهو ضرورة اجتماعيَّة ، أُقيم لصالح المجتمع ، ولا يمكن أن يعمل الحكم لصالح المجتمع إلاَّ إذا كان على رأسه إنسان كامل الصفات ، واع لمهمته ، أما حين يكون الحاكم إنساناً غير واع للمسؤولية ، وغير عامل على إصلاح المجتمع ورفع شأنه فأن الحكم ينقلب إلى وسيلة للظلم »[1].

ونجد بعداً آخر من أبعاد المعرفة في جانب البيعة والشورى وهو أنَّ الأشخاص غير المهيئين روحياً وسياسياً ، ويعيشون راسباً جاهلياً وينحدرون إلى الانحراف ، ولا يمثلون الدرجة الكاملة للانصهار مع الرسالة ، هذه الدرجة هي شرط أساسي لتزعّم هذه التجربة .

إنَّ قيادة التجربة يجب أن تكون على مستوى العصمة ، وهذا الواقع ليس من مختصات الشيعة ، بل هذا ما تؤمن به كل الاتجاهات العقائدية في العالم على الإطلاق «أي اتجاه عقائدي في العالم يريد أن يبني الإنسان من جديد في إطار عقيدته ، ويريد أن ينشىء للإنسان معالم جديدة فكريةً وروحيةً واجتماعيةً ، هذا الاتجاه العقائدي يشترط لأن ينتج ، وأن يتنجّز ، وأن يأخذ مجراه في خطّ التأريخ أن يكون القائد الذي يمارس تطبيق هذا الاتجاه معصوماً »[2] .

أي أنَّه «يشترط في القيادة التي تطبق الماركسية ـ بوصفها اتجاهاً عقائدياً يريد أن يصيغ الإنسان ويبلور في إطاره الخاص ــ أن يكون معصوماً ، إلا أن مقاييس العصمة تختلف ، في الاتجاه الماركسي ، يجب أن يكون القائد الذي يمارس تطبيقه

الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٤٠] .

[1] دراسات في نهج البلاغة : ١٧٤ .

[2] أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية : ١٧٠ .

معصوماً بمقاييس الماركسية ، والقائد الذي يمارس زعامة التجربة الإسلامية يجب أن يكون معصوماً بمقاييس إسلامية ، والعصمة في الحالتين بمفهوم واحد وهو عبارة عن الانفعال الكامل في الرسالة ، والتجسيد الكامل لكلّ معطياتها في النطاقات الروحية والفكرية والعلمية »[١].

ومن ذلك التقديم نفهم أنَّ هناك أشخاصاً ، لا يدخلون ضمن إطار قيادة المجتمع ومنهم ، الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ، ولا يدخلون في الشورى ؛ لكونهم لم يكونوا مؤمنين بمسيرة هذا الدين ، لذا كان أمير المؤمنين (عليه السلام) واضحاً في خطابه إلى معاوية في رسالته له إذ جاء فيها :

«وأعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون في الشُّورى »[٢].

لكونهم لم ينصهروا برسالة السماء ولم يتفاعلوا باتجاهاتها تفاعلاً كاملاً فكيف بهم وهم لا يؤمنون بالإسلام ؟ وقد تسربلوا بعباءة الجاهلية ، لأنَّ ظاهرهم مؤمن بالإسلام وباطنهم جاهلية الأولى ، فهؤلاء لا يجوز لهم تسنم السلطة ، ولا المشاركة في الحوار في بيان الخلافة .

ومن ذلك يظهر مقدار الخطأ الفادح الذي وقع فيه الخليفة عمر بن الخطاب ثم عثمان اللذان مكنا لمعاوية السيطرة على الشام ، وقد أدرك عمر متأخرا خطورة معاوية على الإسلام إذ يتجلى لنا بوضوح من خلال تصريحه بمجموعة الشورى حين طعن ، قال : «إياكم والفرقة بعدي فإن فعلتم فاعلموا أن معاوية بالشام ، فإذا وكلتم إلى رأيكم كيف يستبزها منكم »[٣].

نستنتج من هذا البعد المعرفي إنَّ الذين لا يؤمنون بمبادئ الإسلام والانصهار بروح الدين الحنيف ؛ ليس لهم الحق في قيادة المسلمين ولا حتى المشاركة في تكوين حكومتهم وبصورة أعم إن الذين لا يؤمنون بمبدأ وعقيدة ولا هم أصحاب الثورة والتغير لا يمكن في كل الأحوال مشاركة الآخرين في الأهداف السياسية والاجتماعية التي تريد

---

(١) أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية : ١٧٠

(٢) العقد الفريد : ٤ / ٣٣٢ .

(٣) الإصابة في تميز الصحابة : ٦ / ١٢٢ ، والسيف والسياسة : ١ / ٨٣ .

أن تنهض بواقعهم ومجتمعهم ، لا بالعكس قد يكونوا وبالا وسبباً إلى فشلهم وتقويض انتصارهم ، وهذا ما نلحظه في عصرنا هذا فإنّ كثيراً من الذين لا يؤمنون بمنهج الشورى والحرية والنهوض بالواقع الجديد يمجدون الدكتاتورية وهم أصحاب قرار سياسي في البلد مما ينتج عنه أضرار ومخالفات توجه البوصلة إلى الانحراف وانجرار الأمة إلى الفساد والتخلف .

ومن الأبعاد المعرفية التي تظهرها نصوص البيعة والشورى ، ومن خلال استقراء تلك النصوص يظهر أن من أولويات الخلافة في النظام الإسلامي هي الوصاية ، فإن تعذرت كانت الشورى للمهاجرين والأنصار، الذين هم أبناء التغيير والثورة من أجل نصرة الإسلام في ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ، أو بعبارة أخرى الذين يتحلّون بصفات المهاجرين والأنصار ، هذا البعد يظهره أمير المؤمنين في رسالته إلى معاوية:

«أنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر ، وعثمان على ما بايعوهم عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإن اجتمعوا على رجلٍ وسمَّوه إماماً كان ذلك لله رضاً ، وإن خرج عن أمرهم خارج ردّوه إلى ما خرج عنه ، فإن أبى قاتلوه على أتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولّاه الله ما تولّى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً »[1].

إنَّ الذين نصروا الإسلام وضحوا بما يملكون من أموال وأنفس من أجل إعلاء كلمة الإسلام بقيادة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هم أصحاب الحق في تولية من يولونه ويجدونه الأجدر في خلافة المسلمين ، ولا يحق لأي شخص مخالفة هذه الحكومة الشرعية ، ويجب على الجميع الامتثال والطاعة لتمكينها من تحكيم القانون وإعمال سلطتها في المجتمع وإظهار النصرة والتعاون معها لقيام الحكومة واستقرارها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[2].

---

[1] العقد الفريد : ٤ / ٣٣٢ .

[2] سورة النساء : ٥٩ .

وإنَّ كل شخص إذا أراد الخروج من دائرة هذه البيعة يجب إعادته إلى الطاعة فإن امتنع وقام وتمرد على الحكومة الشرعية فيجب على المسلمين التصدي له ومقاتلته ، وللأمة الحق في مراقبة الحكام وتقويمهم ، قال تعالى : ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] ، وقد صرح أمير المؤمنين (عليه السلام) بذلك في أول ساعات توليه السلطة «إنَّ هذا أمركم ليس لأ حد فيه حق إلا من أمرتم ، إلا أنه ليس لي أمر دونكم »[2] ، وهذا نفس ما قاله أبو بكر(رضي الله عنه) عندما تولى الخلافة : «فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني »[3] .

واللافت للانتباه أن الإمام (عليه السلام) لم يشر في هذا المورد إلى مسالة أحقيته بالخلافة في مورد مسألة الغدير ولا إلى وصية الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) للأمة في حقه ، على الرغم من الروايات الكثيرة الواردة في إمامته وولايته على المسلمين .

يرى البعض إن الإمام (عليه السلام) لم يشر إلى ذلك في هذا المورد ؛ لأن معاوية يستطيع إنكار كل النصوص الجليّة ، وأن هذا الاستدلال يتسم بالمنهج الجدليّ والاستفادة من مسلمات الطرف المقابل في دحض حجته ، فلا ينبغي استنباط أنَّ الإمام (عليه السلام) ترك مسألة الإمامة المنصوبة وذهب إلى أن الإمامة هي من اختيار الناس لا من شؤون الباري تعالى ، بل إنَّ الطريق الوحيد للاستدلال في مقابل معاوية لا يمكن بغير هذا المنهج الجدلي ، وكيف يمكن للإمام (عليه السلام) أن يستدل في هذه الرسالة على حقّانيته في مقابل معاوية بالنص ، وهذا هو الشيء الذي يخالفه معاوية من الأساس ، ولا بد من الاستفادة من دليل يعجز من إنكاره ، ويجد

---

(1) سورة آل عمران : ١٠٤ .

(2) تاريخ الطبري : ٤ / ١٥٣ ، الكامل في التاريخ : ٣ / ١١١.

(3) البداية والنهاية : ٥ / ٢٦٩ ، وكنز العمال : ٥ / ٦٠١

نفسه مضطرّا للتسليم أمامه ، وليس ذلك سوى مسألة الشورى ، أي شورى التي انتخب على أساسها الخلفاء السابقين الذين نصبوا معاوية في زمن خلافتهم على الشام [١].

أما الشارح المعتزلي فيقول : «اعلم أنَّ هذا الفصل دال بصريح العبارة على كون الاختيار طريقاً إلى الإمامة كما يذكره أصحابي المتكلمون ، فأما الإمامية فتحمل هذا الكتاب منه (عليه السلام) على التقيّة وتقول : (إنّه ما كان يمكنه أن يصرح لمعاوية في مكتوبه بباطن الحال ويقول له : أنا منصوص عليه من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ومعهود على المسلمين أنْ أكون خليفة فيهم بلا فاصلة ، فيكون في ذلك طعن على الأئمة المتقدمين ... »[٢].

ولابد أنْ نشير من خلال نظرية المعرفة على وفق منظورها الإسلامي ، التي أعدت مصدر المعرفة الغيبي من مصادر المعرفة الأولى للمسلمين ، ومن بيان ذلك لا يخفى على القارئ من خلال نصوص البيعة والشورى ؛ مدى التزام أمير المؤمنين في أظهار الحقيقة واتباع منهجها العلمي في توعية الناس وكشف الحقائق ، والابتعاد عمَّا يسمى بدور التقية ، في أخفاء الحقائق أو التورية فيها ، أو بما يسمى بالمنهج الجدلي لإقناع الخصوم ودحض الحجج في مقدمات خاطئة لا يؤمن بها الشيعة فكيف بالإمام (عليه السلام) .

إنَّ الناظر لذلك يرى مدى الجهد الذي بذله الإمام في بيان أحقيته في إمامة المسلمين في نصوص قد استعرضناها في مبحث النبوة في الفصل الأول ، وهذا وإنْ دل ، يدل على أنَّ الإمام علي (عليه السلام) أظهر لمعاوية وللأمة أن الإمامة اختيار منصوص من الله سبحانه وتعالى ، على وفق أسس وقواعد ذكرناها في بحثنا في الفصل الأول ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر وبما أنه يعلم أنَّ الجماهير الإسلامية قد خالفت تعاليم الرسول العظيم في أول لحظات عروجه إلى السماء لا بل في لحظات احتضاره ، فكان الإمام يرى من العبث الاستمرار على وفق هذا المنهج

---

[١] ينظر : نفحات الولاية ، شرح نهج البلاغة : ٩ / ٦٧ – ٧١ ، ويذهب أيضاً إلى هذا الرأي كمال الدين ميثم بن علي البحراني(٦٧٩ هـ) في شرحه نهج البلاغة : ٤ / ٧٨٧ .

[٢] شرح بن أبي الحديد : ١٤ / ٣٦ – ٣٧ .

في أثبات ولاية أمر المسلمين من خلال النص بعد أن أكمل الحجة ، وذكّر الأمة مراراً.

لقد سار الإمام (عليه السلام) على وفق منهج مُكمِّل للإمامة لكون الخلافة السياسية هي جزء مكمل للإمامة ، أي أنَّ الإمامة هي الجزء الأكبر أو ما يسمى بقضية كلية ، وأنَّ الخلافة هي قضية جزئية ، وهذا الجزء المكمل للإمامة لا يكتمل إلا بدور الجماهير؛ لأنَّ للشعب في النظام الإسلامي دوراً حيوياً ومصيرياً ، بحيث يمتنع إقامة هذا النظام بدونه ، ولا يجوز للحاكم الشرعي ــ ولو كان نبياً أو إماماً ــ أن يفرض نفسه بالقوة على الناس ، بل لابدّ للناس أن يبايعوه ، ولكن ينبغي التأكيد على أنَّ انتخاب الناس أو مبايعتهم له لا يضفي عليه المشروعية ، بل المبايعة تعني تمكين الحاكم الشرعي من حاكميته وتفعيل دوره ؛ لانَّ الناس كما بينا في الفصل الأول لا تمتلك المشروعيّة دون الخالق سبحانه وتعالى حتى تعطيها للغير ، وكم من حاكم شرعي لا مقبوليّة له ، وحاكم مقبول من الناس لا مشروعيّة له [١].

فينبغي التفريق هنا «بين المقامين ، مقام المشروعية ومقام المقبوليّة ، وهذا كاشف عن عظمة التشريع الإسلامي ، فهو في عين حفظه لِحقّ الحاكميّة الإلهية لخالق الكون سبحانه وتعالى بمقتضى التوحيد فهو يحفظ حق الناس في انتخاب من يحكمهم؛ لأن إرادته قد تعلقت بأن يكون الإنسان مختاراً في أفعاله ؛ حتى يكون مسؤولاً عنها يوم القيامة ، وهي غاية الحكمة والعدالة ، أما الأنظمة الطاغوتيّة الاستبداديّة فهي تظلم الناس ، مما ينافي العدل وأما الأنظمة الديمقراطية فهي تظلم رب الناس ، مما ينافي التوحيد »[٢].

ولابد أن نشير إلى نكتة تظهرها رسالة أمير المؤمنين (عليه السلام) ، بأنَّ الرجال الذين حملوا قضية الإسلام وأهدافه الحقيقية ودافعوا عنه بأموالهم وأنفسهم وناصروا الحق وحملوا هموم المستضعفين من المسلمين أي وبعبارة أخرى تحلوا بصفات

---

[١] ينظر : معالم النظام السياسي : ١١١ .

[٢] م . ن : ١١٢ .

المهاجرين والأنصار[١] هم أصحاب الحق في الشورى في اختيار من يجدوه أهلا في خلافة المسلمين ، وليس عامة الناس ، وإنما عامة الناس يأتي دورهم مكملاً في إتمام البيعة أو الانتخاب .

وهذا البعد المعرفي لا يوقفه زمن ولا يحده مكان ، بعد تعذر الأئمة المنصوص عليهم من قبل الله سبحانه وتعالى للوصول للحكم .

ومن الأبعاد السياسية التي صرح بها أمير المؤمنين (عليه السلام) لخصومه ومنهم السيدة عائشة ، هو عدم زج النساء في الصراعات السياسية ؛ لأنَّ النساء قد رفع عنهن هذا الجانب ، لذا قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في رسالته إلى السيدة عائشة :

«إما بعد : فإنك خرجتِ غاضبةً لله ولرسوله تطلبين أمراً كان عنك موضوعاً ، ما بالُ النساء والحرب والإصلاح بين الناس ؟ تطلبين بدم عثمان، ولعمري لمن عرَّضك للبلاء ، وحملك على المعصية أعظم إليك ذنبا من قتلة عثمان ، وما غضبت حتى أغضبتِ وما هِجْتِ حتى هيّجتِ ، فاتقي الله وارجعي إلى بيتك »[٢]

إنَّ نص الإمام إشارة واضحة إلى عدم أهلية المرأة في دخول الصراع السياسي ، لكون أن الله رفع هذا التكليف من جانب[٣] ، وعدم أهليتها في كثير من الأحيان في التميز بين الحق والباطل لكون العنصر العاطفي هو المسيطر على كيان المرأة ، وقد أشار الإمام (عليه السلام) إلى ذلك بقوله (فانك خرجت غاضبة ، وما غضبت حتى أغضبت) .

---

[١] إن هذه التسمية جاءت عن صفة وليس تسمية داله على نفسها .

[٢] الإمامة والسياسة : ١ / ٩٠ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام) : ٢٦ .

[٣] قد يخطر في ذهن القارئ الكريم ، موقف السيدة زينب (عليه السلام) في خطبتها في مجلس يزيد ؛ ننبه القارئ أن السيدة زينب كانت في موقف الدفاع عن إمام زمانها الحسين بن علي (عليه السلام) ولم تكن في موقف تحرك الجيوش وقيادتها في تغيير نظام الحكم حينذاك .

وهو إشارة واضحة بأنَّ الغضب من موانع المعرفة في عدم تمييز بين الحق والباطل ، فكيف بالذي سيتولى عليه الغضب أن يدخل في صراع سياسي ، ويحرف الأمة عن مسار هدايتها .

وهذا المعنى في رفع التكليف ، تؤكده السيدة أم سلمة في كتابها إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) :

«ولولا ما نهانا الله عنه من الخروج وأمرنا به من لزوم البيوت لم ادع الخروج إليك، والنصرة لك »[١]

إنَّ سياسة أمير المؤمنين في أبعادها المعرفية تدعو دائما إلى والعلم والمعرفة والسير على هدى الدستور الإسلامي المتمثل بالقرآن والسنة النبوية ، في تسيير شؤون الأمة ووحدتها ،إذ نجد خطابه يُكرَّر في الدعوة للسير بهذا الدستور الدائم إذ يقول في رسالته إلى الخوارج من أتباع الخريت بن راشد :

«سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وكتابه والبعث بعد الموت ، وأوفى بعهد الله ، ولم يكن من الخائنين .

أما بعد : فإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، والعمل بالحق ، وبما أمر الله في كتابه »[٢]

دستور حكومة الإمام علي (عليه السلام) هو اتباع مبادئ الإسلام في السير على منهج القرآن والسنة النبوية وشعار هذه الحكومة العلوية هو العمل بالحق ، وهدفها هو تحقيق تلك العلوم الإلهية ، وما توصل إليه الإنسان من معرفة وتطبيقها على واقع الأمة من خلال العمل وتسخير طاقات الإنسان من أجل سعادة البشرية .

إن سياسة أمير المؤمنين (عليه السلام) في السير على وفق مبادئ الإسلام ودستورها المتمثل بالقرآن والسنة النبوية هو ديدن أمير المؤمنين (عليه السلام) في كل سيرته وعلى كل ولاياته التي كانت له سيطرة عليها حتى التي نكث بيعتها وعادت طائعة من جديد .

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٦ / ١٣٤ .

[٢] تاريخ الطبري : ٤ / ٣٧٩ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام): ٨٨ .

إنَّ رسائل الإمام (عليه السلام) في العمل على وفق دستور الإسلام ، كاشفة لهذا البعد المعرفي في الدعوة والعمل على شريعة هذا الدستور الدائم ، وهذا ما نجده في كتابه إلى أهل البصرة :

«وقد كان من انتشار حبلكم وشقاقكم ما لم تَغْبَوا عنه[١] ، فعفوت عن مجرمكم ، ورفعت السيف عن مدبِركم ، وقبلت من مُقبلكم ، وأخذت بيعتكم فإن تُفوا ببيعتي ، وتقبلوا نصيحتي ، وتستقيموا على طاعتي ، أعمل فيكم بالكتاب والسنة ، وقصد الحق، وأقيم فيكم على سبيل الهدى ، فو الله ما أعلم أنَّ والياً بعد محمد صلى الله عليه وآله أعلم بذلك مني ، ولا أعمل بقولي ، أقول قولي هذا صادقاً غير ذامٍّ لمن مضى ، ولا منتقص لأعمالكم »[٢].

إنَّ دعوة الإمام (عليه السلام) في العمل بالكتاب والسنة دعوة مفتوحة لكل ولاة الأمة على مر الأجيال وفي كل بقاع المعمورة ، وأنَّ سيرته (عليه السلام) في العمل بهذا الدستور الإلهي صورة واضحة وسياسة متجسدة على واقع الأرض لا تضاهيها إلا سياسة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ؛ ومن هنا يقول العقاد «واتبع علي من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها ، فلا نعرف سياسة أخرى أشار بها ناقدوه أو مؤرخوه ثم أقاموا الدليل على أنها خير من سياسته في صدق الرأي وأمان العافية أو أنها كانت كافلة باجتناب المآزق التي ساقته الحوادث إليها »[٣]

إنَّ الشريعة الإسلامية هي مصدر المعرفة الأول الذي يستمد من الدستور وتشرع على ضوئه القوانين التي تسيّر الحياة ، وعلى المسلمين أنْ يؤمنوا إيماناً مطلقاً بالإسلام بوصفه الشريعة التي يجب أنْ تقام على أساسها الحياة ، وإنَّ الله سبحانه وتعالى هو مصدر السلطات جميعاً .

وهذه الحقيقة الكبرى تعد أعظم ما نادى به أمير المؤمنين ، ومارسه في صراعه مع خصومه من أجل تحرير الإنسان من عبودية الإنسان ، وهذا خلاف ما يردده

---

[١] غبى عن الشيء : لم يفطن له .

[٢] الغارات : ٢ / ٤٠٣ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام) : ١٠٣ .

[٣] عبقرية الإمام علي : ٥٥

البعض من الغربيين والشرقيين على حد سواء ، إنَّ الإسلام دين وليس انتصاراً ، وإنّه عقيدة وليس منهجاً للحياة ، وانه علاقة بين الإنسان وربه ، ولا يصلح أن يكون أساساً لثورة اجتماعية كبرى ، وقد فات هؤلاء أن الإسلام ثورة لا تنفصل فيها الحياة عن العقيدة ، ولا ينفصل فيها الوجه الاجتماعي عن المحتوى الروحي ، ومن هنا كان ثورة فريدة على مر التاريخ [١] .

نستشف من دراستنا أنَّ سياسة الإمام (عليه السلام) نابعة من مصدر المعرفة الأول لدى المسلمين المتمثل بالقرآن والسنة النبوية ، وأن سيرته السياسية لا تخرج إلا أن تكون تجسيداً لمبادئ الشريعة الإلهية وامتداداً لسيرة وشخصية الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) في تعامله وإرساء دعائم الإسلام ، وأنَّ سياسة خصومه لا تمثل سياسة معرفية لكونها نابعة من المكر والخديعة ، ولهذا لم نجد ما نضعه في هذا المبحث نابع من نظرية المعرفة على وفق منظورها الإسلامي.

---

[١] ينظر : الإسلام يقود الحياة : ٢٦ .

البعد الاقتصادي :

إنَّ الدين الإسلامي هو الإطار الشامل لكل أنظمة الحياة في الإسلام ، فكل شعبة من شعب الحياة يعالجها الإسلام فيمزج بينها وبين الدين ، ويصوغها في إطار من الصلة الدينية للإنسان بخالقه وآخرته [١].

وهذا الإطار هو الذي يجعل النظام الإسلامي قادراً على النجاح ، وضمان تحقيق المصالح الاجتماعية العامة للإنسان ؛ التي لا يمكن أن يضمن تحقيقها إلا عن طريق الدين [٢]

يقوم الإسلام على صرح قويم وثابت هو الاعتقاد بأنَّ لهذا الكون خالقا ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[٣]، وهو الذي خلق الإنسان ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾[٤] ، وقد خلق الله كل شي من أجل الإنسان ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٥] ، وإن كل شي خلقه ضمن معايير وأحجام ومقاسات تبطن الحكمة والعدل الإلهي ، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[٦] .

وترى الآيات تحمِّل الإنسان مسؤولية هذا الكون ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ ﴾[٧] ، ويقول أيضاً: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[٨]

---

[١] ينظر : اقتصادنا :٣٤٧.

[٢] م . ن :٣٤٧.

[٣] سورة لقمان : ٢٥

[٤] سورة الفرقان : ٥٤

[٥] سورة البقرة : ٢٩

[٦] سورة الفرقان : ٢

[٧] سورة الحديد : ٢٥

[٨] سورة الأنبياء : ٧٣

ويصف القرآن الكريم الإنسان بالخليفة فيقول ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[1]، وحمل الإنسان أعباء هذه الخلافة ومسؤوليتها بعد أنْ عجزت السموات والأرض عن ذلك وأشفقت منها ،﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[2]

ومن ذلك فالسلوك الاقتصادي للفرد والمجتمع يتأثر بالقيم والمذهب السائد والنظرة إلى الكون والحياة والموت والخالق ؛ وعليه فإن الفرد والمجتمع والدولة في البلدان الإسلامية لا بد أن يتوافق سلوكهم الاقتصادي مع مبادئ الاقتصاد المستمدة من مصادر التشريع الإسلامي .

قد طبق هذا الاقتصاد في عصور الأمة الزاهرة واثبت نجاحاً باهراً وحقق نتائج طيبة في كل الميادين ، ولكن بعد أن ضعف المسلمون واستبيحت ثرواتهم وبلدانهم من قبل المستعمرين غابت مبادئ الاقتصاد الإسلامي عن التطبيق في الكثير من المجالات ، وأبدلت بمبادئ اقتصادية جاء بها المستعمرون من أجل أنْ تخدم مصالحهم وتتفق مع قيمتهم ، ولا ترقب في الاقتصاد الإسلامي إلّاً ولا ذمة ، وحتى بعد أن رحل المستعمرون بأجسادهم عن بلاد المسلمين لم ترحل معهم مبادئهم وأفكارهم التي جاؤوا بها بل مكثت واستقر بها النوى وتوثقت وتغرزت روابط التبعية الفكرية والتطبيقية في المجال الاقتصادي وغيره ، ولم تجن هذه البلدان سوى مزيد من التخلف والتبعية وسوء في توزيع الدخل [3]

بما أنَّ نظرية المعرفة من وجهة نظر إسلامية تعد القرآن الكريم هو المصدر الأول للمعرفة الذي ينظم حياة الفرد والمجتمع في جميع جوانبها ، ومنها الجانب الاقتصادي، والقرآن الكريم هو المصدر لكل فكر أو تطبيق لشان من شؤون المسلمين ، لقد تضمن القرآن الكريم آيات كثيرة ذات مضمون اقتصادي ، منها ما ينظم نظرة الإنسان المسلم إلى المال والموارد الاقتصادية التي بين يديه ، إذ تبين إنَّ المالك الأصلي لهذه الموارد

---

[1] سورة البقرة : ٣٠

[2] سورة الأحزاب : ٧٢

[3] ينظر: الاقتصاد الإسلامي : ١٦

بل لكل ما في الوجود هو الله تعالى ، إذ يقول في محكم كتابه : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١] وقوله أيضاً: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [٢] ، هذه العائدية للموارد يؤكدها أمير المؤمنين في فكره الاقتصادي ويحمل أبعادها المعرفية في تعامله مع ولاته وسياسته حول حائزية بيت مال المسلمين ، إذ يقول في رسالته إلى الأشعث بن قيس ، حينما كتب إليه يطالبه بما لديه من أموال المسلمين ، والأشعث يؤمئذ باذربيجان كان قد استعمله عليها عثمان :

« ... وفي يديك مال من مال الله عز وجل ، وأنت من خزاني عليه حتى تسلِّمَه اليَّ إن شاء الله ، ولعلي أن لا أكون شَرَّ ولاتِك لك والسلام »[٣]

وهذا هو التعبير الذي ورد في القرآن الكريم عندما تحدث عن العبيد الذين تحرروا من ربقة الرّق والأمر الشرعي بإعطائهم المال الكافي لمزاولة العمل والكسب وأداء ديونهم فقال تعالى: ﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [٤] وهذا أمر للوالي لأن يكون أميناً وخازناً لمال الله ، فيأمره بالمحافظة على هذا المال إلى أن يصل بيد الإمام ، ويتم توزيعه على مستحقيه [٥] .

ولهذا لابد من تصحيح نظرية الملكية التي لا تنسجم مع هذا المبدأ بأن الملك لله تبارك وتعالى ، وأنَّ دور الإنسان هو الأمانة والحفاظ على ما أودع الله تبارك وتعالى إذن الملكية الإلهية ، هي ملكية حقيقية ، وأما ملكية الإنسان فهي ملكية اعتبارية ، ولما كانت بهذا الضعف ، فلا تشكل مدخلاً للمذهب الاقتصادي الإسلامي فمن الخطأ أن نُشيِّد اقتصاداً على قاعدة اعتبارية ومستعارة من الفكر الرأسمالي الذي تأثر به بعضهم كرد فعل للمد الاشتراكي الذي كان يسود البلاد الإسلامية، فنظرية الملكية لا

---

[١] سورة المائدة ١٢٠

[٢] سورة الزخرف ٨٥.

[٣] نهج البلاغة شرح محمد عبده : ٣ / ٣٤٤ .

[٤] سورة النور : ٣٣

[٥] ينظر : نفخات الولاية شرح نهج البلاغة :٩ / ٦١

تستقيم مع مبدأ الخلافة التي جاء بها الإسلام ؛ فالإنسان هو خليفة الله في الأرض ، وأنَّه ينطلق من كونه أميناً ومسؤولاً عن الأمانة [١]، فالملكية لا تثر شيئا في الإنسان سوى المزيد من التملك ، ومن ثمَّ المزيد من الزيغان حسب المنطق القرآني : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [٢].

والإمام يحذر الأشعث من مغبة تضييع أموال المسلمين ؛ كونها أموال الله ، وكونه أميناً وخازناً لها ، وبأسلوب تحذيري جميل يبعث الاطمئنان في نفس واليه ، بكونه لو لم ينحرف عن جادة الصواب ومسير الحق ، فإنَّه يكون في أمان من المؤاخذة والعقوبة.

والأشعث عندما أطلع على كتاب الإمام (عليه السلام) قال لأصحابه: إنَّ كتابه قد أوحشني وهو آخذني بمال آذربيجان، وأنا لاحق بمعاوية ، فقالوا له: الموت خير لك من ذلك ، أتدع مصرك و جماعة قومك و تكون ذنباً لأهل الشام[٣].

بما أنَّ نظرية المعرفة في بعدها الإسلامي تنطلق من مبدأ (العدل) ــ الأصل الثاني من أصول الدين بعد التوحيد ــ الذي يتجسد في بعده المعرفي في التشريع الإسلامي على وفق النظام الاقتصادي الإسلامي الذي يتم فيه التوزيع في إطار العدالة وهو غاية أساسية من الغايات التي يسعى من اجلها هذا النظام الإسلامي.

ومعنى العدالة أن يعيش جميع أبناء المجتمع في سعادة ورفاه ، بعدما تزول من بينهم الفوارق والاختلافات الطبقية الفائقة .

وقد سار الإمام (عليه السلام) على هذا المنهج في سياسيته لمواجهة التفاوت الكبير الذي أحدثه الخليفة عثمان بن عفان ، ومن قبله الخليفة عمر بن الخطاب

---

[١] ينظر الفكر الاقتصادي في نهج البلاغة :٢١ – ٢٣ .

[٢] سورة العلق : ٦ –٧ .

[٣] ينظر : وقعة صفين : ٢١ .

عندما استحدثا نظاماً لتقسيم بيت المال على أساس مكانة الشخص ومنزلته وقد أدى ذلك إلى تجمع الأموال عند البعض وضمورها عند البعض الآخر [١].

لقد انشأ كل من عمر وعثمان كياناً اجتماعياً طبقياً ضخماً متناقضاً مما سبب هذا التناقض الطبقي تفككاً واضحاً في المجتمع الذي بناه الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وكان على الإمام (عليه السلام) أن يقوم بالهدم أو مواجهة هذا الكيان الطبقي وذلك عبر المساواة في العطاء بين المسلمين جميعا ، متبعاً في ذلك سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) التي أهملها من كان قبله من الخلفاء .

هذه السياسية المالية لم ترق لقريش ، فقد كان العديد من أقطابها تنالهم قرارات الإمام (عليه السلام) في أنفة الطغيان والتكبر والاستعلاء حتى وصل الأمر إلى بعض عمال الإمام الذين لم يطيقوا هذه المساواة، إذ يقول أحد عماله في رسالته إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) :

«أما بعد: فقد أتاني كتابك تعظّم عليَّ أمانة المال الذي أصبت من بيت مال البصرة ، ولعمري أنَّ حقي من بيت مال الله أكثر من الذي أخذت والسلام »[٢]

وينطلق الإسلام من مبدأ المساواة في جميع تشريعاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فلا فرق بين حاكم ومحكوم وبين راع ورعية فالكل سواسية كأسنان المشط ، ويقوم هذا المبدأ على قاعدة الناس من آدم وآدم من تراب ، فلا فضل لعربي على أعجمي ، ولا ابيض على اسود ، وقد عانت المجتمعات الإسلامية بعد رحيل الرسول الأكرم إلى الرفيق الأعلى من معضلة التفاوت الطبقي حتى حكم أمير المؤمنين (عليه السلام) فكان أول مبدأ أعلنه هو المساواة يقول عن الأموال التي تصرف بها الخليفة الثالث[٣]:

---

[١] الفكر الاقتصادي في نهج البلاغة : ١٠٠.

[٢] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٧٠.

[٣] الفكر الاقتصادي في نهج البلاغة : ٧٩.

«والله لو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك به الإماء لرددته فانه العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق »[١]

واعتمد أمير المؤمنين (عليه السلام) على سياسية المساواة في العطاء ففي كلام له لما عوتب على التسوية في العطاء : «لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وإنما المال مال الله »[٢] وقد اقتدى بهذه السياسة برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وقد قال في ذلك للخوارج :«وقد علمتم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله رجم الزاني المحصن ، ثم صلى عليه ثمَّ ورَّثه أهله ... وقطع السارق وجلد الزاني غير المحصن ، ثم قسم عليهما من الفيء»[٣].

وكان الإمام علي (عليه السلام) شديد الحرص على مراقبة عمال الخراج أو ما يطلق عليه في وقتنا الحاضر (وزارة المالية) ، التي تعد أساساً مهماً تقوم عليه الدولة والمجتمع ؛ لأنَّ في جمع الخراج مسؤولية كبرى[٤] ، ونبه ولاته وعمّاله إلى خطورة سعي بعضهم إلى التنعم بأموال المسلمين بما اصطفوه من بيت مالهم بغير وجه مشروع مقتدياً بمنهج الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) ، في محاسبة عماله على ما في أيديهم وعلى ما أنفقوه ، فقد روي أنه استعمل رجلاً من الأزد على الصدقات فلما رجع حاسبه فقال الرجل : هذا لكم وهذا أهدي لي ، فأنكر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ذلك وقال «ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول : هذا لكم ، وهذا أهدي لي ؟ أفلا قعد في بيت أمه وأبيه فنظر أيهدى له أم لا ؟ والذي نفسي بيده لا نستعمل رجلاً على عمل مما ولّانا الله فيغل منه شيئاً إلا جاء به

---

[١] نهج البلاغة : ٣٨ .

[٢] م . ن : ٢١١ .

[٣] م . ن : ٢١٢ .

[٤] والخراج بالمعنى العام : هو الأموال التي تتولى الدولة أمر جبايتها وصرفها في مصارفها ينظر للمزيد : الموسوعة الإسلامية العامة : ٥٩٣ .

يوم القيامة يحمله على رقبته ، إنْ كان بعيراً له رغاء ، وإن كانت بقرة لها خوار ، وإن كانت شاة تمغر، ثم رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم بلغت »[١].

وسار أمير المؤمنين (عليه السلام) على هذا المنهج في كل أدوار حكومته فكان يراقب الولاة والعمال ويمعن في محاسبتهم ، إلى درجة كبيرة ، كان منها أنه نقل إليه أنّ واليه على البصرة عثمان بن حنيف وقد دُعي إلى وليمة قوم من أهلها ، فمضى إليها ، فرفع له رسالة أنكر فيها ذلك أشد ما يكون الإنكار[٢]؛ لأنه أراد أن يكون الوالي في منتهى العفة والنزاهة والتجرد من جميع المغريات ، فكيف إذا بدر من أحدهم خيانة ، أو اختلاس من أموال بيت المال ، وقد بلغه عن بعض عماله أنه استأثر ببعض أموال المسلمين فكتب إليه :

«أمَّا بعد ، فقد بلغني عنك أمرٌ ، إنْ كنت فعلتَهُ فقد أسخَطتَ ربَّك وعصيت أمَامَك ، وأخزيت أمانتك ، بلغني أنك جردت الأرض ، فأخذت ما تحت قدميك ، وأكلت ما تحت يديك ، فارفع إليّ حسابَك ، واعلم أنَّ حساب اللهِ أعظمُ من حساب النَّاس ، والسلام »[٣].

فإذا ذهب كل والٍ أو عامل بما لديه من الخراج انتشر الفساد في الأرض وتقوّض العدل ، وأصبح الناس بين مترف يتقلب في النعيم ، ومسحوق لا يجد ما يسد رمقه[٤].

ولهذا نجد أمير المؤمنين (عليه السلام) شديد الحرص في الحفاظ على أموال المسلمين من التلاعب والاختلاس فوضع بما يسمى اليوم (الحساب الختامي) ، مؤكداً أنَّ هذا الحساب شيء يسير قد يخالطه الاشتباه والغفلة وأحياناً يستطيع المرء إخفاء بعض النواقص عنه في حين أن حساب الله أعظم حيث ترى ﴿ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ

---

[١] صحيح مسلم ، حديث ٣٥٢١ ، والطرق الحكمية في السياسة الشرعية : ٢٤٨ .

[٢] ينظر: نهج البلاغة شرح محمد عبده : ٣ / ٣٩٠ .

[٣] نهج البلاغة شرح محمد عبده :٣ / ٣٨٦ .

[٤] ينظر : الخطاب في نهج البلاغة بنيته وأنماطه ومستوياته دراسة تحليلية : ١٨٦ .

مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (١)

وهناك إشارة إلى وجود علاقة معينة بين تطبيق أحكام الله سبحانه وتعالى وبين وفرة الخيرات ، وبلغة اليوم بين تقوى المسؤول وعدالة التوزيع وبين وفرة الإنتاج ، والقرآن يؤكد على ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) وقوله تعالى أيضا : ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ (٤)؛ لأنَّ شريعة السماء نزلت من أجل حفظ الخيرات وعدالة التوزيع ، أي من أجل إنشاء علاقة توزيع على أسس عادلة .

وهذه الإشارات (جردت الأرض ، تحت قدميك ، تحت يديك)، دلالة وفرة الخيرات والأموال لدى المسلمين ، ولكن خوف الفقر حين تتمتع بها فئة دون أخرى ، فتكون نتائجه سخط الرب وعدم حفظ الأمانة التي وكل الله بها المؤتمن ، هذا التخيل أن عدالة التوزيع تقتضي الفقر تنفيه نظرية المعرفة الإسلامية المتمثلة بمصدرها الأول القرآن ، وتؤكد على حقيقة ، بأن تطبيق شريعة السماء وتجسيد أحكامها في علاقات التوزيع تؤدي دائما وباستمرار إلى وفرة الإنتاج ، إلى زيادة الثروة إلى أن تفتح على الناس بركات السماء والأرض (٥) .

---

(١) سورة الكهف : ٤٩

(٢) سورة الأعراف : ٩٦

(٣) سورة المائدة : ٦٦

(٤) سورة الجن : ١٦

(٥) ينظر المدرسة القرآنية : ٦٥ – ٦٦ .

ولهذا كان أمير المؤمنين حريصاً كل الحرص على أن تصرف موارد الدولة في مواضعها التي خصصت لها لا كما يريد الولاة في صرفها ، وهذا كان لا يتوقعه من ولاته كون توزيع موارد بيت المال لمستحقيها أصبح من البديهيات عند المسؤولين في الدولة العلوية ، فضلاً عن عامة الناس لما ذكره القرآن الكريم وأكد عليه [١]، إذ يقول أمير المؤمنين في رسالته إلى مصقلة بن هبيرة [٢] ، بعد أن بلغه أنه يفرِّق ويهب أموال اردَشير خُرَّة ، وكان عليها :

«أما بعد ، فقد بلغني عنك أمر أكبرت أن أصدقه أنك تقسم فيْء المسلمين في قومك ومن اعتراك من السألة والأحزاب وأهل الكذب من الشعراء كما تقسم الجوز »[٣]

فقد كان على عامل الإمام (عليه السلام) أن ينظر في صرف الأموال بعين المعرفة ، العلمية والعملية في آن واحد وأن لا تطغى عليه نوازع الأهواء ولا يميل إلا للعدل والحقّ الذي فيه مكسب خدمة الأمة ورعاية مصالحها ، لا يسير على سياسة عثمان المالية «من إيجاد الطبقية وتقديم بعض الناس على بعض في العطاء ، وقد شذت هذه السياسة عمّا قنّنه الإسلام من لزوم المساواة ووجوب الإنفاق على المرافق العامة ، وإصلاح الحياة الاقتصادية ومكافحة الفقر ، والقيام بإعالة الضعيف والمحتاج ، وليس لولاة الأمور أن يصطفوا منها أي شيء ، وليس لهم أن يمنحوها لدعم حكمهم وسلطانهم ، وقد تحرج الإسلام في ذلك أشد الحرج »[٤]، لذا حذر رسول الله(صلى الله

---

[١] ينظر كمثال : سورة التوبة : ٦٠ ، والأنفال : ٤١ ، والحشر : ٧ .

[٢] مصقَلة بن هُبيرة بن شبل بن امرئ القيس بن ربيعة ، كان من أصحاب الإمام ، ونائب ابن عباس ، أشترك في معركة صفين ، وتولى أردشير خُرَّة (إقليم من أقاليم بلاد فارس) فكان عاملاً غير مباشر ، عاتبه الإمام على تصرفه في بيت مال المسلمين وإتلافه له ، وطلب منه رد ما أخذه من بيت المال ، غير أنه هرب إلى معاوية والتحق بجيشه ، كانت وفاته في طبرستان بعد أنْ ولاه معاوية عليها ، ينظر : أصحاب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) والرُّواة عنه : ٢ / ٥٤٥ ، وأصحاب الإمام علي وعماله : المجلد ١٢ / ٣٠٨ .

[٣] تاريخ اليعقوبي : ٢ / ١٤٠ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام) : ٧٨.

[٤] حياة الإمام الحسين ، دراسة وتحليل :١ / ٣٨٧ .

عليه وآله وسلم) من عواقب هذا العمل ، فقد روي عنه أنه قال: «إن رجالاً يتخوَّضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة »[١].

إنَّ حكومة الإمام (عليه السلام) تستمد في عدالتها في توزيع موارد بيت المال من مصدر المعرفة في الشريعة الإسلامية ؛ وهي بذلك تختلف عن الحكومات التي سبقتها او التي تلتها إذ راح ولاتها في تحقيق ما تصبو لهم أهواؤهم ونزواتهم من حب المديح وصور الترف ، يقول الدكتور شوقي ضيف واصفا شيوع المديح في العصر الأموي : «نحن لا نستطيع تفسير شيوع المديح في العراق وخراسان وما كان يهبط منه إلى دمشق إلا بردِّ ذلك إلى ظهور طبقة ضخمة من الأثرياء كانت أخلاطاً من الحكام الذين أداروا شؤون الدولة في الخراج وغير الخراج ومن الأغنياء الذين ملكوا الإقطاعات ، بينما ظل وراءهم جميعاً جمهور كبير ، يتلقى منهم رزقه إما بالعمل لهم وإما بما يقدم لهم من مديح »[٢]

إنَّ الإنسان هو مستخلف في هذه الموارد ومخول فقط بالتصرف فيه على وفق ضوابط معينة كما في قوله تعالى : ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٣] ، هذا الاستخلاف جعل أمير المؤمنين (عليه السلام) شديد المراقبة للأموال المسلمين والمساءلة في مواضع صرفها .

إنَّ سياسة أمير المؤمنين (عليه السلام) في محاسبة ولاته والتشديد عليهم لا تكتفي بالتساؤل ونفي التهم من قبل الولاة كما حدث لأحد عماله الذي أنكر هذه التهمة:

«فإنَّ كل الذي بَلَغَك باطل ، وإني لما تحت يديَّ ضابط قائم له ، وعليه حافظ ، فلا تصدِّق عليَّ الضَّنينَ »[٤]، نافياً عنه التهمة ، مكذباً عيون الإمام الرقابية .

---

[١] صحيح البخاري : ٤ / ١٨٨ .

[٢] تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي : ٢٠٨ .

[٣] سورة الحديد : ٧

[٤] تاريخ الطبري : ٤ / ٣٩١ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام) : ١٠٨

وبهذا نجد رقابة الإمام (عليه السلام) لا تكتفي بقبول النكران وتصديق الوالي إلا من خلال الحسابات الرقابية المسمى بوقتنا الحاضر (الرقابة المالية) في موضع الصرف والتدقيق ، مؤكداً ذلك في رسالته لذلك الوالي الذي خان الأمانة :

«أما بعدُ : فإنه لا يَسَعُني تركك حتى تُعلمَني ما أخذت من الجزية من أين أخذتَه؟ وما وضعتَ منها ، فيمَ وضعته؟ فاتَّقِ الله فيما ائتمنتك عليه واسترَعيتك إياه ، فإن المتاعَ بما أنت رازِمُه قليلٌ وتِباعَتَه وبيلةٌ لا تَبِيدُ ، والسلام »[1].

فخطاب الإمام (عليه السلام) يحمل التساؤل من أين ، وإلى أين ، وكم ، ليكون موازنة محاسبية صارمة لا ينفك منها الوالي إلا بالإجابة الحسابية بالأرقام ، مبيناً أنَّ التقوى والأمانة في الحفاظ على أموال المسلمين صفة الإنسان الذي ينظر إلى ما بعد الحياة ، ويقيس الأشياء بمنظار العقل والحساب الصحيح ؛ لأنَّ إيثار الدنيا على الآخرة جرم يعقبه ندم طويل ، وهذا الأسلوب من منطلق نظرية المعرفة في معرفة المعاد والتذكير به في أن يضع الإنسان هذا المنطق نصب عينيه في عمله وفي كل شؤون حياته .

والإسلام يقر بمبدأ الرقابة الذاتية أولا في النشاط الاقتصادي ؛ إذ «يوفق بين الحاجات المادية للإنسان والحاجات الروحية ، ويعدُّ التقوى عنصراً من عناصر الإنتاج، وهو يجعل من الضمير الديني الحي رقيباً ذاتياً على العمل وسبيلاً للإتقان ، وهي رقابة أشد فعالية ؛ إذ إنَّ المال في الإسلام ليس غاية في ذاته ، وإنما هو وسيلة لإعمار الكون وإسعاد البشر ، فحين يحس المسلم إذا تمكن من الإفلات من رقابة السلطة ؛ فإنه لن يستطيع الإفلات من رقابة الله ، فإنَّ ذلك ضمانةً كبرى لسلامة السلوك الاجتماعي ، وعدم انحراف النشاط الاقتصادي »[2]

إنَّ منهج الإمام (عليه السلام) في سياسته الاقتصادية في متابعة عماله وولاته والرقابة الدقيقة الشافية نراها متجسدة في رسالته إلى عامله مصقلة بن هبيرة الذي خان

---

[1] نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٥ / ٣٢٦ .

[2] التكامل المعرفي أثره في التعليم الجامعي وضرورته الحضارية :٥٥٧ .

الأمانة ، فقد وهب ما لديه من أموال بيت المال على وفق نوازعه وأهوائه إذ يقول (عليه السلام) في رسالته :

« فوالذّي فلق الحبَّة وبرأ النسمة لأفتشّ عن ذلك تفتيشاً شافياً ، فإن وجدتُه حقاً لتجدنّ بنفسك عليّ هواناً فلا تكوننّ من الخاسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »[1] .

إنَّ قسم الإمام (عليه السلام) في جدية التفتيش الشافي يظهر مدى حرص الإمام على حفاظ على أموال المسلمين والسعي في وضعها في نصابها الذي أمر الله به ، لا الذي سعى الى توزيعه على أقربائه والمتزلفة من أهل الكذب من الشعراء ، على وفق أهواء نفسه ونزواته وحب الظهور ، مؤكداً أنَّ هذا العمل بعيد عن المعرفة والحقيقة التي أرادها الله من الذين استخلفهم على هذه الأرض ، مستشهدا بمصدر المعرفة الأول القرآن الكريم الذي يصرح بأنَّ هناك أعمالاً تعد خاسرة في مقياس السنن الالهية : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾[2].

فالإمام (عليه السلام) يؤكد «أن بعض المجتمعات تتحفز بعوامل ذاتية من خلال النمط التكاملي الذي تبلغه من خلال الوعي والوجدان إلى حد يقل فيه أثر القانون والعوامل الخارجية الأخرى ، والإسلام من أجل أن يبني هذا المجتمع السامي الذي يتحرك على وفق دوافعه الخيرة فلا يحتاج إلى من يقول له أعمل هذا العمل ، ولا تقم بهذا العمل »[3] ، وهذا لم يجده في عامله الذي خان الأمانة ؛ لذا راح يذكره بهوال ما يجمعه بمقابل ذلك اليوم الذي يكون مقدار العمل الصالح هو خلاصة ما يجمعه الإنسان من هذه الدنيا .

---

[1] تاريخ اليعقوبي : ٢ / ١٤٠ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام) : ٧٨ .

[2] سورة الكهف : ١٠٣ – ١٠٦

[3] الفكر الاقتصادي في نهج البلاغة : ٢٠٩ .

ومن ذلك كان أمير المؤمنين شديد المراقبة لعماله من خلال العيون التي يضعها في مراقبة جميع الولاة والمسؤولين في حكومته ، إذ كانوا ينقلون له باستمرار ما يجري في الولايات من مسائل مهمة ، وهذا ما حدث للإمام مع (زياد) وهو واليه من قبل عامله على البصرة عبد الله بن عباس ، الذي تواطأ مع بعض الأكراد على تقليل الخراج ، وكان يريد من خلال الادعاء بان الأكراد قد امتنعوا من دفع الخراج بشكل كامل ، وأنْ يختلس بعض الخراج لحسابه الخاص ، ولا يرسله إلى بيت المال ، فعلم الأمام وكتب له رسالة شديدة جاء فيها :

«وإنِّي اقسم بالله قسماً صادقاً ، لئن بلغني أنَّك خنت من فيءِ المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً ، لأشدَّنَّ عليك شدَّةً تدعك قليل الوفرِ[1] ثقيل الظَّهر ضئيل الأمر والسلام»[2]

إن خطاب الإمام يؤكد الشدة في عدم التهاون بأموال المسلمين ونظامه الرقابي في بيت مال المسلمين لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولا يظلم أحداً عنده .

هذه الرقابة المالية عند أمير المؤمنين لم تكن فقط على مراقبة الأموال وإنما نجدها لها منحى آخر من خلال حرصه على المنظومة الاقتصادية والسلوك الاقتصادي في ضوء بعدها الإسلامي المعرفي ، جعل من البعض يكتبون له الرسائل عن السلوك الاقتصادي الخاطئ إذ نلتمس ذلك في رسالته إلى زياد إذ يقول :

«أما بعد : فإن سعداً ... قد أخبرني أنَّك تكثر من الألوان المختلفة في الطعام في اليوم الواحد ، وتدهن كل يوم ، فما عليك لو صمت لله أياماً ، وتصدقت ببعض ما عندك محتسباً ، وأكلت طعامك مراراً قفاراً ؟ فإنَّ ذلك شعار الصالحين ، أفتطمع وأنت متمرّغٌ في نعيم تستأثُر به على الجار والمسكين ، والضعيف ، والفقير ، والأرملة ، واليتيم أنْ يحسب لك أجر المتصدقين ؟ »[3].

إن حرص أمير المؤمنين (عليه السلام) على نشر مبادئ الإسلام ومفاهيمه ، والحض على عدم الإسراف ، والتكافل الاجتماعي ، للعامة والخاصة ، جعل الإمام

---

[1] الوفر : المال .

[2] نهج البلاغة شرح محمد عبده : ٣ / ٣٥٣ .

[3] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٩٧ .

ينظر بعين دقيقة لسلوك ولاته حتى في أمورهم الخاصة المباحة منها ؛ لكونهم الجزء المراقب من قبل الناس ، وهم القدوة للسير في السلوك الحسن وهذا يبين دقة النظام الاقتصادي الإسلامي وتميزه عن كل المذاهب الاقتصادية الأخرى ، لما يتمتع به من رقابة ذاتية .

إن هذه المراقبة للسلوك من قبَل الإمام جعل هذا والي ينكر فعله هذا فيجيب برسالة ناكراً هذا السلوك :

«وأما ما ذكر من الإسراف واتخاذ الألوان من الطعام والنعم ، فإن كان صادقاً فأثابه الله ثواب الصالحين ، وإن كان كاذباً فوقاه الله أشد عقوبة الكاذبين »[١].

وهذا يدل على أنَّ البعد الاقتصادي في نظرية المعرفة من منظورها الإسلامي شاملة على نطاق الذاتي والعام في الحفاظ وعدم الإسراف في النعم التي وهبها الله للبشرية ، فضلاً عن الشعور بالمسؤولية الذاتية والخارجية لمبدأ العدالة حتى في المأكل والمشرب وسائر النعم ، وهذا يدل على عدم اعتباطية منطلق العدل كونه يُعد المنطلق الثاني من منطلقات المعرفة البشرية .

وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) حريصاً كل الحرص على إرجاع الأموال المنهوبة من الولاة الذين لم يحافظوا عليها ، من خلال النصح والوعظ والإرشاد والتذكير بان الحياة هي طريق إلى عالم آخر ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾[٢] ، إذ يقول (عليه السلام) إلى واليه الذي خان الأمانة :

«فارجع هَداك الله إلى رُشدك وتُب إلى الله ربِّك ، واخرج إلى المسلمين من أموالهم ، فَعمَّا قليل تفارق من ألفْتَ ، وتترك ما جمعتَ ، وتغيَّب في صدعٍ من الأرض غير موسَّد ولا مُمهَّد ، قد فارقت الأحباب وسكنت التراب ، وواجَهتَ الحسابَ ، غنياً عما خلَّفتَ ، فقيراً إلى ما قدمت » [٣].

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٩٧ .

[٢] سورة يونس : ٣٠ .

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦ / ١٧٠ .

فخطاب الإمام التربوي يحمل بعداً اقتصادياً في الحفاظ على أموال الشعب وأن الوالي المؤتمن على ذلك ليس لأنَّ السنن الإلهية تعاقب على ذلك فحسب وإنما أنَّ كل ما يجمعه الإنسان مصيره المفارقة والزوال ، فأخذ الإمام يذكره ما أنسته الدنيا راسما له صورة بليغة تحمل أهدافا معرفية بأنَّ كل الذي جمعته هو ليس لك ، فالغنى والفقر يكون بصالح الإعمال ، لا بجمع الأموال .

ولهذا فإن الأشخاص الماديين والدنيويين قبل كل شيء ينكرون المعاد ، وحتى أولئك الذين يؤمنون بوجود الله بعنوان خالق النظام الموجود يتلكؤون في قبول المعاد ، ويجهدون في إنكاره ويصرون على عدم قبول القيامة ؛ لأنّ الاعتقاد بالمعاد يمنع الإنسان من الانفلات والهوس ، فالاعتقاد بالقيامة يقف في وجه ظلم الطواغيت ويمنع أصحاب الهوى والشهوات من التعدّي ، ويسيطر أيضاً على غريزة الغضب والتصرفات غي الملائمة ، ولا يجيز للاهثين وراء الشهوات التجاوز عن حدودهم ، فلا يترك زمام الأمور بيد الهوى ، بل ينظم الأعمال بأمر العقل ، ويكمّل العقل تحت قيادة الوحي[١].

ونجد الإمام (عليه السلام) يتخذ الأسلوب نفسه لعامله على البحرين النعمان بن عجلان [٢] ، عندما بلغه أنه ذهب بمال البحرين ، فكتب إليه :

« فخف الله ! إنك من عشيرة ذات صلاح ، فكن عند صالح الظنّ فيك ، وراجع إن كان حقاً ما بلغني عنك ، ولا تقلبّن رأيي فيك ، واستنظف خراجك ، ثم أكتب إليّ ليأتيك رأيي وأمري إن شاء الله » [٣] .

فالإمام (عليه السلام) ينبه واليه بأسلوب جميل يراعي فيه حفظ الأمانة ؛ لأنه يحسن الظن به لما يمتلكه من خلفية ذات إيمان وتقوى ، وفي الوقت ذاته يحمل

---

[١] ينظر : المعاد والقيامة في القرآن : ٢٢١- ٢٢٢ .

[٢] النعمان بن عجلان بن النعمان بن عامر بن الخزرج الأنصاري ، كان شاعراً فصيحاً ، سيداً في قومه ، تزوج خولة بنت قيس امرأة سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب بعد استشهاده ، كانت وفاته سنة ٣٧ هـ ، ينظر : أصحاب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) والرُّواة عنه : ٢ / ٥٧٦ .

[٣] تاريخ اليعقوبي : ٢ / ٢٠١ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام) ٧٨ .

إشارات عزله عن منصبه لما أخل به من حفظ أموال المسلمين إن كان ما وصل إليه حقاً .

والإمام (عليه السلام) عندما لم يجد أن النصح والإرشاد لم يأت بنتيجة مرجوة من إرجاع أموال المسلمين يتخذ إجراءات أخرى أكثر صرامة ويتوعد سارقي أموال المسلمين بعقوبات أشد لإرجاع تلك الأموال ، إذ يقول في رسالته لهذا الوالي الذي خان الأمانة :

«فاتَّق الله واردُد إلى هؤلاء القوم أموالهم ، فإنك إنْ لم تفعل ، ثم أمكَنَني الله منك ، لأعذِرَنّ إلى الله فيك ، ولأضربِنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا دخل النار »[١]

إنَّ خطاب الإمام (عليه السلام) يصل إلى أعلى مستوياته في الحفاظ على أموال المسلمين ، جاعلا من الإعدام ودخول النار نتيجة معرفية لمن لا يتق الله في الإصرار على سرقة أموال المسلمين من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين .

وفي النص إشارة إلى أنَّ الإمام (عليه السلام) لا يسل سيفه إلا في سبيل الله وفي مقابل أعدائه من قوى الظلم والكفر والانحراف ، وأينما شخص ضربه بسيفه فان مصيره الحتمي سيكون إلى النار وبئس المصير .

وهنا ربما يثار هذا السؤال ، ولماذا يستحق الشخص المختلس لشيء من بيت المال الإعدام ، في حين أن الوارد في حدود الشريعة الإسلامية ، أنَّ مثل هذا السارق لا يستحق إلا لإجراء حد السرقة عليه ، فضلاً عن أنّ إجراء حد السرقة على هذا المورد بعيد أيضاً ؛ لأنَّ من شروط حد السرقة أنْ تقع في حرز، ويقوم السارق باقتحام هذا الحرز أو كسره [٢] .

وفي مقام الجواب يمكن القول «أن مثل هذه السرقة مقترنة مع إنكار الحرمة ، وبعبارة أخرى أنَّ هذا المختلس كان يرى حلية مثل هذا العمل ، وهذا بدوره نوع من إنكار الضروري من الدين »[٣]. مما يظهر الشدة في التعامل وعدم التهاون في

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٦٨ .

[٢] ينظر : نفحات الولاية شرح نهج البلاغة : ١٠ / ٩٧ .

[٣] م . ن: ١٠ / ٩٧

اختلاس أموال بيت المال ، لما يحمله من بعد اقتصادي يسيء إلى المسلمين ، ويترك ضرراً كبيراً وفساداً عظيماً .

ويضرب الإمام (عليه السلام) مثلا في عدم التهاون مع أي شخص مهما كانت منزلته وقربه من الإمام ، إذ يقول لهذا الوالي المختلس لبيت المال :

«ووالله لو أن الحسنَ والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوَادَةٌ ، ولا ظَفرا مني بإرادة ، حتى آخذَ الحق منهما وأُزيلَ الباطل عن مَظْلمتهما »[١]

والبديهي من خطاب مراد الإمام (عليه السلام) لا يعني أبداً أن يقوم الإمام الحسن والحسين (عليهما السلام) بغصب أموال بيت المال بل المراد بيان المبالغة في هذا المطلب وأنه لا أحد مصون عن العقاب في حال تخلفه عن الحق والعدالة [٢]

وفي الوقت نفسه يشير الإمام (عليه السلام) إلى أنَّ تعامله مع الولاة والعمال الذين يخدمون الدولة الإسلامية والمخلصين لها يكونون بمثابة ولداه الحسن والحسين (عليهما السلام) لما لهم من حب وود ، ولهذا فالشدة من أجل الحق ومن أجل حفظ أموال المسلمين لا تعني إلا «من موقع التأكيد أنَّ مسائل العاطفة لا ينبغي أبداً أنْ تتدخل في الأحكام الإلهية ولا يكون التعامل على وفق تلك الروابط »[٣].

وكان الإمام (عليه السلام) لا يتهاون في استرجاع أموال المسلمين من الذين اختلسوها ، وكان شديد التعامل معهم وينزل بهم أقصى العقوبات وعزلهم عن العمل الذي وكلوا به ومن ذلك ما نجده مع عامله مصْقَلَة بن هُبيْرة الذي اشترى أسارى النصارى من أتباع الخريت من معقل بن قيس بخمسمائة ألف درهم على أن يبعث المال إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وقد بلغ (عليه السلام) أنَّ مصقلة خلَّى سبيل الأسارى ولم يسألهم أن يعينوه في فكاك أنفسهم بشيء ، فقال ما أظنّ مصقلة إلا قد تحمل حمالة ؛ ألا أراكم سترونه عن قريب ملبداً[٤] ، وأبطأ مصقلة والتوى بما

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٦٨ .

[٢] ينظر : نفحات الولاية شرح نهج البلاغة : ١٠ / ٩٧ .

[٣] م . ن : ١٠ / ٩٨ .

[٤] ينظر : تاريخ الطبري: ٤ / ٣٨١ .

شرطه على نفسه من ثمنهم فأرسل إليه الإمام (عليه السلام) من يتقاضى منه المال وكتب إليه:

«أما بعدُ : فإن من أعظم الخيانة خيانة الأمة ، وأعظم الغش على أهل المصر غش الإمام ، وعندك من حق المسلمين خمسمائة ألف درهم ، فابعث بها إليّ ساعة يأتيك رسولي ، وإلاّ فاقبل إليّ حين تنظر في كتابي ، فإني قد تقدَّمت إلى رسولي إليك ألاّ يدعك أن تقيم ساعة واحدة بعد قدومه عليك إلّا أن تبعث بالمال ، والسلام عليك»[1].

إنَّ سياسة الإمام (عليه السلام) الاقتصادية ليست هدفها الأول هو الربح والخسارة كما في المذاهب الاقتصادية ، وإنما غايتها الوصول إلى أهداف تربوية في الالتزام بحفظ أموال المسلمين ذاتياً بعيداً عن الرقابة الخارجية .

وقد يقول قائل : أين الإنسانية التي حملها أمير المؤمنين (عليه السلام) ، أيحاسب واليه مصقلة بن هبيرة على عتق رقاب الأسرى من النساء والصبيان والرجال الذين تصايحوا على هيبرة لعتقهم ! أو كما هو يقول مصقلة ومن على شاكلته : «أما والله لو أن ابن هند أو ابن عفان لتركها لي »[2].

كان هذا الوالي غاشاً للمسلمين بعيداً عن ثواب الله ، أو كما يقول طه حسين : « رجل يؤثر العافية ، وينتهز الفرصة ، ويبتغي لنفسه الخير مهما يكن مصدره ، يُعْنيه أمر نفسه قبل أن يعنيه أي شيء آخر ... لا يبتغي ثواب الله ولا يبتغي حسن الأحدوثة وإنما يستجيب للعصبية وحدها ويتخذ المكر بالسلطان وسيلة إلى إرضائها ، فإذا عرف السلطان مكره وطالبه بالحق لم يصطبر له ولم يؤدِّ منه ما لزمه ، وإنما فرَّ إلى الذين يحاربون الخليفة ويكيدون له ، فأصبح عدوًّا بعد أن كان وليًّا »[3].

هذا من جانب ومن جانب آخر نجيب بكتاب معقل بن قيس إلى أمير المؤمنين (عليه السلام):

---

[1] الغارات : ١ / ٣٦٤ ، وتاريخ الطبري : ٤ / ٣٨٠ ، ورسائل الإمام علي : ٨٩ .

[2] تاريخ الطبري : ٤/ ٣٨٢ .

[3] الفتنة الكبرى ، علي وبنوه : ١٣٠ .

«أما بعد : فإني أخبر أمير المؤمنين عن جنده وعن عدوه : إنا دفعنا إلى عدونا بالاسياف ، فوجدنا بها قبائل ذات عِدّة وحِدَّة وجِدّ ، وقد جمعت لنا ، وتحزَّبت علينا ، فدعوناهم إلى الطاعة والجماعة ، والى حكم الكتاب والسنة ، وقرأْنا عليهم كتاب أمير المؤمنين ، ورفَعنا لهم راية أمان ، فمالت إلينا منهم طائفة ، وبقيت طائفة أخرى مُنابذة، فقبِلنا من التي أقبلت ، وصَمَدنا صمداً للتي أدبَرَتْ ، فضرب الله وجوههم ونصرنا عليهم ، فإما من كان مسلماً فإنا منَّا عليه ، وأخذنا بيعته لأمير المؤمنين ، وأخذنا منهم الصدقة التي كانت عليهم ، وأما من ارتد فإنَّا عرضنا عليه الرجوع إلى الإسلام وإلا قتلناه ، فرجعوا غير رجل واحد فقتلناه ، وأما النصارى فإنَّا سبيناهم ، وقد اقبلنا بهم ، ليكونوا نكالاً لمن بعدهم من أهل الذّمة ، لكيلا يمنعوا الجزية ، ولكيلا يجترئوا على قتال أهل القبلة ، وهم أهل الصغار والذل ، رحمك الله يا أمير المؤمنين ، وأوجب لك جنات النعيم ، والسلام عليك »[1].

ومن ذلك نستنتج أنَّ هؤلاء كانت لهم يد في مقاتلة جيش أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وأن إطلاق سراحهم من دون أنْ يسألهم مصقلة أنْ يعينوه في فكاك أنفسهم بشيء ، هو انتفاء الغاية التي عبَّر عنها معقل حينما قال :(ولكيلا يجترئوا على قتال أهل القبلة) وعبرة لغيرهم من أهل الذمة ، وبهذا تكون الغاية ليست بجمع الأموال وإنما بمنظار أبعد من ذلك ، ويكون هذا الوالي قد فعل فعل السيد ، وفر فرار العبد ، وخان خيانة الفاجر ، لأمَّة المسلمين [2] .

---

[1] تاريخ الطبري : ٤ / ٣٨٠ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام) : ٨٨ – ٨٩ .

[2] عندما لحق مصقلة بن هبيرة بمعاوية ، وبلغ ذلك أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال : ما برّحه الله ؛ فعل فعل السيد ، وفرّ فرار العبد ، وخان خيانة الفاجر ! أما والله لو أنه أقام فعجز ما زدنا على حبسه ، فإن وجدنا له شيئاً أخذناه ، وإن لم نقدر على مال تركناه ، ثم سار إلى داره فنقضها وهدّمها .

وكتب مصقلة لأخيه نعيم بن هبيرة يدعوه بان يلتحق بمعاوية فأجابه بأبيات شعر منها :

لو كنت أديت ما للقوم مصطبراً ... للحق أحييت أحيانا وموتانا

لكن لحقت بأهل الشام ملتمسا ... فضل ابن هند وذاك الرأي أشجانا

وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) حريص كل الحرص على مراقبة الولاة والتشديد عليهم ولا يسامح في اعتداء الولاة على الرعية في بخس حقوقهم المالية وغيرها ، وكان يسمع من الناس حينما يتوافدون عليه حتى في ساعات راحته الخاصة، فيبش لهم ويكرمهم ويستمع إلى ظلامتهم فيرفعها من فوره لا إبطاء ولا تأجيل ، وكم عزل والٍ لاعتدائه على أحد الناس ولو أقل اعتداء ، وكم هدد من والٍ بالعزل بظلامةٍ يرفعها حدهم إليه ، وكم وبخ من والٍ توبيخ لما بدر منه من ميل لبى الاستعلاء على الناس أو بخسهم أشياءهم [١] جاءت له سودة بنت عمارة الهمداني[٢] تشتكي من أحد ولاة إمارة الصدقات ، ولم يكن اليوم ولا ساعة للنظر في مظالم فأقبل عليها وقال لها ألكِ حاجة ؟ فأخبرته خبر أمير الصدقات ، فبكى وقال : اللهم إني لم آمرهم بظلم خلقك ، ثم كتب إلى الوالي مقتبساً من سورة هود كتابه :

((قد جاءتكم بيِّنةٌ من ربِّكم فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، بقية الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين ، وما عليكم بحفيظ إذا قرأت كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك من عملنا حتى يأتي من يقبضه منك والسلام))[٣].

إنَّ كتاب الإمام (عليه السلام) يبين مدى صرامة الإمام وعدم التواني في إرجاع حقوق الناس ، ومحاسبة المقصرين من دون أي تريث أو تعطيل ، فضلاً عن أن هذا

فاليوم تقرع سن الغرم من ندم ... ماذا تقول وقد كان الذي كانا
أصبحت تبغضك الأحياء قاطبةً ... لم يرفع الله بالبغضاء إنسانا

ينظر : تاريخ الطبري : ٤ / ٣٨٢ – ٣٨٣ .

[١] ينظر : الإمام علي صوت العدالة الإنسانية : ٢ / ٤٧٧ .

[٢] سَودَة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية : امرأة شجاعة ذات منطق فصيح وبليغ ، كان لها موقف مع معاوية أثبتت فيه صدق ولائها لأمير المؤمنين (عليه السلام) وصلابتها في الدين والعقيدة ، ينضر قصتها مع معاوية : شاعرات العرب في الجاهلية : ٢١٦ .

[٣] العقد الفريد : ١ / ٢١٢ .

البعد المعرفي يبين خطورة موظفي الدولة الذين لهم صلة بأرزاق الناس وقوتهم على مفاصل المجتمع ، وصلته بتحديد رضا الناس عن الدولة التي تهتم برعاياها .

وكان (عليه السلام) يتفقد شؤون ولاته وعمّاله ، ويرسل العيون لتحري أعمالهم ، فإن رأى منهم خيانة أو تقصيراً في واجبات أحد منهم عزله وأنزل به أقصى العقوبات ، وقد بلغه أن ابن هرمة قد خان سوق الأهواز فكتب إلى عامله :

« إذا قرأت كتابي فنح ابن هرمة عن السوق ، وأوقفه للناس ، واسجنه وناد عليه ، واكتب إلى أهل عملك تعلمهم رأي فيه ، ولا تأخذك فيه غفلة ولا تفريط فتهلك عند الله وأعزلك أخبث عزلة ، وأُعِيذُكَ بالله من ذلك ، فإذا كان يوم الجمعة فأخرجه من السجن ، واضربه خمسة وثلاثين سوطاً ، وطف به إلى الأسواق ، فمن أتى عليه بشاهد فحلفه مع شاهده ، ودفع إليه من مكسبه ما شهد به عليه ، ومر به إلى السجن مهاناً »[١]

إنها صرامة العدل التي تحسم الخيانة وتقضي على الرشوة ولا تدع مجالاً للسرقة من أموال المسلمين ، إنه عدل علي الذي أقام الدنيا ولم يقعدها على رأس أبنته السيدة أم كلثوم ، لأنها تجملت بعقد من بيت المال كعارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام ، وقال للخازن أبي رافع الذي أعارها العقد (أتخون المسلمين)[٢] ، وإذا كان هذا دأبه مع نفسه فهل يتسامح مع عماله .

الصراحة والشدة وعدم المجاملة في تطبيق العدل تولد مشكلة تتمثل في طلاب الدنيا ؛ لا يتحملون تطبيقه فيديرون ظهورهم عنه طلبا لتحقيق آمالهم الدنيوية ؛ وبذلك يخلقوا أسفاً وحزناً في نفوس رجال العدالة ، كما يؤدون بالمجتمع إلى انعدام العدالة[٣].

إنَّ سياسية الإمام علي (عليه السلام) العادلة والصارمة اتجاه عماله ، جعلت بعض منهم لا يتحملون سياسية العدل ؛ لذا أخذوا يلتجئون إلى الباطل ويخاطبون الإمام بأشد العبارات وقاحة ، ويفصحون عما يجول في نفوسهم التي ران عليها حب

---

[١] دعائم الإسلام : ٢ / ٥٣٢ .

[٢] ينظر: تهذيب الأحكام : ١٠ / ١٥١ ، ووسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة : ٢٨ / ٢٩٢ ، ومناقب آل أبي طالب : ١ / ٣٧٥ .

[٣] ينظر : المنهج السياسي عند الإمام علي (عليه السلام) : ٦٩.

المال ، إذ يخاطب أحدهم الإمام (عليه السلام) في رسالة جوابية بعد أن أصرَّ عليه الإمام(عليه السلام) بإرجاع الأموال التي سلبها من بيت مال المسلمين جاء فيها :

«والله لئن لم تدعني من أساطيرك لأحملنّه إلى معاوية يقاتلك به »[١]

إنَّ اختلاف السياسية الإلهية عن السياسية الشيطانية يكمن في نقطة العدل ؛لأنّ المحور في السياسية الشيطانية هو المصلحة وبلوغ الآمال التي تتلخص في الماديات والشهرة والشهوة ، وحب الرئاسة في حين أنَّ المحور في السياسية الإلهية هو الحقيقة والواقع الذي تفقد الماديات قيمتها في مقابله بل ويضحي من أجله بأعز الناس [٢].

لذا فإنَّ سياسية العدل مرفوضة من قبل أصحاب المصالح والغايات وأصحاب الدبلوماسية المحافظة والنفعيين .

كانت صلابة الإمام (عليه السلام) في سياسة العدل تجعله لا يتأسف على أصحاب المصالح والغايات الدنيوية عندما كانوا يتسللون إلى معاوية حيث يظهر ذلك في رسالته لسهل بن حنيف الأنصاري [٣]عامله على المدينة ، وقد لحق قوم من أهلها بمعاوية جاء فيها :

«أما بعد ، فقد بلغني أنَّ رجالاً ممن قبلك يتسللون إلى معاوية ؛ فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم ، ويذهب عنك من مددهم ، فكفى لهم غياً ولك منهم شافيا فرارهم من الهدى والحق ، وإيضاعهم إلى العمى والجهل وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها ومهطعون إليها ، وقد عرفوا العدل ورأوه ، وسَمعُوه وَرَعَوه ، وعلِموا أن الناس عندنا في الحق أُسوة ، فهربوا إلى الأثَرَه ، فبعداً لهم وسحقاً ، إنهم والله لم ينفروا من الجور ، ولم

---

[١] العقد الفريد : ٢ / ٢٤٤ .

[٢] ينظر: المنهج السياسي عند الإمام علي (عليه السلام): ٦٩.

[٣] سهل بن حنيف بن واهب بن العكيم بن ثعلبة بن مالك الأنصاري ، محدَّث ، سكن الكوفة ، وشهد بدراً وما بعدها ، استخلفه الإمام (عليه السلام)على المدينة حيث خرج إلى العراق ، وولاه فارس ، وشهد معه صفين ، كانت وفاته في الكوفة سنة ٣٨ هـ ، ينظر الاستيعاب : ٢ / ٩٢ ، الأعلام : ٣ / ٢٠٩ ، وأصحاب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) والرواة عنه : ١ / ٢٧١ .

يلحقوا بالعدل ، وإنا لنطمع في هذا الأمر أن يُذلّل الله لنا صعبَه ، ويسهّل لنا حزنه ، إن شاء الله والسلام »[1].

ويستنكر الإمام (عليه السلام) على الولاة الذين يتحينون الفرصة من أجل اختلاس أموال المسلمين وهم غير مبالين بافعالهم هذه وينذرهم بأنَّ هناك حساب أخروي يوم القيامة إذ لا يستطيع أن يفر الإنسان من سلطة الله ، فيقول في كتابه إلى أحد عماله :

«وكأنك إنما كنت تكيد هذه الأمة عن دنياهم ، وتنوي غرتهم عن فيئهم ، فلمَّا أمكنتك الشَّدَّ في خيانة الأمة ، أسرعت الكرة وعاجلت الوثبة ، فاختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم ، اختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الكسيرة ، فحملته إلى الحجاز ، رحيب الصدر بحمله ، غير متأثم من أخذه كأنك ـ لا أبا لغيرك ـ حدرت إلى أهلك تراثك من أبيك وأمك ،فسبحان الله ! أما تؤمن بالمعاد ؟ أو ما تخاف نقاش الحساب ؟ »[2] .

إنَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) يرفض صفة النفعية للإنسان في استغلال منصبه وتحينه للفرص من أجل تلبية نزواته وأطماعه ؛ لأنَّ «الإنسان المسلم الذي يؤمن بالوحي الإلهي هو في موقع التكليف والتمكين للتعامل مع العالَم في ضوء هداية الوحي ، وهداية الوحي هي في الأساس ترشيد لوعي الإنسان تُجَاه العالَم وسعيه فيه»[3] ، ولكن بعضهم ينسى هذا التكليف ويعمل بالتمكين الذي وهبه الله له ولكن خارج إطار هداية الوحي فيتبع نزواته وأهواءه التي تخرجه عن الفطرة التي تكشف صور الفساد .

إنَّ الفطرة في العلاقات بين الناس تقوم على تحقيق العدل وحفظ الحقوق ، فذلك هو الأصل الذي تتحق به مصالح الناس ، أما عكس ذلك فهو فساد في العلاقات السوية بين الناس ، يقع بسببه الظلم وتضيع الحقوق ، وتتعاظم البغضاء والشحناء في

---

(1) نهج البلاغة شرح محمد عبده : ٣ / ٤٣٣ .

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٦٧.

(3) منهجية التكامل المعرفي مقدمات في المنهجية الإسلامية : ٢٣٦ .

قلوب الناس ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [١] .

وبما أنَّ بعض الإعمال تلوث فطرة الإنسان وتجعله لا يكترث لما يقع به من آثام وأخطاء ، وعندما يفقد الإنسان هذه الفطرة التي وهبها الله له يكون قد انسلخ من هيأته البشرية إلى هيأة حيوانية تحاول أن تغتنم الفرص للانقضاض على فريستها الضعيفة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [٢] وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [٣] .

ومن المناسب أنْ نشير، أنَّ بعضهم يرى «جملة (لا أبا لغيرك) تعد نوعاً من الاحترام لذلك الوالي ؛ لأنَّه عندما تحقر شخص : (لا أبا لك) ومن هذا المنطق فالإمام (عليه السلام) في الوقت الذي يخاطب فيه هذا الوالي بتلك العبارات اللاذعة والتوبيخات القارعة ، فإنه لا يزال يحترمه بالمقدار اللازم »[٤]، ويبدو أنَّ هذا الاحترام ليس للوالي وإنما للأرامل والأيتام لكون أنَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) يعد نفسه أباً لهم .

إنَّ ثورة الإمام (عليه السلام) تحمل عبق الأنبياء ورسالة السماء الساعية إلى تكامل الإنسان وسعادته وهي مختلفة الأهداف والغايات ، وكما يقول السيد محمد باقر الصدر : «إن الثائر على أساس نبوي ليس ذلك المستغل الذي يؤمن بأن الإنسان يستمد قيمته من ملكية وسائل الإنتاج وتمكنه في الأرض ويسعى من أجل ذلك في سبيل انتزاع هذه القيمة من يد مستغليه والاستئثار بها لنفسه ؛ لكي تفرض طبيعة هذا

---

[١] سورة الأعراف : ٨٥

[٢] سورة الأعراف : ١٧٩

[٣] سورة محمد : ١٢

[٤] نفحات الولاية شرح نهج البلاغة : ١٠ / ٩٣ .

الصراع أن يكون الانتماء إلى طبقة المستغلين هو الذي يحدد موقع الإنسان في الصراع بل الثائر النبوي هو ذلك الإنسان الذي يؤمن بأنَّ الإنسان يستمد قيمته من سعيه الحثيث نحو الله واستيعابه لكل ما يعنيه هذا السعي من قيم إنسانية ويشن حرباً لا هوادة فيها على الاستغلال باعتباره هدراً لتلك القيم وتحويلاً للإنسانية من مسيرتها نحو الله وتحقيق أهدافها الكبرى وإلهائها بالتكاثر وتجميع المال»[1] .

وفي ختام هذا الفصل تمتاز رؤية الإمام علي (عليه السلام) المعرفية بالتناسق والتعاضد ؛ لانّ رؤيته للحياة رؤية شاملة لكل أبعادها وأركانها وأجزائها ، فالاقتصاد متداخل مع السياسة ، وهما يعتمدان على تزكية النفس ، وسلوك الأخلاقي للإنسان الذي يراعى فيها مبادئ الإسلام التربوية القائمة على تفعيل عوامل الخير وتحريك الطاقات الكامنة في البشر وبقدرها يتقدم المجتمع وتتقدم مؤسساته ، وينهض بواقعه إلى مستويات عالية ، وكل ذلك رهن الفهم والتطبيق النابع من مصادر معرفة الإنسان الأولى وطريقتة العقلية في التفكير والاستفادة من تلك المصادر .

---

[1] الإسلام يقود الحياة : ٢٩ – ٣٠ .

الفصل الرابع

الحقيقة والوهم

مدخل

يواجه الإنسان في حياته المعرفية كثيراً من القضايا حول الكون والحياة ، وبما أنَّ الحقيقة في كل أمر ومسألة ، واحدة لا أكثر ، فلا بد أنْ يحكم بصحة بعض دون بعض، ويستحيل تصحيح جميع القضايا المتناقضة والمتخالفة ، وإصباغ ثوب الحقيقة عليها .

«وبما أنَّ كل إنسان يعدّ رأيه حقّاً ، ونظريته هي الصائبة ، فلا يمكن الاعتماد على تصديق القائل وإيمانه ، بل لا بدّ من الرجوع إلى ضابطة نميّز بها الحقيقة عن الوهم، والصواب عن البطلان ، وهذا من المباحث الحساسة في نظرية المعرفة »[١]

إنَّ ثمة علاقة عضوية بين الحقيقة ونظرية المعرفة بعامة وبين الحقيقة وإمكان الحصول على المعرفة بوجه خاص ، فغاية المعرفة المبثوثة آياتها في ميداني الآفاق والأنفس هي بلوغ الحقيقة ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [٢]

وفي الواقع «أن من عرف قراءة آيات الآفاق والأنفس ، وعرف كيف يتعامل معها، يدرك أنَّ لهذه الآيات الآفاقية والأنفسية قوة في آيات الكتاب في الدلالة على الحق»[٣].

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تؤكد تحكيم العقل والنظر في ملكوت السموات والأرض ، وهي كلها موجهة لأولي الإبصار ، أو لأولي الألباب ، أو لقوم يعقلون ، أو لقوم يتفكرون ، وقد ذهب بعض المتكلمين والفقهاء إلى أن النظر العقلي فرض كفاية على كل مسلم ، ومن هنا نستطيع أن نقول بوجه عام إنَّ الجمع بين الحقيقة والعقيدة أو بين العقل والنقل في الثقافة الإسلامية لم يكن من قبيل الجمع بين الأضداد ، بل كان جمعاً مشروعاً حث عليه الدين الإسلامي الحنيف [٤].

---

[١] نظرية المعرفة المدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات : ٢٣٣

[٢] سورة فصلت :٥٣.

[٣] نظرية المعرفة وتضميناتها التربوية :٤٠٥.

[٤] ينظر : مقدمة في الفلسفة العامة : ٢٠٨- ٢١٤.

إذ لا يمكن أن نجد مفهوماً مقنعاً للحقيقة إلا في إطار الثقافة الإسلامية ، إذ قال تعالى في محكم كتابه : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾[١] ، وقوله ايضاً : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾[٢] .

وبما أن الله هو الحق ، فهو مصدر ما نراه في هذه الدنيا من حق ؛ لأنّه هو الذي خلق بالحق ، وهو الذي يقضى بالحق ، ويهدي به ، إذ يقول عز وجل :﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾[٣] ، ويقول : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾[٤] ويقول : ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[٥]، ويقول : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ﴾[٦] ، وهو الذي أرسل رسوله بالحق قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[٧] وقوله أيضاً : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾[٨]

فالحقيقة في التفكير هي ما أنزل الله على عباده وما هداهم إليه ، وهو فرض عظيم، له من شمولية وقوة ، كما له ما ينزع سلاح معارضيه ، وهو أكثر المذاهب

---

[١] سورة الأنعام : ٦٢ .

[٢] سورة يونس : ٣٢ .

[٣] سورة يونس : ٥ .

[٤] سورة الروم : ٨ .

[٥] سورة غافر : ٢٠ .

[٦] ينظر : فلسفة العلوم بنظرة إسلامية :١٩، الآية من سورة يونس : ٣٥

[٧] سورة النساء : ١٧٠

[٨] سورة البقرة : ١١٩

استقراراً، وأقدرها على تفسير كل ما يعرض للإنسان من صعوبات ، وليس في ثناياه ضعف يمكن أن ينفذ إليه منه النقد [١].

إنَّ المقاييس والموازين التي بواسطتها نستطيع تمييز الحقائق والإدراكات المزيفة والكاذبة والخاطئة من الإدراكات والحقائق الصادقة واليقينية الصحيحة على وفق المنطق أو المذهب الإسلامي في المعرفة هي متنوعة ، ولكل واحدة منها مجالها خاص التي يمكن الافادة والاعتماد عليها في قياس الحقيقة اليقينية الصادقة .

وكل هذه الموازين والمقاييس تقرأ لنا الحقائق والإدراكات ، وتميز لنا الصادق والصحيح من الخطأ والكذب ، وهي حقائق ومعارف يطمئن القلب والعقل بها ، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعمل وذات عمق عميق للمعرفة ، سواء من حيث الدافع أو النتيجة ، وتفتح أبواباً وآفاقاً وتتمشى مع روح العقيدة والدين والأخلاق والفطرة الإنسانية .[٢]

ونحاول في هذا الفصل أن نبين جوانب الحقيقة والوهم في القضايا التي أثارتها الرسائل المتبادلة بين الإمام علي (عليه السلام) وخصومه ، وإيضاح صورة الحقيقة الكاشفة للواقع والفلسفة التي استند عليها في بيان تلك الحقيقة الكاشفة للوهم ، على وفق الغاية التي تسعى لكشفها نظرية المعرفة .

---

[١] ينظر : وحدة المعرفة : ٤٩

[٢] نظرية المعرفة في الإسلام :٣٨٥ .

١- الاستشراف :

الاسْتشراف في اللغة : أن تضع يدك على حاجبك وتنظر ، وأصله من الشرف العلُوّ كأنه ينظر إليه من موضع مرتفع فيكون أكثر لإدراكه ، ويقال أشرفت الشيء علوتُه ، وأشرفتُ عليه ، اطلعتُ عليه من فوق ، والتشرُّف للشيء التطلُّع والنظر إليه ، وحديث النفس وتوقُّعه [١].

وفي الاصطلاح : هو « ذكر أمور وأحداث غيبية تكون في المستقبل ، وتكون معرفتها عن طريق الوحي ، وهي كائنة لا محال ، ليستفيد منها المسلمون ، فيتجنبوا الوقوع في الزلل وينجو من الفتن »[٢] .

أما اصطلاحها الحديث : عبارة عن اجتهاد علمي منظم ، يرمي إلى صياغة مجموعة من التنبؤات المشروطة التي تشمل المعالم الأساسية لأوضاع مجتمع ما ، أو مجموعة من المجتمعات ، عبر مدة زمنية معينة ، وذلك عن طريق التركيز على المتغيرات التي يمكن تغييرها بواسطة إصدار القرارات [٣] .

وهذا الاستشراف هو جزء يكمن في عظمة المنهج الإسلامي في أنَّ مفهومه للعلم والمعرفة العلمية أوسع وأشمل من المفهوم الشائع لدى فلاسفة العلم على اختلاف مذاهبهم ، ذلك بأنَّ العلم الظاهر للإنسان هو ما يحققه بحواسه وعقله ، أما العلم الغيبي فهو ما يحتفظ به الله لنفسه ولا يطلع عليه إلا من شاء من خلقه ، ليكون الغيب أيضاً حقيقة علمية يؤمن بها الإنسان لتفسير ما يواجهه من أحداث القضاء والقدر ، وصدق الخالق إذ يقول : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٤]، ويقول :

---

[١] ينظر : لسان العرب ، مادة شرف : ٩ / ١٧٠ .

[٢] تأصيل استشراف المستقبل من خلال السنة النبوية ، د . محمد سيد أحمد شحاته ، مؤتمر جامعة القصيم : ١٩٥ .

[٣] ينظر : صور المستقبل العربي : ٢٢ .

[٤] سورة الأعراف : ١٨٨ .

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾[1] ويقول : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾[2] ، وليس أدل على ذلك مما أنبأ به القرآن الكريم من حقائق تاريخية لم يشهدها الإنسان على قصص الأنبياء السابقين مع شعوبهم ، أو حقائق علمية عن ظواهر الكون والحياة لم يكشف الإنسان إعجازها إلا في ضوء تقدم المعارف الحديثة [3]وبهذا يكون المنهج الإسلامي يختلف عن منهج الغرب ومنهم اوغست كونت الذي أخذ يفصل بين العلم والميتافيزيقا ويقابل بينهما ، باعتبار أنَّ الميتافيزيقا في نظره لا تجدي نفعا ولا تفيد في الحصول على أي حقيقة بديهية بحيث تنحصر الفلسفة في (بحث العموميات العلمية) لا غير أي في دراسة روح العلم ومناهجه [4] .

والمعرفة الاستشرافية في رسائل الإمام (عليه السلام) لم تكن وليدة النبوءة التاريخية الاستشرافية أو وعاء الخبرة الإنسانية ، كما يطلق عليها بعض الباحثين [5] وإنما هو علم من لدن عليم حكيم علمه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) كما تدل عليه رسائل الإمام (عليه السلام) ، وإخباراته فيها .

هذا العلم الاستشرافي في إظهار حقائق مطابقة للواقع المستقبلي والأحداث الصائرة قبل وقوعها ألا هو كشف للواقع من أجل إظهار نور الحقيقة ، وانجلاء غبار الوهم من عقول ونفوسهم التي صدأت من الذنوب ، ومن تلك الحقيقة نستعرض النصوص التي تكشفها ، وتظهر أن هناك مصدراً من مصادر المعرفة البشرية غير التي أشار لها أكثر فلاسفة الغرب وتبين ما تؤول له الأمور في الصراع الواقع بين الحق والباطل ومن ذلك ما جاء في رسالة أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى معاوية :

---

[1] سورة الجن : ٢٦ .

[2] سورة الأنعام : ٥٩ .

[3] فلسفة العلوم بنظرة إسلامية : ٢٤ .

[4] ينظر : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية :٣٣٦

[5] ينظر : النبوءة في الشعر العربي الحديث :١٩٧.

«وليس إبطائي عنك إلا ترقُّباً لوقت أنت له مكذبٌ وأنا به مُصدق ، وكأنِّي بك غداً وأنت تضجُّ من الحرب ضجيج الجمال من الأثقال ، وستدعوني أنت وأصحابك إلى كتاب تعظمونه بألسنتكم وتجحدونه بقلوبكم ، والسلام »[١].

هذا الخطاب الذي يظهر حقيقة معاوية في إخفاء ما يظهره على لسانه هو وأصحابه ، والانتظار والترقب من قبل الإمام (عليه السلام) للأحداث المستقبلية والاستشراف لما يحدث من ضجيج وقع السيوف ورفع المصاحف ، إظهار لحقيقتين : حقيقة معاوية في عدم إيمانه بالرسالة المحمدية من جانب ، وإظهار ما تؤول له الأحداث العينية في ساحة المعركة من رفع المصاحف وقضية التحكيم، ويشير الإمام بهذا إلى ما سيحدث لمعاوية وجيشه في صفين من الضعف واللجوء إلى المكر والخديعة برفع المصاحف .

وهذه الأحداث الصائرة ترسخ اعتقادنا بوجود علم لَدُنّي وهبه الله لفئة خاصة من البشر[٢]، وكما يقول أمير المؤمنين : «لقد علمني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من العلم ألف باب يفتح لي من كل باب ألف باب» [٣] واستشرافه هذا هو جزء من هذا العلم الواسع الذي علمه له رسول الله الذي قال فيه: «أنا مدينة العلم وعلي بابها » [٤] وقد علق الشيخ محمد عبده على هذا النص من الرسالة : «تفرس الإمام فيما سيكون من معاوية وجنده ، وكان الأمر كما تفرس »[٥] ، وقال الشارح المعتزلي : : «أما أن يكون قوله هذا فراسة نبوية صادقة وهو عظيم وأما أن يكون أخباراً عن غيب

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٣٤ .

[٢] أن مصطلح العلم اللدُنّي مستمده من قوله تعالى من سورة الكهف آية : ٦٥ ﴿وعلمناه من لدُنّا علماً ﴾ أي عن طريق الإلهام وهو من علوم الغيوب ، ينظر : الأصفى في تفسير القرآن : ٢٨٦.

[٣] الخصال : ٥٧٢ .

[٤] المستدرك على الصحيحين : ٣ / ١٢٦ ، ١٢٧ ، وصحيح الترمذي : ٢/ ٢٩٩ .

[٥] نهج البلاغة شرح محمد عبده : ٣ / ٣٤٨ .

مفعم ، وهو أعظم وأعجب »[١]

هذه الحقيقة الاستشرافية يطرقها الإمام (عليه السلام) في آذان معاوية وأصحابه من جديد عسى أن يهتدي بعضهم ، ويروا سبل الرشد والحقيقة ، إذ يقول (عليه السلام) في رسالة أخرى:

«فكأني قد رأيتُك تضجُّ من الحرب إذ عضّتك ، ضجيجَ الجمال بالأثال ، وكأني بجماعتك تدعوني جزعاً ــ من الضرب المتتابع ، والقضاء الواقع ، ومصارعَ بعد مصارع ــ إلى كتاب الله وهي كافرة جاحدة أو مبايعةٌ حائدة »[٢]

فخطاب الإمام (عليه السلام) الاستشرافي للأحداث ، ما هو جزء إلا من العلم الذي اخبر به الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وتسميات هذه الطوائف سماها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله لأمير المؤمنين : «ستقاتل بعدي الناكثين ، والقاسطين ، والمارقين » [٣] .

والإمام (عليه السلام) في معرفته وإخباره بالملاحم ليس بدعاً أو منفرداً فيه ففي قصص القرآن الكريم الكثير من الملاحم والأخبار التي جرت على لسان بعض الأنبياء والأولياء والصلحاء فهذا العبد الصالح الذي اتبعه نبي الله موسى (عليه السلام) على أن يعلمه مما علم رشداً والذي يقول عنه القرآن : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾[٤] وجاء في التفاسير إنه الخضر (عليه السلام) الذي قال بعضهم عنه انّه نبي وآخرون قالوا انّه ولي وعليه أكثر العلماء [٥]

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد :١٥/ ٨٣.

[٢] نهج البلاغة : ٤٣١ .

[٣] المستدرك على الصحيحين : ٤٦٧٤ ، والمعجم الكبير : ٤٠٤٩

[٤] سورة الكهف : ٦٥.

[٥] ينظر للمزيد ، سيدنا الخضر عليه السلام :٣١ –٣٥ .

وما حكى القرآن عن عيسى (عليه السلام) في قوله تعالى : ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [١] ، وإخبار الناس عن مدخراتهم وما يأكلون من المغيبات التي لا يقدر عليها أحد ، إلا أن تعرف وتعلم أنَّ مصدر كل علم هو الله سبحانه وتعالى .

وجواب أمير المؤمنين (عليه السلام) لأحد أصحابه حين سمعه يذكر بعض الملاحم فقال : لقد أحصيت يا أمير المؤمنين علم الغيب فقال : «يا أخا كلب – وكان القائل كلابياً – ليس هو علم غيب وإنما هو تعلم من ذي علم ، وإنما علم الغيب ، علم الساعة ، وما عدده الله سبحانه بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [٢]... فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد غير الله وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه فعلمنيه»[٣]

واستشراف الإمام (عليه السلام) للإحداث كثير وقد ذكرتها كتب التاريخ ، ومن استشرافه رده على رسالة زياد بن خصفة [٤] في شأن الخوارج ، جاء فيها :

«فاسمع بهم وأبصر فكأنك بهم عن قليل بين أسير وقتيل »[٥]

وقد صدق تنبؤ الإمام (عليه السلام) حين انتصر جيشه على الخوارج في معقلهم في الأهواز ، مما يدل على استشرافه الصادق لمجريات الأحداث مما يطرح تساؤلاً عن هذا العلم الجم ، إذ روي عن أبي إسحاق قال : «سألت قثم بن العباس كيف ورث

---

[١] سورة آل عمران : ٤٩.

[٢] سورة لقمان : ٣٤ .

[٣] نهج البلاغة : ٢٧٥

[٤] زياد بن خصفة بن ثقيف بن ربيعة بن الحارث بن تيم الله التميمي ، من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، كان أميراً في وقعة اليرموك ، شهد مع أمير المؤمنين (عليه السلام) معاركه كلها ، ينظر: الاستيعاب في معرفة الاصحاب : ١ / ٥٦٧ ، وأصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) والرواة عنه : ١ / ٢٢٧ .

[٥] تاريخ الطبري : ٤ / ٣٧٥ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام) : ٨٥ .

علي رسول الله (صلى الله عليه وآله) دونكم؟ قال: لأنه كان أولنا به لحوقاً وأشدنا به لزوقاً »[١]

وبعد فإنَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) كان «أمام تيار أعلامي مناهض من بني أمية ومن اليهود والمنافقين ، وغيرهم من أعداء الدين وأعدائه وهم يتربصون للنيل منه (عليه السلام) وإذا ما عرفنا أنَّ الكثير من إخباره بالملاحم كانت تمس بني أمية، وتتبئ بتاريخهم الأسود ، وظلمهم ، وما يكونون عليه من الضلال وسوء العاقبة»[٢].

ومن هنا نجد أنَّ معاوية يكذب هذه الإخبار الاستشرافية ، واصفا إياها بأنها أساطير لإبعاد الناس عن حقيقة ما أخبر به الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، بلسان أمير المؤمنين (عليه السلام) إذ يقول في جوابه عن تلك الرسالة الاستشرافية :

«أما بعد : فدعني من أساطيرك واكفف عني من أحاديثك »[٣]

هذا العلم الغيبي كان محط تمعن معاوية ومعرفة صدقه ، ومصدره لذا أخذ يوهم الناس بأنَّ ما يقوله أمير المؤمنين (عليه السلام) مجرد افتراء وكذب وليس له مصداق للواقع في المستقبل حتى لا تضعف جبهته وتقل حيلته في إيهام الناس ؛ فكان تكذيبه ودعوته بأنه أساطير مصداقاً لقول الله تعالى عندما تحدث عن أولياء الشيطان ، الذين يكذبون كل حقيقة ؛ لكي يوهموا الناس ، ويبعدوهم عن جادة الصواب ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[٤] .

---

[١] المستدرك الحاكم : ٣ /١٣٦ ، والمعجم الكبير: ١٩ /٤٠ ، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال : ٨ / ١٥٢ .

[٢] خمس لآلئ من كنوز نهج البلاغة :١١٩.

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٣٥ .

[٤] سورة الأنعام : ٢٥

ولابد أن نشير إلى أنَّ هذا العلم الاستشرافي ما هو إلا حقيقة اجتباها الله لبعض أوليائه إذ يقول الإمام الرضا (عليه السلام) : «... وأنَّ العبد إذا اختاره الله عز وجل لأمور عباده شرح صدره لذلك ، وأودع قلبه ينابيع الحكمة ، وألهمه العلم إلهاماً ، فلم يعِ بعده بجواب ، ولا يحيد فيه عن الصواب ، فهو معصوم مؤيد موفق مسدد ، قد أمن من الخطايا والزلل والعثار ، يخصه الله بذلك ليكون حجته على عباده وشاهداً على خلقه ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » [١] .

٢- الأفضلية :

ليس من السهل أنْ نتخيل حدوداً فاصلة بين مصدري الوحي والعالم ، فالقرآن الكريم يجعل نصوص الآيات المتلُوَّة المسطورة في القرآن مصدراً ، ويجعل آيات الله المخلوقة المنظورة في العالم مصدراً ، والله سبحانه هو منزِّل الكتاب وهو سبحانه خالق العالمَ ، فإليه يرجع الأمر كلّه؛ أي إنّ الله سبحانه هو المرجع فيما يرسمه للناس من أسباب الهداية وسبل الرشاد ، في أموره كلها [٢]، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٣] وقوله سبحانه ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾[٤] .

وبما أنَّ الحقائق تنقسم حسب مصدرها إلى حقائق إلهية ، وحقائق بشرية ، والحقائق الإلهية حقائق مطلقة ؛ لأنها خارج الزمان والمكان ، بينما الحقائق البشرية حقائق نسبية تتأثر بالزمان والمكان وتتحدد بحدودها ، والحقائق الإلهية حقائق أبدية

---

[١] الكافي : ٢٠٣/١ .

[٢] ينظر : منهجية التكامل المعرفي ، مقدمات في المنهجية الإسلامية :٢١٣ .

[٣] سورة هود : ١٢٣ .

[٤] سورة الرعد : ٣١ .

كلية بينما الحقائق البشرية موقوتة جزئية[١] ، «والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الباقي من الكتب الإلهية الذي يحتوي على الحقائق الإلهية نقية صافية »[٢]

وإن كثيراً من القضايا الاعتبارية ، واستنتاجاتها ، يكون المبدأ الإلهي هو الحد الفاصل في بيان حقيقة هذه القضايا ، ولا تبنى على أساس تسلسل زمني أو سياسي أو غير ذلك ، مثلما يراها البعض من أجل إخفاء حقيقة أو وصول لأهداف خاصة ، أو عن جهل .

إنَّ هذه الاستنتاجات يستعملها معاوية في إيهام نفسه والآخرين وإبعادهم عن حقيقة الإمام علي (عليه السلام) ؛ كونه الخليفة المنصَّب من قبل الله الموصى به من قبل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) من خلال إثارة قضايا يحاول فيها معاوية خلطه بين الحقائق الإلهية والحقائق البشرية ، وبذلك يخلط العلم بالظن ، والحق بالباطل ، والصدق بالكذب فتشيع الحيرة ويدب الاضطراب ، ومن تلك القضايا التي يثيرها من أجل خلق فجوة بين الإمام والجماهير ، قضية أفضلية الصحابة ، في محاولة فاشلة في خلق صورة ضعيفة للإمام في نظر الناس ، هذه القضية التي ألح عليها معاوية في أكثر من رسالة جاءت فاضحة لزعم معاوية وكشف زيفه وخداعه للرأي العام ، وهذا ما نراه في رسالته إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) التي جاء فيها :

«فان الله اصطفى محمداً بعلمه ، وجَعلَه الأمين على وَحيه ، والرسول إلى خلقه واجتبى له من المسلمين أعواناً أيَّدهُ بهم ، وكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام ، فكان أفضلهم في الإسلام ، وانصحهم لله ولرسوله الخليفة من بعده ، ثم خليفة الخليفة ، ثم الخليفة الثالث المظلوم عثمان »[٣] .

إنَّ خطاب معاوية في بيان الأفضلية ، يعتمد فقط على الرباط المنطقي المجرد بين المقدمات والنتائج ، أي «إذا كان هناك رباط منطقي بين المقدمات والنتائج لمسالة

---

[١] ينظر: فلسفة التربية الإسلامية : ٢٨١ .

[٢] م . ن : ٢٨١ .

[٣] العقد الفريد : ٤ / ٣٣٤ .

الفصل الرابع ـــــــ

الفصل الرابع ـــــــ

الفصل الرابع ـــــــ

حقيقة ولاية أمر المسلمين ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [١]

هذا الوهم يحاول الإمام (عليه السلام) رفع غشاوته عن الناس بعد أن ضللهم معاوية عن الحقيقة وأبعدهم عن نور المعرفة ، إذ يقول في المقطع الثاني من إجابته عن ميزان تفضيل معاوية السياسي « وانك لذهاب في التيه ، رواغ عن القصد ، إلا ترى غير مخبر لك ولكن بنعمة الله احدث » [٢] .

إنَّ « إسقاط أهواء الإنسان الخاصة وأمانيه الشخصية على الواقع الموضوعي ، مما يسبب له الوقوع في الوهم ، هذا الباب يمكن أن يقع فيه كل الناس من دون استثناء ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [٣] هنا نلحظ أن الأهواء والأماني هي مداخل الشيطان »[٤] ؛ لذا يكرر معاوية هذا الوهم القائم على مقياس سياسي وتسلسل زمني لخلافة المسلمين ، في بيان أفضلية الخلفاء من أجل الوصول إلى أهداف سياسية وإيقاع أكثر الناس في وهم مستنتج من خلال تسلسل زمني للسلطة، الذي بدوره يقوم بإبعاد السلطة من أصحابها الحقيقيين ، والتمهيد لأطروحة التفويض الإلهي[٥] .

إن إبعاد الناس عن حقيقة خلافة المسلمين وحقيقة آل البيت في القيام بدورهم المحوري في النهوض بواقع الأمة الإسلامية التي كلفهم الله بها يتأتى من محور تأصيل الوهم في القضايا الاعتبارية بين الناس ، وإبعادهم عن نور المعرفة الإسلامية

---

[١] سورة المائدة : ٥٥ .

[٢] نهج البلاغة : ٤٤٩ .

[٣] سورة الحج ٢٥.

[٤] الكتاب والقرآن قراءة معاصرة : ٣٦١ ، والآية من سورة النساء : ١٢٣ .

[٥] ينظر : الثورات العلوية كتابة التاريخ وقراءة الشعر : ٥٠ .

هذا الوهم جاء في المعنى نفسه في رسالة أخرى من معاوية إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) جاء فيها :

«ثم إنَّ الله سبحانه وتعالى اختص محمداً بأصحاب أيَّدوه ونصروه وكانوا كما قال الله سبحانه لهم : ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1] ، فكان أفضلهم مرتبة، وأعلاهم عند الله والمسلمين منزلة الخليفةُ الأول ، الذي جمع الكلمة ، ولَمَّ الدَّعوة وقاتل أهل الرِّدة ، ثم الخليفة الثاني الذي فتح الفتوح ، ومَصَّر الأمصار ، وأذل رقاب المشركين ، ثم الخليفة الثالث المظلوم الذي نشر الملَّة ، وطبَّق الآفاق بالكلمة الحنيفيَّة »[2].

في هذه الرسالة يحاول معاوية بيان أفضلية الخلفاء عن باقي المسلمين ، من خلال ترتيبهم لخلافة المسلمين وتسلمهم الحكم ، مضيفاً لهم إنجاز ما اهتموا به من سيرتهم في الدفاع عن الإسلام ونشره ، وما جرى من أحداث تخص الردة ، والفتوحات الإسلامية ، وغيرها ، مضمناً النص بآية من الذكر الحكيم ، تحاول تغطية قضية اعتبارية تحمل مسحة غيبية ، من مصدر المعرفة الأساس في نظرية المعرفة ، فضلا عن المعرفة التاريخية التي جرت مع الخلفاء ، لكي يضفي عليها شيئاً من صور الحقيقة .

وبما أنَّ الثقافة الإسلامية تجلت في اعترافها بقيمة التاريخ ، أو بقيمة الحقيقة التاريخية ، فقد اهتم بذلك القرآن الكريم اهتماماً خاصاً ، إذ يحكي لنا قصة الأنبياء مع شعوبهم ، وقصة ضلال هذه الشعوب وإيمانها ، حيث قصة نوح مع قومه ، وقصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل وقصة اليهود ومحاججتهم ، وقصة يحيى ومريم والمسيح وغيرها ، تجد عرضاً مهماً لإخبار الأمم ، وتشعر أنَّ الحقيقة التي أراد أن يقدمها الله لنبيه الكريم وللناس أجمعين ليست حقيقة مجرده ، بل هي مصاحبة لحركة التاريخ وتطوره وكل ما يدعونا إليه القرآن في آواخر تلك القصص التاريخية من تفكير

---

(١) سورة الفتح : ٢٩ .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ١٨٦ .

ونظر واعتبار ليس من قبيل التحذير العام المجرد ؛ لأنه تحذير يستند إلى وقائع التاريخ ونبض الحياة [١]

هذا الأسلوب القرآني في كشف الحقيقة ، من أجل التفكير والنظر يستلهمه أمير المؤمنين (عليه السلام) في كشف حقيقة الأفضلية لبيان أصحاب الحق وإظهارهم وكشف زيف أتباع الباطل وأوهامهم ، ورفع الحجب الظلمة التي بناها ستار الوهم للمتلقي الخاص من جانب والعام من الجانب الآخر، ولهذا أخذ الإمام مبادرة كشف الحقيقة من خلال مصدرها التاريخي بعد أنْ أظهرها من خلال مصدرها الغيبي القرآني؛ لذا يكمل حجته في أظهار واثبات الحقيقة ، إذ يقول في رسالته لمعاوية :

«فأراد قومنا قتلَ نبينا ، واجتياح أصلنا ، وهمُّوا بنا الهموم ، وفَعَلوا بنا الأفاعيل ، ومنعُونا المسيرةَ ، وأمسكوا عنا العذاب ، وأحْلسُونا الخوف ، وجعلوا علينا الأرصاد والعيون ، واضطرُّونا إلى جبل وعر ، وأوقدوا لنا نار الحرب ، وكتبوا بينهم كتاباً: لا يؤاكلوننا ولا يشاربوننا ولا يناكحوننا ولا يبايعوننا ، ولا نأمن منهم حتى ندفع إليهم محمداً يقتلونه ويمثّلون به ، فلم نكن نأمن فيهم إلا من موسم ، فعزم الله لنا على منعه، والذَّبَّ عن حوزته والرَّمي من وراء حومته ، والقيام بأسيافنا دونه ، في ساعات الخوف بالليل والنهار » [٢]

فالإمام (عليه السلام) يؤكد هذه الحقيقة التاريخية ليظهر من خلالها الحقيقة في قضية اعتبارية في كشف عن الأفضلية ، ثم يعرج في خطابه التاريخي إلى ما بعد الهجرة إذ يقول :

«ثم أمر الله تعالى رسوله بالهجرة ، وأذن له بعد ذلك في قتال المشركين ، فكان إذا احمرَّ البأس ، وأحجم الناس ودُعيت نزال ، أقام أهل بيته فاستقدموا ، فوقى بهم أصحابه حدَّ الأسنَّة والسيوف ، فقتل عبيدة بن الحارث يوم بدر ، وقتل حمزة يوم أُحُد، وقتل جعفر وزيد يوم مُؤتة ، وأراد من لو شئت ذكرت اسمه مثل الذي أرادوا من

---

[١] مقدمة في الفلسفة العامة :٢٠٩.

[٢] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٧٧ .

الشهادة مع النبي صلى الله عليه وآله غير مرَّة ، إلا أن آجالهم عجِّلت ، ومنيَّتَه أُجلت، والله ولي الإحسان إليهم ، والمنَّة عليهم ، مما أسلفوا من أمر الصالحات»[١]

فالإمام يبين ، ويذكر بعظمة الجهاد والشهادة ونرى منزلة الشهيد في الإسلام مصداقاً لقول رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«فوق كل ذي بر بر حتى يقتل في سبيل الله فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه بر»[٢] ولهذا كان محور الإيمان ، ومعاناة المسلمين قبل الهجرة ، والجهاد ، واستشهاد آل البيت محور الأفضلية وليس هناك من مقياس في أفضلية غير ذلك ؛ لذا يقول (عليه السلام) في ذلك

«فما سمعت بأحد ولا رأيته هو أنصح في طاعة الله ورسوله ، ولا أصبر على اللَّأواء[٣] والسَّرَّاء والضَّرَّاء ، وحين اليأس ، ومواطن المكروه مع النبي صلى الله عليه وآله ، من هؤلاء النفر الذين سميَّت لك ، وفي المهاجرين خير كثير يعرف ، جزاهم الله خيراً بأحسن أعمالهم »[٤]

وبهذا نرى أنَّ الإمام يبين أن هؤلاء هم الأفضل من خلال الرؤية الحسية السمعية أو البصرية ، فضلاً عن القبلية المتمثلة في التقوى ، فجعل من الحواس وسيلة لإدراك الحقيقة ، لهذا يمكن أن نقول في اطمئنان أنَّ دعوة الإمام (عليه السلام) في بيان الحقيقة في أفضلية جاءت نابعة من دعوة عقلية مستمدة من القرآن ، فضلاً عن استمدادها من الحس بشقيه البصري والسمعي .

كل هذا من شأنه أن يوقفنا على الصورة الحقيقية للإنسان كما أراد القرآن المجيد أن يقدمها لنا ، في ارتباطه بهذا العالم الواسع ، ليس من جانب صورته كونه نفخ في روحه وسواه في أحسن تقويم ، بل ارتباط بقيمته ومحيطه وإرثه المادي والروحي عبر مسيرة الأحداث التي حدثت للبشرية ، هذا الحرص القرآني الذي جاء في كثير من الآيات القرآنية وهذا الأسلوب في كشف الحقيقة ، استنجد به الإمام (عليه السلام)

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٧٧ .

[٢] الكافي : ٥ / ٥٣ .

[٣] اللَّاواء : الشدة .

[٤] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٧٧ .

في إثبات الحقيقة التي «تكشف عن قيمة الإنسان العالية وبالتزاماته العادلة وقوة ثباته على الحق ومصداقيته في سلوكه ، ومعاملاته بمعنى أن لا يختلف ظاهره عن باطنه ولا يوجد إلا في مواضع يحبها الله عز وجل ، ولا يتحرك إلا على وفق ما أملته الرسالة الإلهية حيث أن الالتزام بها والثبات عليها ، والمصداقية في القول والعمل هو خير ما يحسنه الإنسان العاقل الواعي المتقي الذي ترتفع قيمته في عالمي الدنيا والآخرة »[1]

ويحاول معاوية إخفاء الحقيقة ونشر الوهم في عقول الناس وإضعاف إيمانهم من خلال خطابه الذي يحمل بعداً نفسياً يحاول فيه الطعن في شخصية الإمام (عليه السلام) من خلال التهم وإلصاق الصفات البذيئة ، لكي يوهم الناس ويبعدهم عن حقيقة الإمام ، وعدم معرفة الواقع الحقيقي ، لكي يتحيرون في التيه ويسيرون في طريق العمى والضلال ، بعيدا عن المعارف الحقة ومن خلال استقراء الرسائل المتبادلة بينه وبين الإمام (عليه السلام) نجد أنَّ محور الرسائل هي تضليل الناس بعد أن يئس من موافقة الإمام في البقاء على ولاية الشام فراحت رسائله تخاطب أهل الشام وأهل العراق على السواء ، وليس غايتها الإمام لأنه يعرف حق المعرفة إنَّ الإمام (عليه السلام) لا تنطلي عليه أساليب المكر والخديعة ، فيحاول من خلال تلك الرسائل يوقع الضعف والشك في النفوس ، وتقليل الحقائق ، بل قلبها في بعض الأحيان من اجل الوصول إلى غاياته الدنيوية المنقطعة التي ما تكون أبعد عن الحقيقة.

وغاية معاوية من هذا التفضيل خلق فجوة بين الإمام والجماهير التي بايعته من أجل إحداث شرخ في وحدة المسلمين ، ويبدو أنَّ معاوية بنى هذا التصور من الوهم على علاقة الإمام مع عثمان ، كون أن الإمام (عليه السلام) نصح عثمان كثيراً ولكن عثمان لم يستجب لتلك النصائح ولم يستجب أيضا للجماهير ، قد عطف معاوية هذه العلاقة على خلافة عمر وأبي بكر (رضي الله عنهما)، ولكن كان متوهما إذ إنَّ علاقة الإمام (عليه السلام) كانت مع الخلفاء الثلاثة وكان مقياسها الإيمان بالله

---

[1] جدلية الصحابة بين النص والعقل والسيرة : ٩ .

الفصل الرابع ـــــــ

يهتدوا ، وجمعهم لكليما لا يتفرقوا وزكّاهم لكليما يتطهرون ، ورفّهَهُمْ لكيما لا يجوروا ، فلما قضى من ذلك ما عليه قبضة الله عزّ وجلّ صلوات الله عليه ورحمة وبركاته ، ثم أنَّ المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين ، عملا بالكتاب والسنة ، وأحسنا السيرة ، ولم يعدوا السنة ، ثم توفاهما الله عز وجل ، رضي الله عنهما ، ثم ولي بعدهما والٍ فاحدث أحداثاً ، فوجدت الأمة عليه مقالاً فقالوا ، ثم نقموا عليه فغيّروا ثم جاءوني فبايعوني فاستهدي الله عز وجل بالهدى ، واستعينه على التقوى ، ألا وإنَّ لكم علينا العمل بكتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله والقيام عليكم بحقه وتنفيذاً لسنّته »[1]

فحقيقة التفاضل في المنزلة ومكانة الإنسان في الإسلام نابعة من مبادئ الإسلام ، ومدى حرص الإنسان على السير في هدي كتاب الله ، وسيرة رسول الله ، فإصلاح الإنسان يتأتى من إصلاح سيرته ، وإتباعه مصادر المعرفة في الإسلام المتمثلة بالقرآن والسنة النبوية .

هذا السير على مبادئ الإسلام كان مقياساً للأمة ــ حينذاك ــ في صراعها الاجتماعي من أجل خلع قميص الخلافة ، وإحداث تغيير لصالحها من أجل الوصول لأهدافها كما كانت عليه في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

إنَّ هذه الحقيقة في ميزان التفاضل في الإسلام وأن هذه المنزلة والمكانة تثير التشكيك ، إذ قد يخطر في ذهن القارئ الكريم التشكيك في نصوص الرسائل التي عرضناها في التحليل ، بأنَّ هذا الإجلال للخليفتين الأول والثاني من وضع الوضاع ، ولما لهم من دور في الدفاع عن الخلفاء ، ولكن يجب أن يعلم القارئ إنما ما عرف من هؤلاء كان يسري على كل الخلفاء الثلاثة ، وليس على الخليفتين الأول والثاني فقط ، كما فعل معاوية وسار على منهجه الآخرون، فضلاً عن أن الإمام علي (عليه السلام) يعرف أنّ هؤلاء بشر معرضون للخطأ والسهو ، وهو إمام معصوم فيكون تفضيلهم على الوضع العام لهم من سلوك حسن في الدفاع والتمسك بكتاب الله والسير على سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

---

[1] تاريخ الطبري ٢٥٦/٤.

وحاول معاوية من خلال ميزان تفاضله غرس بذور الوهم في نفوس الناس ، وإحلال صور التفرقة بين الإمام (عليه السلام)، والخلفاء السابقين ، إذ يقول في رسالته إلى الإمام:

«فكلهم حسدت وعلى كلّهم بغيت ، عرفنا ذلك في نظر الشَّزر وقولك الهجر ، وتنفسُّك الصُّعداء ، وإبطائك عن الخلفاء ، وأنت في كل ذلك تقاد كما يقاد البعير المخشوس حتى تبايع وأنت كارهٌ »[١]

فمعاوية في خطابه للإمام (عليه السلام) يريد ترويج صورة مغايرة للواقع من أنَّ الإمام (عليه السلام) يحمل صفة الحسد والبغض للخلفاء ، مدعياً صدق ذلك بمدركات حسية ، منها النظر الشزر، وقول الهجر ، وتنفس الصعداء ثم ينتقل إلى دليل سياسي جاعلاً من معارضة الإمام السياسية السلمية دليلاً على حسده وكره للخلفاء الذي نتج عنه ظلماً لهم .

ويكرر معاوية هذا المعنى من الخطاب الوهمي في رسالة أخرى أراد منها ترسيخ ما يعتقد من هذه الأوهام في عقول الناس البسطاء ، وشيوعها لدى عامة الناس ، إذ يقول في رسالته إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) :

«وما من هؤلاء إلا من بغيتَ عليه وتلكّأتَ في بَيعَتهِ حتى حُملت إليه قهراً تساقُ بحزائم الاقتسار[٢]، كما يساق الفحل المخشوش »[٣]

إن الناظر لخطاب معاوية في الرسالتين يرى الهجمة الكلامية ظاهرة في نصوص رسائله ، فضلاً عن كتمانه الواضح لحقائق الأمور وتشويه صور الحقيقة المطابقة للواقع والمحكية عنه بصورة أدبية مبهمة لكي تلتصق بالأذهان وتروج بسرعة إلى أكثر عدد من الناس ويلتمس غايته السياسية إلى أمد طويل .

وأمير المؤمنين (عليه السلام) لا يترك هذه الرسالة من دون إجابة على الرغم من معرفة الإمام لمعاوية وخديعته ، ولكن كان هدف الإمام (عليه السلام) رفع الوهم

---

[١] العقد الفريد : ٤ / ٣٣٤ .

[٢] قسره على الأمر : قهره ، أجبره .

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ١٨٦ .

والشبهة عن الناس لأن دور أئمة الهدى هو أن يؤدوا الأمانة ، وأن ينصحوا الغوي والرشيد [١].

ولهذا أراد الإمام(عليه السلام) رفع الالتباس، وإظهار الحقيقة فأجاب معاوية في رسالة جاء فيها:

«وذكرت حسدي الخلفاء وإبطائي عنهم وبغي عليهم ، فأما البغي فمعاذ الله أن يكون ، وأما الإبطاء عنهم والكراهية لأمرهم فلست أعتذر إلى الناس من ذلك »[٢]

فأحقية الإمام (عليه السلام) في الخلافة ، وكفاءته من هذا الجانب واضحة للمهاجرين والأنصار، لكون أمير المؤمنين أولى الناس بالرسول محمد (صلى الله عليه واله وسلم) وهذا كان احتجاج الصحابة على الأنصار في قضية القرب من الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) .

إنَّ حقَ الإمام (عليه السلام) في خلافة المسلمين جاء كونه القائد الشرعي للمسلمين من خلال وصية رسول الله وقربه وسبقه للإسلام ، فكان له الحق في التباطؤ في عدم مبايعة من هم أقل فضلاً وسابقة وقرابة في الإسلام ولهذا كانوا أقل شأناً في قيادة هذه الأمة ، والحفاظ على إنجازاتها التي قام بها الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان الأحرى من المهاجرين أن يقفوا بجانب القيادة الحقة للمسلمين لا أن يتلقفوها ويخرجوها من بيت الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)

«فلا أدري أصحابي سلموا من أن يكونوا حقّي أخذوا ، أو الأنصار ظلموا ؟ بل عرفت أنَّ حقي هو المأخوذ ، وقد تركته لهم ، تجاوز الله عنهم »[٣] .

لقد أخرج الصحابة الحق من أهله ، وأخذوه إلى غير محله ، على الرغم من وصايا الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) لهم وإلى الأمة في خلافة هذه الأمة .

---

[١] ينظر : كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) في رسالته إلى معاوية ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٣٣ .

[٢] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٧٨ .

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٧٨ .

وفي الواقع «إنَّه لمن الغريب أنْ ينسى العرب جهاد علي بن أبي طالب في سبيل الإسلام ، ودفاعه عن النبي محمد وبلاءه في المعارك ونومه في الفراش ، وتقديمه الفداء والضحايا من أسرة أبي طالب في سبيل الإسلام ، نسوا والده أبا طالب وجهاده في سبيل الدعوة الجديدة واحتضانه محمد ، وإيثاره إياه وحدبه عليه ووقوفه بوجه قريش يذبُّ عنه ، ويتحدى كل من يحاول أن يمسه بأذى »[١] .

لقد ترك الإمام (عليه السلام) هذا الحق في خلافة المسلمين من أجل كلمة الله ومن أجل وحدة المسلمين وهو القادر على أخذ حقه .

ولكن تركه طوعا للحفاظ على بيضة الإسلام ، وهذا يؤكد بأنَّ الخلافة تختلف عن الإمامة ؛ لأنَّ الإمامة أحدى منطلقات المعرفة كما ذكرنا في الفصل الأول ؛ كونها من أصول الدين .

ويؤكد الإمام (عليه السلام) القدرة والمنعة في أخذ حقه ؛ لكونه لم يكن شاكاً ولا مرتاباً في دينه فيقول :

«وقلت إنِّي كنت أُقاد كما يقاد الجمل المَخشُوشُ حتى أبايع ، ولَعَمرُ الله لقد أردتَ أن تذُمَّ فمدَحتَ ، وأن تفضحَ فافتضحتَ ، وما على المسلم من غضاضةٍ[٢] في أن يكون مظلوماً ، ما لم يكن شاكّاً في دينه ، ولا مرتاباً بيقينه ، وهذه حجَّتي إلى غيرك قصدُها ، ولكني أطلقت لك منها بقدر ما سُنح من ذكرها »[٣]

ولهذا كان ذم معاوية هو مدح لأنَّ الذي له القدرة والقوة والمنعة ، في اخذ حقه ويتركه لأصحابه تجاوزا في الله من أجل وحدة صف المسلمين ، يكون غاية في النبل والفضيلة في الإسلام .

ويؤكد الإمام (عليه السلام) حقه في الخلافة وتركه لها بوجود الناصر حينئذ من خلال رجوعه إلى مصدر المعرفة التاريخي المحكي عن الواقع مذكراً معاوية به في رسالة جاء فيها :

---

[١] الإمامة في الإسلام : ٥٥

[٢] غضاضة : نقص .

[٣] نهج البلاغة : ٤٥٢ .

«وقد كان أبوك أبو سفيان أتاني حين قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال: أنت أحقُّ بمقام محمد ، وأولى الناس بهذا الأمر ، وأنا زعيم لك بذلك على من خالف، ابسط يدك أُبايعك ، فلم أفعل ، وأنت تعلم أن أباك قد قال ذلك وأراده ، حتى كنت أنا الذي أبيْتُ عليه ، مخافة الفرقة بين أهل الإسلام ، لقرب عهد الناس بالكفر ، فأبوك كان اعرف بحقّي منك »[١]

وهذا يدل على أنَّ الإمام (عليه السلام) كان في موضع قوة وليس في موضع ضعف مخافة الفرقة بين أهل الإسلام ، وهو القائل :

«لقد علمتم أني أحق بهذا الأمر من غيري ، ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلا عليَّ خاصة التماساً لأجر ذلك وفضله ، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه »[٢]

والإمام (عليه السلام) يعرف المؤامرة على المسلمين ، وكان همّه الوجود الإسلامي ووحدة صفه ، وكان كاره وبطيء في الاستجابة لبيعة الخلفاء ؛ كونه الأحق من غيره ولكن عندما كانت المسألة تهم وحدة المسلمين كان سهلاً وخفيفاً ومطيعاً في الاستجابة كالجمل المخشوش[٣] ، ويقول الدكتور علي شريعتي في هذا الشأن «وحينما أحس علي بأنَّ تجريد سيفه من أجل إحقاق حقه واسترداده يؤدي إلى إبادة مركز الخلافة الإسلامية والقضاء على القدرة الإسلامية لجأ إلى الصبر ، صبر ربع قرن كاملا ، وعاش في ظروف ومعاناة تبعث في الإنسان نفس الشعور الذي توحيه حياة (

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ٧٨ .

[٢] نهج البلاغة شرح محمد عبده : ١ / ٩٨ .

[٣] وخششت البعير ، فهو مخشوش ، وفي حديث جابر: فانقادت معه الشجرة كالبعير المخشوش ؛ وهو الذي يجعل في أنفه الخشاش ، والخشاش مشتق من خشَّ في الشيء إذا دخل فيه لأنه يدخل في أنف البعير ، ينظر : لسان العرب ، مادة خشش : ٦ / ٢٩٦ .

وجاء المعنى هنا السهل الخفيف كما بينا ؛ لكون أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال : لعمر الله لقد أردت أن تذم فمدحت .

بروميثيوس)[1] المكبل بالسلاسل ؛ بيد أنَّ علياً لفّ على نفسه تلك السلاسل من أجل الإنسان ، ربع قرن كاملا يبقى منطفئاً صامتاً وهو صاحب الروح الوثابة الذي باشر العمل في النهضة الإسلامية منذ أن كان في العاشرة من عمره »[2]

وهنا لابد أن نشير إلى الخطأ الذي وقع فيه بعض مَنْ كَتَب[3] في أن الإمام (عليه السلام) كان قد بايع بسبب القوة التي دخلت داره بقيادة عمر بن الخطاب مؤكدين ذلك من خلال كلمة الجمل المخشوش ، أقول لا يستطيع أي أحد أن يتجرا على أمير المؤمنين ، لشجاعته التي نادت بها السماء قبل الأرض «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي»[4] وهو قالع باب خيبر ، فضلاً عن أنه لم يكن هناك في قريش مَن يملك شجاعة عمرو بن ود العامري الذي قضى عليه الإمام وهو فتى صغير فكيف به الآن وقد عرفته العرب والعجم بأنه الرجل الذي لا يهاب ، أليس هو القائل لابن حنيف : «والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليَّت عنها، ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت إليها »[5] ، يقول الشارح المعتزلي في شجاعته « وأما الشجاعة: فإنه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله ، ومحا اسم من يأتي بعده، ومقاماته في الحرب مشهورة يضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة ، وهو الشجاع الذي

---

[1] شخصية من أساطير الآلهة اليونانية ، يعيش حياة سعيدة ، وقد تعاطف من أجل الإنسان ، فيثور من أجله ويختطف النار من أرض الآلهة من العالم العلوي الذي تسكنه الآلهة ، ويهبط بها إلى الأرض ، ويقدمها هدية للإنسان الذي يخيم عليه الظلام ويعذبه البرد القارس في الليل الحالك المستمر بل ضياء ، فيشعر الإنسان بالدفء وينتشر النور في حياته ، وما إن قام بهذا حتى غضبت عليه الآلهة ؛ فالقوا القبض عليه وكبلوه بالأصفاد وحبسوه في الجبال ، وهكذا ظل بروميثيوس حلماً يراود البشرية ويدغدغ عواطفها لتضحيته من أجل الآخرين . ينظر : الآلهة والأبطال في اليونان القديمة : ٩٥ – ١٠٧ .

[2] الإمام علي :٩٣.

[3] ينظر : مأساة الزهراء عليها السلام : ٢ / ٤٥ ، وموسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب :١/ ٣٨٩– ٣٩٠ ، وأعلام الهداية الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام):١٣٧.

[4] الكافي : ٨ / ١١٠ ، ونظم درر السمطين : ١٥٤ ، وكنز العمال : ٥ / ٧٢٣ .

[5] نهج البلاغة : ٤٨٩ .

ما فر قط ، ولا ارتاع من كتيبة، ولا بارز أحدا إلا قتله ، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الأولى إلى ثانية »[١] ، ويقول الفاخوري في ذلك أيضاً : «كان علي فارساً شجاعاً حتى كان يخلع أشد الفرسان صولة وارهبهم جانباً من صهواتهم ، فيرفعهم بيده في الهواء ويجلد بهم الأرض جلداً ، ولا جاهداً ولا متعباً، إلا أنَّ شجاعته هذه لم تقده إلى التهور والظلم ، فكان دائماً رجل الرحمة والعفو عند المقدرة ، لا يحمل في قلبه ضغينة ، ولا يجعل للحقد منفذاً إلى نفسه . وهكذا كان دائماً سليم الطوية ، شديد الاتكال على الله في مجازاة كل إنسان على حسب أعماله»[٢].

٣- إلصاق التُّهم :

عندما يدمغ الحق الباطل ، ولا يستطيع أهل الباطل الرد ، فيجنحوا إلى التهم والأوصاف حتى يصدوا الناس عن الحقيقة من خلال إيثار الشبهة والتهمة ، وهذا الصنيع سار عليه مشركو قريش ضد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، واتهموه بأنَّه ساحر تارة ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[٣] وتارة بالجنون ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[٤] وبإتيان الأساطير ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[٥] وغيرها من التهم التي ذكرها القرآن ، وهذه التهم يلقيها كل المكذبين لرسلهم كأنهم تواصوا بها ، وقد رد القرآن على هذه التهم بأن ذلك تخبط منهم وضلال وعدم اهتداء ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١ / ٢٠ .

(٢) الجامع في تاريخ الأدب العربي ، الأدب القديم : ٣٤٣ .

(٣) سورة ص : ٤ .

(٤) سورة الحجر : ٦ .

(٥) سورة الفرقان : ٥ .

الفصل الرابع ـــــــ

ويأس ... ليس لها وجود خارجي كالأجسام ، ولكنها بالقياس إلى العدم ، لها واقعيات، كما أن لها آثاراً تصحيح كشفها والانتقال إليها ، والحكم بصحة أو بطلان ما نقضي عليها من أحكام »[1]

ولو محصنا الرسائل المتبادلة بين الإمام علي (عليه السلام) وخصومه واستقرأنا تلك النصوص ، بعين البحث عن الحقيقة وعلى وفق المنطوق الإسلامي ، نجد نماذج يطلق عليها بطلان الحقيقة ووصف الوهم ليس الوهم الذاتي ، وإنما الوهم الخارجي الذي يحاول فيه معاوية إيهام الناس وإبعادهم عن المعرفة ، وبذلك يكون إبعادهم عن حقيقة ولاة أمرهم وقيادتهم الحقيقية ، ومن تلك النصوص ما نجده في رسائل معاوية إلى الإمام (عليه السلام) في اتخاذ قضايا بعيدة عن الواقعية في وصف الإمام (عليه السلام) من اجل إيهام الناس إذ يقول :

«فأمَّا ما لا تزال تمُنُّ به من سابقتك وجهادك ، فإنّي وجدت الله سبحانه يقول : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2] ولو نظرت في حال نفسك لوجدتها أشد الأنفس امتناناً على الله بعملها ، وإذا كان الامتنان على السائل يبطل اجر الصدقة ، فالامتنان على الله يبطل أجر الجهاد ، ويجعله كصفوان عليه تراب فأصابهُ وابلٌ فتركهُ صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين »[3]

إنَّ مظهر خطاب معاوية معرفي محكم بمصدر المعرفة الأول (القرآن الكريم) ؛ كون الامتنان على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بالاعتقاد بالإسلام لا يخرج من أفواه المؤمنين الحقيقيين ؛ لكون المؤمن الصادق لا يمن بإيمانه ؛ لأنَّ الله هو الهادي إلى طريق الصلاح والهداية ، فإسناد الكلام إلى مصدر المعرفة الأول يكسب الكلام حقيقة ذهنية ، حاول معاوية إيصالها إلى المتلقي ، ويؤكد معاوية خطابه

---

[1] نظرية المعرفة المدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات :٢١٨.

[2] سورة الحجرات : ١٧ .

[3] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ١٨٧ .

للمتلقي بمقياس آخر هو إبطال الصدقات بالمنِّ بسبب الرياء المسند في سورة البقرة[١]، لكي يكون أكثر تأكيدا وأعز مصداقية للمتلقي ذهنياً من ناحية اعتبارية ، ولكن على الرغم من معرفية خطاب معاوية في صفه والامتنان على الله ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الإيمان والجهاد وعلم معاوية بأنَّ هذا الخطاب المعرفي لا ينطبق على الإمام علي (عليه السلام) ؛ لكون المخاطب الذي ذكره القرآن الكريم كان انعكاسه في صفة المن على رسول الله يقول (يمنون عليك) أي على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولكن حاول معاوية إلصاق هذه الصفة التي نبذها الله في كتابه إلى الإمام علي (عليه السلام) حتى تشتبه على الناس الحقيقة ، ويوهمهم أن الآية الكريمة تنطبق عليه من أجل مصالح سلطوية ضيقة .

وحسب الناظر في عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يجد أن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قد قلد أمير المؤمنين (عليه السلام) وساماً من أعظم الأوسمة التي تقلدها حينما قال في يوم الخندق : «برز الإيمان كلّه إلى الكفر كلّه »[٢] فقد حدد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي يعد مصدر المعرفة الأول بعد القرآن في نظرية المعرفة من وجهة إسلامية ، الإمام بالإيمان بجميع رحابه ومفاهيمه ، فضلا عن تمييز رسول الله أمير المؤمنين وأهل البيت (عليه السلام) عن سائر الناس في أحاديث ومواقف وتقريرات شتى ، ومنها موقف المباهلة مع نصارى نجران ، التي تعد أنَّ علياً (عليه السلام) كان هو نفس الرسول ، كما في كثير من التفاسير[٣]، وفي هذا الشأن يقول الدكتور عارف تامر « مما لا شك فيه أنَّ الرسول الكريم كان يؤثر علياً على كافة الأقرباء ، والأصحاب ، بل على كافة المسلمين ...

---

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٦٤]

(٢) ينابيع المودة : ٢ / ٢٨١ ، وبحار الأنوار : ٣٩ / ١.

(٣) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : تفسير القرآن الكريم لابن كثير، سورة آل عمران أية ٦١ ، ومجمع البيان في تفسير القرآن ، تفسير سورة آل عمران آية : ٦١ وغيرها من التفاسير .

فهو المجاهد الأول في سبيل رسالة الإسلام ، وصهره ، وابن عمه ، وفق هذا أبلغ العرب وأشجعهم وأكرمهم وأفقههم فمن هو أفضل منه في المسلمين »[١]

هذه الصورة والمنزلة عند رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ، حاول الإمام (عليه السلام) استحضارها في دفع هذا الإيهام عن عقول الناس ، هذه الإجابة كانت حاضرة لبيان الوهم الذي أراد معاوية إيقاع الناس فيه ، وبيان أنَّ قضية المن على الله ورسوله لا يطابق الواقع المشار إليه في رسالة معاوية ؛ وإنما يطابق الناس الذين لم يكونوا صادقين في إيمانهم كما ذكرت الآية القرآنية ، لذا كان جواب الإمام(عليه السلام) في بيان المكر والخديعة:

«وإنَّك لذهَّاب في التِّيه ، رَوَّاغ عن القصد ، ألا ترَى ــ غيرَ مخبرٍ لك ولكن بنعمةِ الله أُحدِّثُ ــ أنَّ قوماً استُشهدُوا في سبيلِ الله تعالى من المهاجرينَ والأنصارِ، ولكلٍّ فضل ـ حتَّى إذا استشهد شهيدنا ، قيل : سيد الشُّهداء ، وخصَّه رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه، أولا ترى قوما قطِّعت أيديهم في سبيل الله ــ ولكلٍّ فضل ــ حتى إذا فعل بواحدنا ما فعل بواحدهم ، قيل الطيَّار في الجنَّة وذو الجناحين ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمَّةً تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجُّها آذانُ السامعين .

فدع عنك من مالت به الرَّميَّةُ فإنَّا صنائعُ ربِّنا ، والناس بعدُ صنائعُ لنا »[٢]

إنَّ تزكية الإنسان لنفسه قد نهى الله عنها ولكن هذه التزكية كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي أعلنها أمام الناس في مواضع عدة وكثيرة .

هذه التزكية في إبعاد الصفات التي نهى الله عنها من أهل البيت كانت صادرة من مصدر معرفة المسلمين الأولى المتمثلة (بالقرآن والرسول الكريم) ، ومعاوية يعرف ذلك ولكن كان ذاهباً في التيه والضلالة ، قاصداً المكر والخديعة من أجل حب السلطة، والمنافع الدنيوية المؤقته .

---

[١] الإمامة في الإسلام : ٥٤ .

[٢] نهج البلاغة :٤٥٠ – ٤٥١ .

إنها حقيقة تعرفها قلوب المؤمنين وتمجها آذان الكافرين ، وهي إشارة إلى قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «لا يبغضك يا علي إلا الكافر ولا يحبك إلا المؤمن »[١]

هذا الإيمان بالله ورسوله ، وهذه السابقة في الإسلام والجهاد هي نعمة الله على آل البيت (عليه السلام) ، كان رسول الله هو المحدث بها لكي لا تضل الأمة بعده ، وتسقط في مستنقع الضلالة التي أنت تريدها ، وتحاول إخفاءها ، هذه الحقيقة كان مصدرها رسول الله بعد كتاب الله «فإسلامنا ما قد سمع وجاهلينا لا تدفع ، وكتاب الله يجمع لنا ما شذ عنا وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، فنحن مرة أولى بالقرابة ، وتارة أولى بالطاعة »[٢].

وكان من لوازم « سنة الكمال أن يكون الأوصياء من ذرية محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) لأنَّه من أعطى صفة الكمال يجب أنْ يكون كاملاً في جميع النواحي وبه يختتم الكمال البشري ، إنَّ الكمال سلسلة متصلة الحلقات بين نبينا محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) وأولاده المعصومين (عليه السلام) وقد نص عليهم رسول الله في مواضع عدة ، فطوبى لنفوس اهتدت بهداهم واستسقت من معين علومهم واستفادة من ينبوع كمالهم وعملت بما أمروا به وانتهت عما نهو عنه فسلكت مسالكهم وتابعت خطاهم»[٣] ، وقد قال رسول الله فيهم(صلى الله عليه وآله وسلم): «فلا ترجعن كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ألا هل بلَّغت ؟ اللَّهم اشهد »[٤]

ولهذا فالقضايا الذهنية لها واقع وإنْ لم يكن لها خارج ، وإن لم يكن كذلك فهي وهم .

---

[١] مسند أحمد بن حنبل : ٦ / ١٩٢ ، وتذكرة الخواص : ٣٥ .

[٢] نهج البلاغة : ٤٥٢ .

[٣] التكامل في الإسلام : ٢ / ٣٦١

[٤] تحف العقول عن آل الرسول : ٣٠ .

الفصل الرابع ـــــــ

يطول فيها الريب أنَّ علياً ـ رضي الله عنه ـ لم يكن أقدر على اجتناب هذا المصير من معاوية أو عثمان نفسه ، ولو شاء عثمان أن يستمع إلى بعض الناصحين إليه فقد كان معاوية والياً عزيزاً ، له جند ، يرسله إلى الخليفة فيحميه في الشدة اللازبة وإن أباه ... أما علي فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيله العقل في تلك الأزمة المحفوفة بالمصاعب من كل جانب ، كان الثوار يحسبونه أول مسؤول عن السعي في الإصلاح ، وكان الخليفة يحسبه أول مسؤول عن تهدئة الحال وكف أيدي الثوار، ولم يكن في العالم الإسلامي كله رجل آخر يعاني مثل هذه المعضلة ، التي تلقاه من جانبيه كما حاول الخلاص منها ولا خلاص »[١].

أين التآمر فالواقع كاشف للحقيقة التي وصل بها الأمر أن قال الإمام (عليه السلام) لابن عباس «ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جملاً ناضحاً بالغَرْبِ [٢]؛ أقبل وأدبر ! ... والله لقد دفعتُ عنه حتى خشيتُ أن أكون آثماً »[٣]بعد أن يسأله الخروج من المدينة مرة أخرى .

ولهذا يكمل العقاد : «مع هذا صنع الإمام غاية ما صنعه رجل متعلق بالنقيضين ... جاءه الثوار مرة يتخطون الخليفة إليه ويعرضون الخلافة عليه ، فلقيهم أسوأ لقاء، وأنذرهم لئن عادوا إليها ليكونن جزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم جزاء العصاة المفسدين في الأرض »[٤].

ومعاوية يعرف ذلك أكثر مما يعرفه العقاد ، ولكنه يوهم الناس لإبعادهم عن الحقيقة لكي يبقوا في الضلالة والتيه .

---

[١] عبقرية الإمام علي : ٤٧

[٢] الدلو العظيمة ، والكلام تمثيل للتسخير .

[٣] نهج البلاغة : ٤١٨ .

[٤] عبقرية الإمام علي : ٤٩ .

والإمام علي (عليه السلام) أقرب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والأحق بالخلافة من غيره بشهادة الصحابة ومنهم قيس بن سعد الأنصاري [١] في كتابه إلى معاوية بن أبي سفيان الذي جاء فيه :

«فإنَّ العجب من اغترارك بي وطمعك فيّ واستسقاطك رأيي أتسومني بالخروج من طاعة أولى الناس بالإمرة ، وأقولهم للحق ، وأهداهم سبيلاً ، وأقربهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وسيلة وتأمرني بالدخول في طاعتك ، طاعة أبعد الناس هذا الأمر، وأقولهم للزور وأضلّهم سبيلاً ، وأبعدهم من الله عز وجل ورسوله وسيلة »[٢] .

إنَّ إلصاق التهم جريمة عظيمة وخطيئة منكرة ، وعاقبته خطيرة نهى عنها الشرع فقال : ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [٣].

٤- السلم والحرب :

اعتاد كثير من الناس حين يكتبون عن الفقه المتعلق بالعلاقة بالغير في حالتي السلم والحرب أنْ يقولوا: فقه الحرب والسلام، بتقديم الحرب على السلام، والضبط الشرعي أن يقدم السلم على الحرب ؛ ذلك أنَّ حكمة الإسلام في هذا الأمر قائمة على تقديم السلام على الحرب ؛ لأنَّ السلام أصل، والحرب استثناء، والسلام أمر كلي

---

[١] قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، من كبار الصحابة ، شهد مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) المشاهد كلها ، وحمل راية الأنصار، كما شهد مع أمير المؤمنين (عليه السلام) حروبه كلها أيضاً ، ولاه الإمام (عليه السلام) مصر ، وكانت وفاته سنة ٦٠ هـ في مدينة المنورة ، ينظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ٣ /٢٢٤ ، والغدير: ٢٢ / ٦٧ – ١١٢ ، وأصحاب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) والرواة عنه : ٢ /٤٨١ .

[٢] تاريخ الطبري : ٤ / ٢٥٨ .

[٣] سورة النور : ١٥ .

والحرب فرع جزئي، والسلام حياة ، والحرب موت، وأن الله تعالى لم يخلق الناس ليتقاتلوا فيما بينهم فيموتوا بحروبهم، وأنه إن جعل من أسمى الأعمال عنده الموت في سبيل الله، فعند التحقيق، فإن الحياة في سبيل الله قد لا تقل عن الموت في سبيل الله، وإنما فضل الشهيد آثرته بنفسه فقدمها ليحيا الآخرون [١].

يعرف السّلْم لغة : بأنه ضد الحرب ، ومنه اشتقاق السلامة والسلام ، وبمعنى الصلح ، والعافية ، والأمان ، والنجاة ممّا لا يرغب فيه ، فيقال سلِم من الأمر نجا منه[٢] ، ويستعمل مصطلح السِلْم والسلام كمعاكس ومنافٍ للحرب ، وأعمال العنف الحاصل بين الشعوب المختلفة أو طبقات المجتمع المتباينة أو الدول المتنافسة ، أو هو: «حالة من الأمن والاستقرار والتفاهم تسود العالم أو منطقة منه ، ولا بد أن تستفيد الإنسانية كلها منه بوصفه قيمة مطلقة تمنع اندلاع الحروب لتحقيق الإفادة الفعلية للبشرية من التقدم العلمي والتكنولوجي »[٣] .

والقرآن الكريم يدعو إلى الحوار؛ لتفادي الحرب والجنوح إلى السلم ، قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [٤]، فمسألة الدعوة ليست مجرد أمر مباح فقط ، وإنما أمر به الإسلام وجعله واجباً على الإنسان المسلم ، أي أنَّ قضية الحوار في سبيل قضايا الإسلام ليست مجرد حق للمسلم إن شاء قام به ، وإن شاء تركه ، وإنما هو واجب عليه أن يضطلع به ويتحمل أعباء القيام به ، كما أنَّ الآية القرآنية ترشدنا إلى مسألة أخرى ، وهي أنَّ الدعوة السلمية تشكل الخيار الأول للإنسان المسلم وليس العنف أو

---

[١] ينظر : الإسلام دعوة سلام لا حرب ، مسعود صبري ، مقالة على موقع إسلام أون لاين ، ١٧ مارس ٢٠١٦ .

[٢] ينظر : جمهرة اللغة : ٢ / ١٥٨ .

[٣] الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية : ٢٣٨ .

[٤] سورة النحل : ١٢٥

استخدام وسائل الترهيب والإكراه وحمل السلاح والاقتتال ، وليس كذلك الموقف الانعزالي الذي لا يكترث به للآخرين [١].

ومن الحقائق التي تظهرها الرسائل بين الإمام علي(عليه السلام) وخصومه ، دعوة الإمام للسلام، وعدم دخول الحرب ، مستعملاً كل الطرق لتجنب الحرب ، إذ نجد ذلك في دعوته لعائشة للكف عن الحرب وعدم إهراق الدماء بعد أن شدت الرحال الى البصرة (وهي مفعمة بجروح الحقد لآل علي)على حد تعبير المستشرق ولاستون[٢] رافعة دم عثمان شعاراً للحرب ، إذ يقول في رسالته لها :

« إما بعد : فإنك خرجتِ غاضبةً لله ولرسوله تطلبين أمراً كان عنك موضوعاً ، ما بال النساء والحرب والإصلاح بين الناس ؟ تطلبين بدم عثمان ولعمر لمن عرَّضك للبلاء ، وحملك على المعصية أعظم إليك ذنباً من قتلة عثمان ، وما غضبت حتى أغضبت وما هِجْتِ حتى هيّجتِ ، فاتقي الله وارجعي إلى بيتك »[٣]

نجد رسالة الإمام (عليه السلام) تبوح بمسلكين : موقف الحرب والمعصية ، يقابله موقف الدعوة إلى السلم وعدم إهراق دماء أهل القبلة من أجل مصالح محدودة ؛ فالسلوك الأول : مثل موقف لحاق عائشة بالناكثين والتظاهر بطلب دم عثمان والاقتصاص من قاتله « ومعلوم في الشريعة المسلمين أنَّ ذلك ليس لها ولا إليهما ، وأنّهما فيما تكلَّفاه منه على شبهةٍ باطلةٍ عند الناظرين ؛ لأنهما لم يكونا أولياء لدم عثمان ، ولا بينهُ وبينهما نسب يسوغهما للتخاصم في دمه ، ولا إلى النساء أيضا الدخول في شيءٍ من ذلك على وجهٍ من الوجوه ، إذ ليس عليهنَّ جهاد ولا لهنَّ أمرٌ ولا نهي في البلاد والعباد »[٤] ، وهو موقف ينم عن إصرارٍ على الحرب ونزوع النفوس

---

[١] ينظر: معالم الإسلام الأموي : ٣٠ .

[٢] ينظر : معركة الجمل في منظور نخبة من المستشرقين : ١٢٤ .

[٣] الإمامة والسياسة : ١ / ٩٠ .

[٤] الجمل أو النصرة في حرب البصرة : ١٥٣

إلى الشر كما وجده وبيَّنه صعصعة بن صوحان [١] عندما قدم على طلحة والزبير وعائشة، وهو يحمل كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، الذي يعظم في حرمة الإسلام ويخوفهم بما صنعوه من قبيح ما ارتكبوه من قتل المسلمين ، فوجدهما « ما رأيت قوماً ما يريدون إلا قتالك » [٢]على حد قول صعصعة للإمام (عليه السلام).

ونرصد مسيرة الحرب التي دعت لها عائشة وسلوكها المخالف لدعوة السلام في رسالة أمير المؤمنين (عليه السلام) التي ندبها على لسان ابن عباس :

« ... حتى سرتِ إلى البصرة فقتلت المسلمين ؟ وعمدتِ إلى عمالي فأخرجتهم ؟ وأمرت بالتنكيل بالمسلمين ؟ وأبحت دماء الصالحين ؟ فارعي وراقبي الله عز وجلَّ »[٣]

فدعوت الإمام (عليه السلام) في رسالته هو تجنب الحرب وبيان تبعاتها الدنيوية والأخروية ومدى الإثم الذي اقترفه هؤلاء في إباحة دم المسلمين والتنكيل بهم .

إنَّ أعمال الحرب التي ارتكبها الناكثون في المسلمين ، وإسراعهم إلى الشر ، وحبهم للحرب ، كانت مفاتيح الفتن والشرور ، والويلات والحروب ، والكوارث على بلاد الإسلام إلى يومنا هذا ؛ إذ جعلت من المسلمين دعاة حرب قبل أن يكونوا دعاة سلم ومودة ، ودعاة تشتت قبل أن يكونوا دعاة وحدة وتمسك ، فضلاً عما أحدثته من تبعثر وانقلاب في المنظومة الإسلامية ككل .

أجل لقد اعتاد الناس مثل هؤلاء « أن يحكموا على الأشياء حكماً ذاتياً لا موضوعياً ... أي أنهم تأثروا في حكمهم عليها بذواتهم وميولهم المغرضة ، وأهوائهم المنحرفة ، وبمصالحهم الخاصة لا بحواسهم وعقولهم وتجاربهم ، ممّا لا شك فيه أنَّ مثل هذه

---

[١] صعصعة بن صوحان بن حجر بن الحارث العبدي الكوفي ، تابعي وعالم وخطيب ، نفاه المغيرة بأمر معاوية من الكوفة إلى البحرين وقد مات فيها أيام خلافة معاوية ، ينظر : الأعلام : ٣ / ٢٩٤ ، وأصحاب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) والرواة عنه : ١ / ٢٩٣ .

[٢] الجمل أو النصرة في حرب البصرة : ١٦٧ .

[٣] نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٤/ ٧٧ – ٧٨ .

الأحكام تنحرف بالإنسان عن جادة الصواب ، وتطلق الأوهام من عقالها والخرافات من مكمنها »[١].

ومن المؤسف أنَّ الحقيقة التي تركها هؤلاء على الواقع في حروبهم ودعوتهم لها رسمت صورة التشتت والتبعثر الناتجة عن تلك الدعوة وسلوكهم لها حفزت بعض الولاة غير المرغوب فيهم في حكومة الإمام (عليه السلام) للتمرد عليها ، وإعلان الحرب ضد خليفة المسلمين ؛ ولتجنب هذا التشتت وهذا الانقلاب في المنظومة الفكرية للمسلمين ؛ نجد الإمام يدعو معاوية للدخول في البيعة تجنبا للحرب ، إذ يقول :

«وقد بلغك ما كان من قبل عثمان رحمه الله ، وبيعة الناس عامة إياي ومصارع الناكثين لي ، فادخل فيما دخل الناس فيه »[٢].

فدعوة الإمام من أخذ البيعة من والي الشام الذي والاه عثمان ، بعد اتفاق الأمة على أمير المؤمنين (عليه السلام) بان يكون خليفتها من دون منازع وأنْ يولي على ولاياتها من يراه صالحاً وحافظاً لأمانة التسخير التي حملها الإنسان على عاتقه وأبت الأرض والسماء حملها وكان الإنسان ظلوماً.

ولكن جاءت الإجابة من معاوية قصيرة واضحة الأهداف والغايات في كتاب يحمل عنوانه :

«من معاوية إلى علي " وداخله " بسم الله الرحمن الرحيم " لا غير»[٣]

فعرف الإمام (عليه السلام) أنَّ معاوية محارب له ، وإنه لا يجيبه إلى شيء مما يريده ، وكان هذا الجواب واضح الرؤية لدى الإمام بأنَّ معاوية يحمل حقيقة واحدة سوى الحرب ، وعدم رد الحق إلى أصحابه .

وجواب معاوية لدعوة الإمام ، موسومة بالضعف والدعوة للحرب ؛ لكونه ناتجاً عن دافع الباطل الموهوم في استيعاب حقيقة خلافة الأرض وتسخيرها للصالح العام لا لفئة

---

[١] الإمامة في الإسلام : ١٨ .

[٢] الإمامة والسياسة : ١ / ١٠٢ .

[٣] م . ن : ١ / ١٠٣ .

معينة فكان خطاب معاوية يتسم بالمراوغة والابتعاد عن حقيقة أن الخلافة لأصحابها الحقيقيون المتمثلة بالإمام علي (عليه السلام) .

ويتبين لنا من خلال رد معاوية حقيقته في الوصول إلى الحرب من أجل الحفاظ على أطماعة السلطوية الفئوية ، من أجل الحفاظ على الشام ، ثم التوسع للسيطرة على الخلافة الإسلامية لإرجاعها إلى جاهليتها الأولى .

وفي هذا المعنى من الحقيقة نرى تكرار الدعوة إلى السلام ، وحقيقته لدى أمير المؤمنين (عليه السلام) في السعي للحصول عليه بطرق مختلفة ، بأساليب متنوعة فيها التهديد أو الباعث النفسي للسلام وحب العافية للآخرين ؛ لكونها حقيقة وقلب علي (عليه السلام) في حب الخير لجميع الناس حتى أعدائه .

هذا التكرار في الدعوة إلى السلام نراه في رسالة أخرى إلى معاوية جاء فيها

«إنّ طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتهما ، وكان نقضهما كردَّتهما ، فجاهدتهما بعدما أعذرت إليهما ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون فإنَّ أحب الأمور إلي قبولك العافية »[1]

من الحقائق التي يظهرها هذا النص حقيقة الاتجاه السلمي للإمام (عليه السلام) في مواقفه وسلوكه مع أعدائه في معارك الجمل والنهروان وصفين ومواقفه الأخرى جعلت من كتب الحديث تذكر هذه الحقيقة المطابقة للواقع ، فقد روى البيهقي في السنن الكبرى بسنده «أنَّ علياً لم يقاتل أهل الجمل حتى دعا الناس ثلاثاً ، حتى إذا كان اليوم الثالث دخل عليه الحسن والحسين (عليهما السلام) وعبد الله بن جعفر فقالوا : قد أكثروا فينا الجراح فقال : يا بن أخي ، والله ما جهلت شيئاً من أمرهم إلا ما كانوا فيه ... ثم صلى ركعتين حتى إذا فرغ رفع يديه ودعا ربه ، وقال لهم : إن ظهرتم على القوم فلا تطلبوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح وانظروا ما حضرت به الحرب من آنية فاقبضوه وما كان سوى ذلك فهو لورثته » [2].

---

[1] العقد الفريد : ١ / ٣٤٠ .

[2] السنن الكبرى : ٨ / ١٨١ .

فمنهج أمير المؤمنين (عليه السلام) وخطابه لمعاوية نابع من أعماق منهج الإسلام ، وهو تجسيد لمبادئه على الأرض ، بما فيه من صوت القوة والمنعة ، فهو خطاب سلام وحب العافية للجميع الناس، من دون استثناء (فإن أحب الأمور إلي قبولك العافية) .

إنَّ هذا «الحرص الشديد على كراهية القتال كان منهجاً لدى الإمام لم يحد عنه في كل حروبه ومعاركة ، ولم يبادر إلى شن حرب ، واغتيال شخص مناوئ له أو أن يغدر بعدوه ، كل ذلك ما هو إلا تعبير عن حب السلم وكراهية الحرب ، السلم هو منهجه ، كان يوصي به عماله بان لا يتركوا فرصة سانحة للسلام والصلح ؛ لأنَّ الحرب ليست مطلوب لذاتها وإنما هي وسيلة كريهة لحماية الحق »[1]، قال تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾[2].

هذا الخطاب في حقيقة الدعوة إلى السلام وتجنب القتال نراه في أشد المواقف وفي أيام مرور سحب الموت ، وسماع أصوات طبول الحرب ، يتكرر ، ولكن هذه المرة يحمل حقيقة مبادئ الإسلام والدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه ، إذ يقول (عليه السلام) في رسالته إلى معاوية :

«ألا وإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنَّة نبيه ، وحقن دماء هذه الأمة ، فإن قبلتم أصبتم رشدكم واهتديتم لحظكم ، وان أبيتم إلا الفرقة وشقَّ عصا هذه الأمة ، لم تزدادوا من الله إلا بعداً ، ولا يزداد الرب عليكم إلا سخطا ، والسلام »[3]

إنَّ الدعوة إلى السلام جاءت بحقائق إلهية في السير على هدى الإسلام وسيرة نبيه وفي حقن دماء المسلمين ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾[4] ، وهي دعوة عقلية بما للعقل من تحميل للخير والسلام ، وبما يحمله

---

[1] الخطاب في نهج البلاغة بنيته وأنماطه ومستوياته دراسة تحليلية :٩٩.

[2] سورة البقرة : ٢١٦

[3] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٣ / ٢١٠ .

[4] سورة البقرة : ١٧٦

من جنود الخير، وأنَّ دعوة الحرب لا تزيد إلا بعداً عن حقيقة هذا الوجود ، بل تركن إلى غضب البارئ عز وجل بما يحمل السخط وعقاب

فدعوة السلام صائرة إلى حقيقة الوجود في استخلاف الأرض ومن عليها ، وإخراج طاقاتها اللامتناهية ، التي أبت الجبال والسهول والأنهار والنجوم والكواكب قبولها لثقلها وقبلها الإنسان ، وكان يدعو إلى الحرب وشق وحدة الناس وتعاونهم .

ولكن كان الجواب كالمعتاد للذين ظلموا : الحرب والابتعاد عن سنن الإله في حقيقة تسخير الأرض والسير على دين الله الذي أوجبه على عباده ، وهو لا يحمل إلا أوهام الحرب ، قصير ليس فيه ما يدل لحقيقة السلم ، إذ يقول معاوية في جوابه عن كتاب الإمام بشطر واحد فيه :

ليسَ بيني وبين قيسٍ عتابٌ غيرُ طعنِ الكُلى وضربِ الرِّقابِ [١]

ليس بينه وبين الحق والحقيقة إلا الضرب والطعن ، والحرب وسفك الدماء ، أنها حقيقة معاوية مثلها في بيت الشاعر عمرو بن الأهتم .

لا شك أنها حميَّة الجاهلية في تمثلها بشعر التحريض الذي هو ظاهرة سلبية في حياة الاجتماعية الجاهلية « فمثل هذا الشعر كان عاملاً رئيساً في المحافظة على نار الحرب المشتعلة يذكي من جذوتها ويحميها ويعمق الإحساس بالحقد والكراهية » [٢] .

ولعل كثرة هذا الشعر هي التي عملت على كثرة أيام العرب وشعر تلك الأيام حافل بالمعاني والمواقف السلبية فلكل يوم من أيامهم قصة وراءها شعر التحريض يدور على الألسنة فيكون حطباً جذلاً تحت جفان الحروب الداخلية فيفتت عضد الأمة ويضعفها[٣] .

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٠ / ٢١١ ، والبيت الشعري ينسب إلى عمرو بن الأهتم (ت ٥٧ هـ) وورد أيضا إلى عمرو بن الأيهم في سمط اللآلي : ١/ ١٨٤ ، وفي حسن التوسل في صناعة الترسل : ٧٩ /٧٠ ، ينظر : شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم : ٨٠ .

[٢] الايجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام : ٥١ .

[٣] ينظر : م . ن : ٥١ .

إنَّ حقيقة أولياء الشيطان هي الحرب للوصول إلى الغايات والأهداف المحدودة ، ولا يهمهم حال المسلمين وحال أجيال المسلمين لا بل هدفهم واحد هو الرجوع إلى الجاهلية .

كان خطاب أولياء الشيطان إلا إبعاد الناس عن الساحة المقدسة ، والركون إلى سخط الإله وبما أنَّ الحقيقة هي واحدة في منظور نظرية المعرفة الإسلامية التي لا تتجزأ ، ولا تتبدل ، كذلك نرى حقيقة الدعوة إلى السلام ونبذ الحرب واحدة لا تتغير بتغير الظروف ، هذا ما نراه عند أهل الحق ، وأهل السنن الإلهية ، وخلاف ذلك نراه عند أهل الباطل والبدع أن حقيقة السلام التي يحملها خصوم الإمام سوى كذب وخديعة، من أجل الوصول إلى أهدافهم وغاياتهم عندما يشتد فوق رؤوسهم صليل السيوف وتقع عليهم نصالها ، وتحوم عليهم سحب الموت ، يكونوا هم الدعاة بألسنتهم دون قلوبهم ، هذا ما نجده في الدعوة إلى حقن دماء المسلمين في رسالة معاوية إلى الإمام التي جاء فيها :

«أما بعدُ : فإن هذا الأمر قد طال بيننا وبينكم ، وكل واحد منا يرى أنه على حق فيما يطلب من صاحبه ، ولن يعطي واحد منا الطاعة للأخر ، وقد قتل فيما بيننا بشر كثير ، وأنا أتخوَّف أن يكون ما بقي أشدَّ مما مضى ، وإنا سوف نسأل عن هذه المواطن ، ولا يحاسب غيري وغيرك وقد دعوتك إلى أمر لنا ولك فيه حياةٌ وعذر وبراءة وصلاح للأمة ، وحقن للدماء وأُلفة للدين وذهاب للضغائن والفتن» [1].

إنَّه خطاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب ، ولكن يكسوه هذه المرة الكذب ، والمكر والخديعة ، يحمل كل صفات النفاق فظاهره حقن دماء ، ونواياه الفتنة والحرب والباطل .

أيّ حقيقة للسلام التي يدعو لها معاوية ، وأي عذر وبراءة وصلاح أمة ، وأي مواطن تتساءل عليها السنن الإلهية ، فمعاوية يدعو إلى السلم وهو مع الحرب ، ويدعو إلى القرآن ، وهو ليس من أهله وقد ثبت هذه الحقيقة قضية التحكيم ،

---

[1] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢ / ٢٢٥ .

والأحداث التاريخية التي سايرت هذا الكتاب ، فضلاً عن كتبه التي رفضت السلام وحقن دماء المسلمين كما ذكرنا سلفاً .

ونجد لوناً آخر من ألوان المعرفة الكاشفة لحقيقة السلام ، وعدم إراقة الدماء بدعوة الإمام (عليه السلام) لإعفاء الناس من الفريقين القتال ، وهي دعوة أخرى من دعوات السلام ، وحقيقة ثابتة من الحقائق التي تكشف الواقع ، وتبين خط الإمام في الحفاظ على أرواح المسلمين وتجنبهم القتال ، وذلك في رسالته إلى معاوية التي جاء فيها :

«وقد دعوت إلى الحرب ، فدع الناس جانباً واخرج إليّ ، وأعف الفريقين من القتال ، لتعلم أيُّنما المَرينُ على قلبه والمغطَّى على بصره »[1]

هذه الحقيقة ليست لكشف شجاعة الإمام كما يراها الكثير وإنما هذه حقيقة السلام وتجنب إراقة الدماء ، التي تجسدت بشخصية أمير المؤمنين (عليه السلام) ، إنها نابعة من صميم القرآن في نبذ الحرب ، وإحياء الناس قال تعالى :﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[2] .

هذه الحقيقة تعبر عن كشف واقع الدعوة إلى السلام وحفظ دماء المسلمين، يؤكدها المقطع الثاني من الرسالة :

«فأنا أبو حسنٍ قاتل جدِّك وأخيك وخالكَ شدخاً يوم بدرٍ ، وذلك السَّيفُ معي ، وبذلك القلبِ ألقَى عدوِّي ، ما استبدلتُ ديناً ، ولا استحدثتُ نبيّاً ، وإنِّي لعلى المنهاج الذي تركتُمُوه طائِعين ، ودخلتُمْ فيهِ مُكرهين »[3] .

هذه المعرفة التي يظهرها الإمام هي «حكاية عن المعلوم وكشف شي آخر متعلق المعرفة ، في كشف الحقيقة والحكاية عن الواقع »[1] التي جاءت للكشف عن مبدأ

---

[1] نهج البلاغة : ٤٣١ .

[2] سورة المائدة : ٣٢

[3] نهج البلاغة : ٤٣١ .

الإيمان في الله ومسير في طريق مبادئ الإسلام التي كشفها الواقع وسيرة الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) إبان فتح مكة في العفو الشامل عن الذين تركوه طائعين ودخلوا في دعوته مستكرهين ، فقال لهم قوله المشهور أذهبوا فأنتم الطلقاء إحلالاً لدعوة الإسلام للسلام ، وحفظاً لدماء الناس ، وإظهاراً لمبادئ السماء .

إنَّه ذلك المنهاج وتلك السيرة في حب السلام والإفصاح عن تعاليم الدين الحنيف لا لكشف عن شجاعة الإمام ، فشجاعته (عليه السلام) معرفة للقاصي والداني وللحاضر والغائب بل إنها كاشفة عن قلب مفعم بالحب للسلام وأنَّ أحب الأمور إليه قبول العافية .

وفي مقابل دعوة السلام التي أطلقها أمير المؤمنين (عليه السلام) ، نجد دعوة أخرى تدعو إلى عكس ذلك إنها دعوة الإسراع في قرع طبول الحرب من أجل سفك دماء المسلمين للحصول على إطماع خاصة مؤقتة بعيداً عن هدف المعرفة التي أراد الله من بني آدم في تسخير الأرض وأعمارها ، هذه دعوات الحرب كانت تتلبد بغيوم الاستفزاز ، وتعلن حقيقة أولياء الشيطان في سفك الدماء من أجل الحصول على السلطة ، جاء كل ذلك في رسالة من معاوية إلى الإمام (عليه السلام) :

«أما بعدُ : فقد طال في الغيِّ ما استمررت أدراجك ، كما طالما تمادى عن الحرب نكوصك وإبطاؤك فتُوعِدُ وَعيدَ الأسد ، وتَرُوغُ روغان الثعلب فَحتَّام تحيدُ لقاء مباشرة اللُّيوث الضارية والأفاعي القاتلة ، ولا تستبعدنها فكلُّ ما هو آتٍ قريبٌ ، إن شاء الله والسلام »[٢].

فخطاب معاوية خطاب الحرب ، وسفك دماء المسلمين يحمل من ألوان الاستفزاز الكثير في الوصول إلى حرب طاحنة من أجل حب الدنيا وإطفاء نور الحق تلك حقيقة أولياء الشيطان ، الذين ران على قلوبهم التعصب والجدل والابتعاد عن أبواب رحمة الله بتتبع خطوات الشيطان واستخدام أساليبه المختلفة كـ «الحرب والعداوة والحسد

---

[١] نظرية المعرفة في القران : ٣١٥.

[٢] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٣٤ .

والاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة وكل ما يوحى به إبليس لإتباعه ذلك سلاح حزب الشيطان »[1] ، الذي ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [2]

في مقابل سهام الحرب ونصالها ، تتأتى دعوة الصبر والتأني والإبطاء والدعوة الى المعرفة ونبذ الجهل وهي دعوة تبين مأساة الحرب ، والدعوات إليها ، دعوة الحق مقابل الباطل ، دعوة السلم مقابل الحرب ، دعوة الاستفزاز والاستعجال ، مقابل الحلم والتأني ، دعوة المهاترة مقابل الرزانة مما يأتي من دعوات ، هذه الحقيقة جاءت على لسان أمير المؤمنين في الإجابة على تلك الدعوات فكان الخطاب :

«أما بعد : فما أعجب ما يأتيني منك ، وما أعلمني بمنزلتك التي أنت إليها صائر ونحوها سائر ، وليس إبطائي عنك إلا ترقُّباً لوقت أنت له مكذب وأنا به مصدق »[3].

إنها حقيقة السلام ، ونبذ الحرب ، ومبادئ الإسلام ونبذ البغي ، لا تبدو في القتال حتى يبدأوكم ، أنها دعوة الإسلام للسلام قال تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[4] وتكرر دعوات الحرب وقرع طبولها على لسان خصوم الإمام ويتكرر ثبات الحقيقة للذين غشت أبصارهم عسى أن يفيقوا من الغفلة في رسالة أخرى فخطاب الحرب وضرب السيوف من معاوية إلى الإمام جاء فيها :

«فشمر للحرب ، واصبر للضرب »[5] .

فالحرب ، والسيف ، شعار رفعه خصوم الإمام ضد أهل الحق للوصول إلى السلطة وزخرف الدنيا ، والرجوع إلى الجاهلية الأولى ، إنه شعار (أعلُ هبل) ولكن بألفاظ أخرى ، والمعنى واحد ، والهدف واحد والاعتقاد بأنه ملك اعتقاد واحد ، تتكرر

---

[1] الولاء والبراءة في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف :١/١٥.

[2] سورة النساء : ١٢٠

[3] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦ / ١٣٤.

[4] سورة البقرة : ٢٠٨

[5] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦/ ١٣٥ .

تلك الأيام ، والدعوات إلى الجاهلية وتتكرر حقيقة واحدة أنهم أبناء الطلقاء وأهداف أولياء الشيطان ، في إطفاء نور الله ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره على يد أوليائه ، فالله أعلى وأجل ، أعلى من كل شيء ، وأنَّ حب السلام أعلى من حب الحرب والحقيقة واحدة جاءت على لسان أمير المؤمنين (عليه السلام) في رسالته على هذه الدعوة :

((فان مساويك مع علم الله تعالى فيك حالت بينك وبين أن يصلح لك أمرك ، وأن يرعوي قلبك ، يابن صخر ، يابن اللعين زعمت أن يزن الجبال حلمك، ويفصل بين أهل الشك علمك ، وأنت الجلف المنافق الأغلف القلب ، القليل العقل ، الجبان الرَّذل، وقلت فشمر للحرب واصبر للضرب ، فإنْ كنت صادقا فيما تزعم ، ويعنيك عليه ابن النابغة ، فدع الناس جانباً ، وتيسر لما دعوتني إليه من الحرب والصبر على الضرب وأعف الفريقين من القتال وأبرز إليّ لِتعلم ايُّنا المرينُ على قلبه ، والمغطَّى على بصره؟))[1]

إن أوزار الإنسان تجعله يبتعد عن حقيقة المعرفة ، ويبتعد عن مبادئ الإسلام في تجنب الحرب ، والدعوة إلى السلام وتجنب إراقة دماء الناس ، فالقلب الذي لا يرعوي الحقيقة ، لا يكتنف الإيمان ، ولا يستوعب مبادئ الإسلام ،ومن الطبيعي يبغض السلام والسعي إليه إذ لا يعرف هذا القلب إلا الدم والحرب ، والقتال والبغض

إن القلب الذي لا يرعوي مبادئ الوجود وحقيقته المطلقة لا يفهم حقيقة خلافة الأرض وتسخير الإنسان والطاقات في خدمة البشرية والغاية التي خلق من أجلها الإنسان فأين الحلم الذي يزن الجبال ، بل إنه نفاق وجبن وابتعاد عن الرشد وحقيقة العقل .

إنَّ خطاب الإمام (عليه السلام) يتكرر في الدعوة إلى عدم إراقة دماء المسلمين يتكرر على القلوب المعمية عسى أن تبصر حقيقة الإسلام ، وتبصر نور السلام ، ولكن دون جدوى فتكون الدعوة إلى لقاء الإفراد لعفاء الناس من القتال .

---

[1] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٦/ ١٣٥ .

وقلب أهل الحق ينبض بحب السلام وبحب إصلاح الأرض وأعمارها إنَّه إشارة سلام وليس الجبن ، فالإمام تشهد له الخليقة والرمال والجبال والماء والأشجار وتشهد له السماء «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي»[١]، تشهد له بدر، وأُحد ، ، ومعارك الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) إنها دعوة السلام وحقيقته ، إنها الحقيقة التي تكشف وتحكي عن واقع الإسلام واقع الحياة في كل عصر إنها حقيقة الدعوة إلى السلام ونبذ الحرب .

ولغة الدعوة إلى الحرب تتنوع ولكن تبقى الحرب هي الحرب ويأتي ذلك على لسان الذين يرغبونها ويدعون لها ويستعجلونها لذا يكتب معاوية إلى أمير المؤمنين :

«فأيمُ الله لا رمينك بشهاب تذكيه الريح ، ولا يطفئه الماء ، فإذا وقع وقب ، وإذا مس ثقب »[٢] .

إنها دعوة الحرب وأدوات الحرب ، والتفنن في أداء أصواتها، ونغمات طبولها ، إنها دعوة الشيطان وأولياءه التي قالت عنها الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[٣].

وقد يقول القائل لنا إنَّ حقيقة البحث قد اخفت ما تحمل بعض رسائل معاوية إلى الإمام من طلب تسليم قتلة عثمان ، في مقابل إيقاف الحرب ، كما في رسالة معاوية إلى الإمام :

«وقد بلغني انك تنتفي من دمه فإنْ كنت صادقا فادفع إلينا قتلته نقتلهم به ، ثم نحن أسرع الناس إليك وإلّا فليس لك ولا صحابك عندنا إلا السيف »[٤]

إنَّ الملفت إلى الجملة الثانية للنص ، أنَّ سلام معاوية كان مشروطا بالقصاص من قتلة عثمان ، وإلا فليس إلا الحرب .

---

[١] الكافي : ٨ / ١١٠ ، ونظم درر السمطين : ١٥٤ ، وكنز العمال : ٥ / ٧٢٣ .

[٢] العقد الفريد : ٤ / ٣٣٤ .

[٣] سورة البقرة : ٣٠

[٤] العقد الفريد : ٤ / ٣٣٤ .

إنَّ نظرية المعرفة كونها هي كاشفة عن الحقيقة في فهم الواقع ، والحكاية عنه ، فالكل يعرف أن واقع قتل عثمان كان الإمام بريء منه ، من جانب ومن جانب آخر إن الواقع كشف عن أن قضية مقتل عثمان جاء عن ثورة جماهيرية كما أسلفنا سابقا فهذا ما كشفت حقيقة المعرفة فضلاً عن أنها لعبة الصبي من ثدي أمه كما وصفها الإمام فعندما استقرت أمور معاوية وبسطت سيطرته لم يطالب بقتلة عثمان ، ولعل العقاد وصف جزءً منها «تبدو النية واضحة في فتح أبواب الخلاف واحداً بعد واحد ، كلما أغلق باب منها بقي من ورائه باب مفتوح لا ينتهي الخلاف بإغلاقه ، فتسليم قتلة عثمان لا يكفي ، لأنَّ علياً نفسه متهم بالاغراء والتخذيل ، وبراءة علي من هذه التهمة لا تكفي لأن المرجع بعد ذلك إلى الشورى والنظر في البيعة من جديد ، وشورى الحجازيين والعراقيين لا تكفي لأن الحق خرج منهم إلى أهل الشام ، وهم الحكام على الناس ، لأنَّهم يحكمون لمعاوية ولا يحكمون لغيره ، ومن ثم بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عند ما يقال باللسان غير ما يجول في الصدور »[١].

ومن استقراء النصوص السابقة للإمام يتبين «أنَّ الحرب لم تكن خياره الأول ، ولم يسعى من خلالها إلى صنع مجد تأريخي ، وتحقيق انتصار في ساحة الميدان بغية تعزيز مكانة السلطة أو توسع رقعة الملك ؛ لأن دوافع نشوب الحرب عند الإمام علي (عليه السلام) لم يكن للتشفي والانتقام والقهر وغايته الإخضاع لسلطان الحاكم ، وإنما كان دافعه في ذلك تأديبي لا تسلطي حواري لا تمنُّعي ، يبدأ بالإشارة إلى المشتركات بينه وبين الآخرين الذين قاتلوه ويذكرهم تعاليم الدين الحنيف »[٢] ، ولهذا كان يتجنب البدء في الحرب ويوصي قياداته العسكرية فيقول لمالك الأشتر «وإياك أن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدأوك حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع ولا يجرمنك شنآتهم على قتالهم قبل دعائهم والأعذار إليهم مرة بعد مرة ، ولا تدنو منهم دنو من يريد ينشب الحرب »[٣].

---

[١] عبقرية الإمام علي : ٩٨

[٢] الخطاب في نهج البلاغة بنيته وأنماطه ومستوياته دراسة تحليلية: ١٩٧ .

[٣] تاريخ الطبري : ٤ / ٢٧١ .

٤- السلوك والحقيقة :

لا يمكن أن تكون الهداية الحق ــ وهي من عند الله ــ مجرد هداية إلى الحقيقة النظرية أو الفكرة الصائبة وحدها ، بل تتعدى ذلك فتصبح هداية إلى السلوك القويم ، إذ لا فصل بين النظر والعمل في الثقافة الإسلامية ولا خير في علم عندها إلا إذا كان تحته عمل ، وبعبارة أخرى ، فان البحث عن الحقيقة في الثقافة الإسلامية لا يمكن أن يكون مجرد بحث معرفي بل لابد أن يمازجه التفتيش عن قواعد السلوك من الناحية الأخلاقية [١].

إذ إنَّ من آثار هذه الثقافة أنها توقظ القلب وتحيي الشعور، وتدفع بالنفس الى السير في طريق رسمه الله لاستخلاف هذه الأرض ، والاستقامة عليه ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٢] .

فحقيقة المعرفة ، تعريف الإنسان بدوره ووظيفته في الحياة ، وتولد فيه شعوراً دائماً بمراقبة نفسه مخافة الله تعالى وخشيته ، فتؤدي إلى ضبط سلوكه على وفق أوامر الله وتجعله يحارب شهواته التي تحاول أن تحرفه عن السلوك القويم [٣] .

ومن ذلك «أنَّ من المستحيل الفصل والتفكيك بين طريقة سلوك الفرد في حياته ، وطريقة تفكيره ؛ لأن بين العمل والفكر رابطة وثيقة ، فما يفكر به المرء ينعكس على عمله ، وما يعمله ويصرّ عليه يؤثر في تفكيره أيضاً »[٤]

إنَّ معارف الإنسانية مهددة بالجحود والتحريف والتضليل نتيجة لفساد ذمم بعض الناس وسوء أخلاقهم من الظلم والعلو والطمع ، فإذا كانت الكتب المقدسة (التوراة

---

[١] ينظر : فلسفة العلوم بنظرة إسلامية : ١٩ .

[٢] سورة هود : ١١٢ .

[٣] ينظر : أثر العقيدة الإسلامية على الفرد والمجتمع : ١٧ .

[٤] نظرية المعرفة المدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات : ٣٢٢ .

والإنجيل) قد تعرضت للتحريف من قبل العاملين بها حرصاً على مصلحة دنيوية زائلة فما بالنا بمعارف التاريخ والسياسة والاقتصاد وغيرها[١].

وسلوك الإنسان لا يمكن إهماله في محور الثقافة الإسلامية في بحثها عن الحقيقة في عدم الفصل بين النظر والعمل أو بين النظرية والتطبيق وليس من سبيل الصدفة أن تضع هذه الثقافة كلمة الباطل في مقابل كلمة الحق وذلك لأنَّ الحق في نظرها لا يعني مجرد الصحة أو السلامة في التفكير المنطقي النظري بل يشير في معناه إلى دائرة أكثر شمولاً واتساعاً فتتداخل بطريقة أو أخرى مع دائرة الخير ، كما أن كلمة الباطل لا يعني فقط الفساد في التفكير بل تشير في معناها إلى دائرة أخرى هي دائرة الشر، والإسلام نفسه ليس دينا عقائديا بالمعنى المجرد الفلسفي بل هو نظام اجتماعي كامل يقوم على أساس ديني ولا نستطيع أن نفصل فيه بين نظر وتطبيق أو عقيدة وتشريع [٢]

ومن هذه الحقيقة نرى أنَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) غير وجهته في معركته مع معاوية التي استعد لها ، وتوجه إلى الخوارج عند سماعه أنباء تحركات الخوارج في القتل والخراب .

هذا التوجه يبين مدى خطورة التوجيهات والوهم الذي غطى بصائر هؤلاء القوم ومدى خطورة استمرار هذا الوهم في عقول الناس وانتشاره ، وأثره في ضلال الناس، وقد جاء انحراف الخوارج عن الحقيقة والسلوك التخريبي في إفساد الأرض وما عليها في كتاب الجوابي للإمام عن كتاب قَرَظة بن كعب الأنصاري[٣] بما فعله الخوارج من سفك للدماء :

«أما بعد ، فقد فهمت ما ذكرت من أمر العصابة التي مرت بك فقتلت البرَّ المسلم، وامن عندهم المخالف الكافر ، وإن أولئك قوم استهواهم الشيطان فضلوا ، وكانوا

---

[١] ينظر: المعرفة ووسائلها في القرآن الكريم :١٠٢ .

[٢] ينظر : مقدمة في الفلسفة العامة ١٩٥-١٩٦.

[٣] والي الإمام على الكوفة .

كالـذين حسـبوا أن لا تكـون فتنـة فعمـوا وصـموا ، فأسـمع بهـم وأبصـر يـوم تخبـر أعمالهم»[١].

ومـن هنـا نسـتطيع أن نتحـدث عـن ارتبـاط مفهـوم الحقيقـة فـي المعرفـة الإسـلامية بمجموعة من المفاهيم مثل الصدق في القول والعمل ، والعمل يعني الإخلاص فيه ، والإقبال عليه بروح الجد ، بل أن التقابل في اللغة العربية بين الحق والباطل يدل على أن إهدار الحق أو الحقيقة يكون أول ما يكون في ارتكاب الباطل ويدل أيضا على أن الذي يسعى إلى الحقيقة لابد أن يكون في الوقت نفسه ذا سلوك قويم ، فالبحث عن الحقيقة في ضوء نظرية المعرفة الإسلامية مرتبط بعمل الخير ، والبعد عن الشر ، وذلك لأنَّ العلم في الإسلام أمانة ، ومن يضطلع بهذه الأمانة لا يمكن أن يتناقض مع نفسه ، فيكون أميناً من الناحية النظرية غير أمين من الناحية العملية [٢]

وسلوك الخوارج يظهر الحقيقة للناس أكثر ، بأنهم على باطل ووهم ، أو كما يقول باسكال : «لا يستطيع العنف أن يضعف الحقيقة بل هو لا ينجح إلا في إبرازها أكثر، ولا يستطيع نور الحقيقة أن يضع حدا للعنف ، بل هو يثيره أكثر فأكثر »[٣]؛ لأنَّ تعصب الخوارج أعمى قلوبهم عن الحقيقة ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[٤].

إنَّ ارتباط العمل بالحق ، والخير يظهر في دعوة الإمام (عليه السلام) إلى الخوارج من أصحاب الخريت بن راشد ، إذ جاء في رسالته لهم :

«... العمل بالحق ، وبما أمر الله في كتابه ، فمن رجع إلى أهله منكم ، وكفَّ يده، واعتزل هذا المارق الهالك الحارب ، الذي جاء يحارب الله ورسوله والمسلمين

---

[١] تاريخ الطبري : ٤ / ٣٧٠ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام) : ٨٣ .

[٢] ينظر : مقدمة الفلسفة العامة :٢١١.

[٣] معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية : ١٦٨.

[٤] سورة النمل : ٢٤ .

وسعى في الأرض فساداً ، فله الأمان على ماله ودمه »[١]

إنَّ ارتباط الحقيقة مع العمل جاء واضحاً في خطاب الإمام (عليه السلام) للخوارج من أصحاب الخِرّيت ، فالحقيقة مرتبطة بالسعي من الحقيقة الأولى لخلق الإنسان في إعمار الأرض واستخراج طاقاتها فإعمار الأرض من أبجديات ظهور الحقيقة ، وإفساد الأرض من أبجديات الوهم وارتباطه بالباطل

فالوهم الذي يحمله الخوارج كان له انعكاس على سلوكهم في الواقع وأثره في فساد الأرض لما جاءوا به من ابتعاد عن قوانين السماء وكان جزاءهم ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢] ، فحقيقتهم الافتضاح والمقت والذل والطرد من رحمة الله .

إنَّ ارتباط الحقيقة لا يقتصر بأسلوب الإفراد وإنما قد يرتبط بالسلوك الجمعي ، في بيان الحقيقة من الوهم ، وإظهار هذه الحقيقة يأتي بالسلوك الجمعي الخالص لله عز وجل ، لكون هذه الحقيقة ناتجة عن تغير في نفوس الجميع لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[٣] هذا التغيير الجمعي يظهر مدى ارتباط الحقائق بالأفراد فحسب ، وإنما أيضا بالجماعات ، إذ يقول أمير المؤمنين في كتابه إلى أهل مصر بعد أن ولّى محمد بن أبي بكر فخرجت عليه بها خوارج :

«من عبد الله عليٍّ أمير المؤمنين إلى القوم الذين غَضِبوا لله حين عُصي في أرضه وذُهب بحقّه ، فضرب الجور سُرداقه على البرِّ والفاجر والمقيم والظاعن فلا معروف يستراح إليه ، ولا منكر يتناهى عنه »[٤]

---

[١] تاريخ الطبري : ٤ / ٣٧٩ .

[٢] سورة المائدة : ٣٣ .

[٣] سورة الرعد : ١١

[٤] نهج البلاغة : ٤٧٨ .

والتشريح الإلهي هو مقياس الحقيقة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو تجسيد لتلك الحقيقة التي قال الله عنها : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [١] ، ومخالفة تعاليم السماء يتأتى من الوهم والركون إلى الباطل ، فلو قلَّ ميزان الحق والعدل على حدٍّ معين في مجتمع هلك ذلك المجتمع ، ولهذا نرى القرآن يحكي عن هلاك المجتمعات التي كان فيها الباطل غالباً ، ويؤكد ضرورة أنْ يكون المجتمع أقل شيء في حالة تعادل ؛ لذلك فإن المجتمع المريض غير المجتمع الذي يحكمه الباطل ، ولا يجوز الخلط بينهما ، إنَّ الحرب بين الحق والباطل مستمرة دائماً ، وقد يرى الإنسان أنَّ الباطل يغطي أحياناً وجه الحق ، ولكن الباطل لا يقوى على الدوام والاستمرار بل مصيره الدمار والزوال [٢].

إنَّ وجود الباطل وجود تابع طفيلي موقت وإنما الحق هو الذي يستمر ويدوم ، وعندما ينحاز مجتمع بمجموعه نحو الباطل ، فقد حكم على نفسه بالفناء ، أي إنَّ في الانتماء التام إلى الباطل والانقطاع الكامل عن الحق هلاكاً محققاً ، فالباطل زائل ، وأنّه شيء محكوم عليه بالموت من داخل ذاته [٣].

وبما أن للحق أئمته في هداية الناس والسير على خطى الإسلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكشف أئمة الباطل وحقيقة الأوهام التي يبثوها ينبه الإمام عمرو بن العاص في إتباع سلوك الحق وترك سلوك الباطل لما يحكيه واقع أهل الباطل من انحراف في سلوكهم في رسالته التي جاء فيها :

«والسعيد من اتعظ بغيره ، فلا تحبط عملك بمجاراة معاوية في باطله ، فانه سفه الحق واختار الباطل »[٤].

---

[١] سورة آل عمران : ١١٠

[٢] ينظر : محاضرات في الدين والاجتماع : ٤٩٤.

[٣] ينظر : م . ن : ٤٩٤ .

[٤] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢ / ٢٢٧ .

وبما أنَّ الباطل والشر ينبعان من انحراف في خط السير؛ وبما أنَّ الإنسان حراً مختاراً في اختيار سلوكه ، بعد أن جهزه الله بما يبصر به فيحصل له العلم بالمرئيات على سعة نطاقها ، وبما يستعين به على التكلم والدلالة على ما في ضميره من العلم ، ويهتدي بذلك من غيره على العلم بالأمور الغائبة عن البصر[١] إذ يقول سبحانه وتعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[٢] ؛ فالإمام (عليه السلام) يحذر عمرو بن العاص في اختيار الباطل ، والابتعاد عن الحق ، ويظهر له الحقيقة من خلال الاتعاظ والعبرة من الذين حوله أكانوا في الماضي أم الحاضر ، فعمرو يعرف الحقيقة ولكن اختيار الدنيا وزبرجها جعله يرتهن بأهل الباطل وفي هذا يقول عمرو بن العاص لمعاوية : « أترى أننا خالفنا علياً لفضل منا عليه ؟ لا والله إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها ، وأيم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك وإلا نابذتك »[٣] فاعتراف عمرو لا يزيد من الحقيقة شيئاً ، إذ يقول ماركس – انفلز :« إن قضية الاعتراف أو عدم الاعتراف بامتلاك الفكر الإنساني الحقيقة الموضوعية ليست قضية نظرية وإنما هي قضية عملية ، فالممارسة هي المجال الذي ينبغي على الإنسان أن يثبت فيه الحقيقة ، أعني حقيقة فكره وقوّته في هذا العالم وحتّى عصرنا هذا»[٤].

ولابد أن لا ننسى أن هناك حقيقة يجب أن يعتني بها الفلاسفة والمفكرون أن النفوس تتصل بعضها ببعض وتتصادق وتقترب اقتراباً طبيعياً ــ لا لإغراض خاصة موقته ــ حسب درجتها من الكمال أو التسافل ، فالنفس الشريرة تميل إلى مثلها والنفس الطاهرة تميل إلى مثلها أيضا مع حفظ الدرجات في التكامل والتسافل وقد قال شاعر:

عن المَرءِ لا تسألْ وسلْ عن قَرينهُ فكل قرينٍ بالمقارنِ يقتَدي [٥]

---

[١] ينظر : تفسير الميزان : ٢٠ / ٢٩٢ .

[٢] سورة البلد : ٨– ١٠ .

[٣] تاريخ مدينة دمشق : ٤٦ /١٦٧ .

[٤] معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية : ١٦٩.

[٥] ديوان طرفة بن العبد (ت ٦٠ ق هـ) : ٤١ .

ومن أساليب معاوية في ترسيخ السلطة والتمسك بها ، سلوكه في جعل نفسه ولي أمر عثمان ، ومطالبة أهل الشام بالالتفاف حوله في أخذ الثأر للخليفة المقتول إذ أخذ يطالب بدم عثمان ويعطي الحق لنفسه بذلك ويوهم الناس على هذا الحق الذي ارتسمه هو كما في رسالته إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) التي جاء فيها :

«والذي لا اله إلا هو لأ طلبن قتلة عثمان أين كانوا وحيث كانوا وحتى أقتلهم أو تلتحق روحي بالله » [١] .

ويؤكد هذا السلوك الذي ارتكز على كذبة المطالبة بدم عثمان في نص آخر ورد في كتابه المرسل مع أبي مسلم الخولاني[٢] إلى أمير المؤمنين قبل مسيره إلى صفين يقول فيه :

«وقد بلغني أنك تنتفي من دمه ، فإن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلته نقتلهم به ، ثم نحن أسرع الناس إليك ، وإلا فليس لك ولأصحابك عندنا إلا السيف ، والذي نفس معاوية بيده : لأطلبنَّ قتلة عثمان في الجبال والرمال والبر والبحر حتى نقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله »[٣]

وقد أجاب الإمام علي (عليه السلام) فور تسلمه الرسالة : يخبره برفع مؤنة البحث عن هؤلاء وطلبهم إياه ؛ لأنَّه يعرف جيداً غيه وكذبه ؛ لأن الأسماء التي يطلبها معاوية هي شواخص معروفة من المهاجرين والأنصار والتابعين من أهل مصر والعراق والحجاز ، فقال له (عليه السلام) :

«ولعمري لئن لم تنزع عن غيك وشقاقك لتعرفنهم عما قليل يطلبونك ، ولا يكلّفونك أن تطلبهم في برٍّ ولا بحر ولا جبل ولا سهل ، إلا أنه طلب يسوءك وجدانه ، وزور[٤]

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ١٨٦ ، ونهج السعادة ٤/ ١٩٠ .

[٢] أبو مسلم عبد الله بن ثوب الخولاني ، أسلم أيام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكنه لم يلتق به ، جاء من اليمن ودخل المدينة في أيام أبي بكر الصديق ، ينظر : سير أعلام النبلاء : ٤ / ٨ .

[٣] وقعة صفين : ٢ / ٨٧ ، والعقد الفريد : ٤ / ٣٣٤ .

[٤] الزور : الزائرون .

لا يسرك لقيانه »[1]

ولقد وضح بطلان ادعاءات معاوية بطلب الثأر ، وترك القائمة التي أعدها وطلبها من أمير المؤمنين (عليه السلام) تحت عنوان قتلة عثمان ، بعدما تسلم الحكم .

والسؤال المطروح هنا هو : أين ذهب قَسم معاوية المغلظ الذي أمضاه ؟ وأين ذهب سلوكه المدعي لذلك الحق الزائف ؟

إذن لماذا هذا التزيف والكذب ، والتصنع في السلوك ، ولماذا السكوت عن طلب الثأر، ألم يتسلط على البلاد الإسلامية ؟ ألم يكن قويا ؟ بعد أن أصبح الحاكم بلا منازع .

فالحقيقة سلوك معاوية وادعائه كان مخالفاً لواقع ما يدعيه أمام الناس ، إذن « فالمطالبة بدم عثمان إنما كانت قضية قائمة بين حين كانت لازمة التحريض على علي وبث الدعوة والتمكين لمعاوية ، فلما تمكن واستطاع ما لم يكن في وسع عليٍّ أن يفعله سكت عن الثأر وحديثه إلا ما كان من قبيل الحوار العقيم في المجالس ، وقبل من نفسه العذر ضعيفاً هزيلاً ، ولم يكن يقبله قوياً معزّزاً بالواقع والبينة ممن لا لوم عليه »[2].

ولم ينتهِ سلوك معاوية حد الادعاء ، والإظهار بأنه ولي الخليفة المقتول ، وإنما حاول توسيع هذا الادعاء ، وترسيخ الوهم في عقول الناس والالتواء على مفاهيم القرآن والابتعاد عن الحقائق المعرفية التي جاء بها القرآن، من خلال تأويل بعض آيات القران الكريم ، والادعاء بأنه جاء لترسيخ تلك المفاهيم القرآنية في المجتمع العربي ، وتطبيق أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنه الصورة العملية للآية القرآنية في نصرة المظلوم ، والولاية على المقتول في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا

---

[1] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ /٧٨ .

[2] موسوعة أعمال عباس محمود العقاد : ٣/ ٥٤٣ .

النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا ﴾[١] ، ثم يعد من حالفه من الظفر على أهل العراق بقوله تعالى : ﴿ فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾[٢] .

فمعاوية أراد بمكره أن يربط الحقائق القرآنية بقضايا وهمية افتراها وصاغها الشيطان بأنامل الكذب، لكي يوهم الناس من خلال تأويل القران بأنه منصور من قبل السنن الإلهية في أخذ الثأر من الظالم للمظلوم ، هذا « الوهم منسوج من الرغبة ومن الجهل »[٣] ـ على قول الفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون ـ يرسم سلوك معاوية ؛ فيظهره الإمام ويكشف عنه في خطابه له إذ يقول :

« فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القران ، وطلبتني بما لم تجنِ يدي ولا لساني ، وعصبته أنت وأهل الشام بي» [٤].

وعلى الرغم من وهن هذا الأمر كوهن بيت العنكبوت إلا أنَّ القوم اصفقوا على هذا الأمر وأطبقوا ؛ لأنهم تبع كل ناعق وناعر.

فسلوك معاوية العدواني لأمير المؤمنين (عليه السلام) ، وتمرده على خلافة المسلمين ؛ الذي بررره الوهم في تأويل القرآن في أحد جوانبه ، يبرره بحجة واهية أخرى (ترك البيعة) ، محاولا إدخال قضية جزئية في عمق قضية كلية كبرى ، حتى يوهم المتلقي بأنه على صواب لولا عارض مقتل عثمان ، حيث يبدأ خطابه بقضية كبرى متفق عليها ، إذ يقول في رسالة إلى أمير المؤمنين (عليه السلام):

«إما بعد: فلعمري لو بايعك القوم الذي بايعوك وأنت بريءٌ من دم عثمان لكنت كابي بكر وعمر ، وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ولكنك أغريت بدم عثمان المهاجرين ، وخذَّلت عن الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوي بك الضعيف ، وقد أبى

---

[١] سورة الإسراء : ٣٣

[٢] سورة الإسراء : ٣٣

[٣] نقلاً عن الوهم وأثره في السلوك الإنساني ، دراسة نفسية تربوية إسلامية ، د. انشراح أحمد توفيق مجلة الجامعة الاسلامية : ٤٨.

[٤] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٧ / ١٣٥ .

أهل الشام إلا قتالك ، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فان فعلت كانت شورى بين المسلمين »[١].

فمعاوية يبرر سلوكه في التمرد على خليفة المسلمين ، بتبرير أخلاقي محاولاً تقليل أو إزالة الشك من أجل إيهام الناس للوصول إلى أهدافه وغاياته الدنيوية .

والتبرير الأخلاقي يمكن أن يكون اعتقاداً مبرراً من الناحية الأخلاقية من دون أن يكون صحيحاً بما فيه الكفاية ، إذ هو تم تصميمه لإظهار الحالات التي تنطوي على ثقافات ضعيفة أو موضوعات معيبة إدراكياً [٢]، وهذا التبرير الناتج عن اعتقاد معاوية إن نبوة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كأسلافه ملك عضوض ، وخلافة المسلمين أنها مُلك لا يجب أن يتخلى عنه ، فهو القائل : «إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا»[٣] فالملك له ثم لبني أمية من بعده [٤] ، وهذا الاعتقاد مخالف للإيمان بالرسالة المحمدية وتعاليمها السمحاء .

وبما أن طبيعة المعرفة تستند إلى مفهوم الحقيقة الذي غالباً ما يكون في دلالته ومعياره الشائع ، هو معيار الواقعية ، وهكذا يكون الحقيقي هو الوجود القابل للإدراك الحسي المباشر، أو المتحقق الواقعي[٥] ، أي أنَّ السلوك الحادث على الأرض سلوك

---

[١] العقد الفريد : ٤ / ٣٣٣ .

[2] Epistemology , Neta, Ram , Stanford Encyclopedia of Philosophy . https://plato.stanford.edu/entries/epistemology/

[٣] الكامل في التاريخ : ٤ / ١٣ .

[٤] أعلن معاوية قرار البيعة ليزيد سنة ٥٦ هـ ؛ ونتيجة ذلك ظهر نظام التوريث ، الذي يعد من أكثر الأمور إثارة للجدل في الدولة الإسلامية ؛ وذلك لأن مسألة وراثة الحكم لم تكن معروفة في الدولة الإسلامية قبل هذه الخطوة التي اتخذها معاوية عندما عهد الخلافة من بعده لابنه يزيد ؛ وبذلك يُعد معاوية أول من بايع ولده في الإسلام ؛ لذا نعته البعض بأنه حول الإمامة إلى ملكٍ كسروي ، والخلافة إلى منصب قيصري . ينظر : استحداث الخليفة معاوية بن أبي سفيان لنظام ولاية العهد وردود الأفعال التي واجهته (٤١- ٦٠ هـ) :٧٩ .

[٥] ينظر : المعجم الفلسفي : ٤٨٧ .

حقيقي لا يقبل الشك ، كما هو شائع ، ولكن البعض يحاول الالتفاف حول الحقيقة وإيصالها مجزوءة للمتلقي أو المتابع للأحداث حينذاك ؛ لكي تصل مغايرة له .

هذا الأسلوب المخادع في إيصال سلوك الآخرين ، وإخفاء الحقائق يتبناه معاوية للوصول إلى أهدافه في قضية مقتل الخليفة عمر بن الخطاب ، إذ يقول في رسالته إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) :

«ثم كرهت خلافة عمر وحسدته ، واستطلت مدته وسررت بقتله ، وأظهرت الشماته بمصابه ، حتى إنك حاولت قتل ولده لأنه قتل قاتل أبيه »[١]

إنَّ سلوك الحقيقة المطابقة للواقع ، والمجريات التي حدثت على أرض الواقع هي مخالفة لما نقله معاوية في رسالته ـ عن ابن الخليفة الثاني ـ إذ إن مصدر المعرفة التاريخي ، يذكر أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب قد أسرف في القتل فقد ذكر اليعقوبي في تاريخه : « وثب ابنه عبيد الله فقتل أبا لؤلؤة وابنته وامرأته وأغتر الهرمزان فقتله ؛ وكان عبيد الله يحدث أنه تبعه ، فلما أحس الهرمزان بالسيف قال : أشهد أن لا إله إلا الله أن محمداً رسول الله »[٢] ، وهذا مما يخالف تعاليم السماء ويخالف كل القيم الإنسانية وحقوقه ، ولهذا كان على وفق الشريعة السمحاء ، ومنهج تطبيقها بالقصاص من القاتل وليس من غيره ، ولهذا قد استحق عبيد الله بن عمر القصاص لكونه أسرف في القتل .

وفي ضوء نظرية المعرفة نستنتج : أن معاوية كان في وهم وحاول نقل هذا الوهم أيضاً إلى الناس من خلال رسالته ، أو إنه كاذب حاول إيهام عقول الناس بأسلوبه في إيصال حقيقة مجزوءة مخالفة للواقع ، وهو الأكثر رجاحة ، بقرينة بدء النص بإظهار الكره ، والحسد ، والسرور بقتل الخليفة عمر بن الخطاب ، وهو مخالف لما تعارف عن الإمام (عليه السلام) وعلاقته بالخليفة الثاني وهو ما تثبته أوراق البحث في هذا الفصل .

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ١٨٦ .

[٢] تاريخ اليعقوبي : ٢ / ١١١ .

ويحاول معاوية في خطابه برسم صورة للناس ، بان الإمام (عليه السلام) قاتل حاقد على عمر ابن الخطاب من أجل السلطة لذا حاول قتل ابنه ، بغضاً لأبيه ، الذي اعزى بعض الكتاب المحدثين اغتياله إلى بني أمية فقد أرادوا التخلص من حكمه وفرض سلطانهم على المسلمين [١]، وقد استدلوا على ذلك بأن أبا لؤلؤة الذي اغتال الخليفة عمر كان مولى للمغيرة بن شعبة [٢]وهو رأي يجانب الصواب ، لما كان للخليفة عمر من علاقات متينة مع الأمويين.

والبحث في السلوك وأثره في بيان جبهة الحق من الباطل من بحوث المهمة في نظرية المعرفة ؛ لكونها جزءً من تمييز الحقيقة وإظهارها التي طالما بحث عنها الإنسان وحارت بها العقول من أجل الوصول إلى السعادة ، والثقافة الإسلامية تجعل من بعض السلوكيات حداً فاصلاً بين جبهة الحق وجبهة الباطل ، وطالما أن أهل الباطل يحاولون إدعاء بأنهم يخلون من تلك السلوكيات ويحاولون رشق أعدائهم من أئمة الهدى بها ، ومن تلك السلوكيات البغي الذي حرمه الله تعالى بقوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [٣] .

والبغي : هو التعدي والعدل عن الحق والاستطالة عن الناس ، والظلم وقصد الفساد ، والفئة الظالمة هي ظالمة خارجة عن طاعة الإمام العادل [٤] .

هذا السلوك المحرم يحاول معاوية إظهار خلو ساحته منه ورمي كرته في ساحة خصمه أمير المؤمنين (عليه السلام)، إذ يتهم الإمام (عليه السلام) ويحذره أن يحبط عمله وسابقته في الإسلام لكونه يحارب على الإمرة ؛ مما جعله يسرف في

---

[١] ينظر : الإمام الحسين (عليه السلام) سمو المعنى في سمو الذات : ٣١ .

[٢] المغيرة بن شعبة بن عامر بن مسعود من قبيلة ثقيف ، عين حاكماً من قبل الخليفة عمر بن الخطاب على البحرين والبصرة والكوفة ، أقره عثمان على الكوفة ثم عزله ، وبعد قصة التحكيم عينه معاوية حاكماً على الكوفة مرة أخرى ، وبقي في هذا المنصب الى أواخر حياته سنة ٥٠ هـ ، ينظر: الإصابة في تميز الصحابة : ٦ / ١٥٦ – ١٥٧ .

[٣] سورة الأعراف : ٣٣ .

[٤] ينظر : لسان العرب ، مادة بغا : ١٤ / ٧٨ .

الخوض في دماء المسلمين ، وبالأخص أعلام المسلمين وسادات المهاجرين من حملة أهل القرآن ، إذ يقول في رسالته إلى أمير المؤمنين (عليه السلام):

«أما بعد : فإنَّ الله تعالى يقول في محكم كتابه : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ، وأني أحذرك الله أن تحبط عملك ... وأقلع عما أسرفت فيه من الخوض في دماء المسلمين ، وأني سمعت رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) يقول : «لو تمالأ أهل صنعاء وعدن على قتل رجل واحد من المسلمين ، لأكبهم الله على مناخرهم في النار » فكيف يكون حال من قتل أعلام المسلمين ، وسادات المهاجرين ، بلهَ ما طحنت رحى حربه من أهل القرآن ... فإن كنت – أبا حسن – إنما تحارب على الإمرة والخلافة »[١]

فمعاوية حاول في رسالته يرسم صورة مشوهة لسلوك الإمام من خلال صورة القتل وسفك الدم والبغي من أجل السلطة ويدعم كلامه بمصادر المعرفة من القرآن والسنة النبوية ومن أجل عدم البس عند الناس يجيبه الإمام من أجل إفهام الناس حقيقة من هو الباغي ، إذ يقول :

«وأما تحذيرك إياي أن يحبط عملي ، وسابقتي في الإسلام ، فلعمري لو كنت الباغي عليك لكان لك أن تحذرني ذلك ، ولكني وجدت الله تعالى يقول : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ ؛ فنظرنا إلى الفئتين ، أما الفئة الباغية فوجدناها الفئة التي أنت فيها ؛ لأن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، كما لزمتك بيعة عثمان بالمدينة ، وأنت أمير لعمر على الشام ، وما لزمت يزيد بيعة عمر ، وهو أمير لأبي بكر على الشام ... فما تخويفك لي من قتل أهل البغي ، فأن رسول الله صلى الله عليه وآله أمرني بقتالهم وقال لأصحابه : إن فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله ، وأشار إليَّ ، أنا أولى من أتَّبع أمره »[٢] .

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٤ / ٤٢ .

[٢] م . ن : ١٤ / ٤٣ .

فخطاب الإمام (عليه السلام) المعرفي أخذ اتجاهين على وفق نظرية المعرفة اتجاه غيبي فهو مصدر الأساس للمعرفة الإسلامية ، واتجاه عقلي إقناعي وهو مصدر ثاني سار عليه أصحاب المدرسة الإسلامية ، فضلاً عن المدرسة الديالكتيكية.

فخطاب الإمام (عليه السلام) في الاتجاه الأول : سار على وفق خطاب قرآني تشريعي يظهر الحق من الباطل وأحقية قتال الفئة الباغية في قولة تعالى ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ ، ثم دعم حجته ضد خصومه بحجة غيبية أخرى مصدرها الحديث النبوي الشريف ، وبشكل قد خصه بالتعيين إذ جاء مكملا للآية القرآنية في مقاتلة أهل البغي، في أمر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في مقاتلة الذين اوّلوا القرآن في غير تأويله الصحيح .

أما الاتجاه العقلي فبيعة الإمام من قبل المهاجرين والأنصار ، لزمت معاوية كما لزمته في خلافة عثمان عندما كان واليا لعمر ، فبما أنَّ المقدمات واحدة فالحكم واحد، فضلا عن التزام الإمام لبديهيات الخلافة من أنَّ الخليفة له أحقية في العزل والتنصيب لولاته على المدن ، ولكن تمرد معاوية على الخلافة الإسلامية حال من دون ذلك .

ويبقى أنَّ نقول إن سلوك معاوية هو سلوك أولياء الشيطان في المكر والخديعة وإيهام الناس وضلالتهم ، وسلوك أمير المؤمنين (عليه السلام) نابع من إيمانه بالله وبرسوله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فهدفه وغايته وشعاره ، هو رضا الله وطاعته ، ومثلما يقول الجاحظ : « فعلي رضي الله عنه كان ملجماً بالورع عن جميع القول إلا ما هو لله عز وجل رضاً، وممنوع اليدين من كل بطش إلا ما هو لله رضاً، ولا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله ويحبه، ولا يرى الرضا إلا فيما دل عليه الكتاب والسنة »[1] .

---

[1] رسالة في الحكمين ، ضمن رسائل الجاحظ السياسية : ٣٦٦ ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٠ / ٢٢٩ ، وشرح نهج البلاغة العلامة التستري : ١٣ / ٥١٤

٥- المهاجرون :

وبما إن ملاك الحقيقة هو الحكاية عن الواقع على وفق نظرية المعرفة من منظورها الإسلامي «إلا أنَّ البعض لا يعد المعرفة سوى وسيلة للانتفاع من متعلقها أعم من الإنسان والعالم ولا يلحظ أهمية دورها في الكشف عن الواقع أبداً ، ويحصر دورها وعملها في كونها وسيلة نفعية فقط – سواء أكان كشفها عن الواقع صحيحاً أم لا– إذ يمكن أن يكون لفرضية خاطئة نفس الأثر النفعي الذي تتعهده فرضية صحيحة ؛ لأنَّ ذلك الأثر النافع لا يختص بأي من تلك الفرضيتين بل للجامع بينهما» [١] .

وأساس هذا التفسير هو الخلط بين الوسيلة والهدف ، وجعل العلم وسيلة للانتفاع من الإنسان والعالم .

وهذا نجده عند بعض من الذين كتبوا عن معاوية ، أو الذين قالوا عنه أنه اجتهد فاخطأ[٢] ، فمعاوية كانت لديه حقيقة المعرفة هي الانتفاع الدنيوي من سُدَّج أهل الشام والعراق للوصول إلى منافع دنيوية مؤقتة ، وهذا الوهم جعله يحاول إبعاد الحقيقة الكاشفة للواقع عن أذهان الناس ، وخلق الوهم في خلط أوراق وتشويش على أحق الناس بالخلافة .

هذا الوهم في الحقيقة النفعية حاول معاوية استخدامه في رسائله إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) من اجل الوصول أهدافه السلطوية وكان بارع التنوع والأسلوب في غش الناس ، على الرغم من سفسطته وعدم انطلاء مكره وخديعة على أمير المؤمنين (عليه السلام) .

---

[١] نظرية المعرفة في القرآن : ٣١٥.

[٢] يقول ابن خلدون في مقدمته : «ولمّا وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم فيها الحقَّ والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع إليه ملحد ، وإنما اختلف اجتهادهم في الحق وسفه كل نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه وإن كان المصيب علياً فلم يكن معاوية قائما فيها بقصد الباطل إنما قصد الحق وأخطأ)) مقدمة ابن خلدون : ١ / ٢٠٥ .

إنَّ من أساليبه النفعية في إيهام الناس ما نراه في رسائله التي تعد أن جبهته جبهة المهاجرين ، وأنَّ أنصاره أنصار رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يوم بدر في محاولة لخلط الأوراق في تقوية جبهته ضد للإمام إذ يقول :

«وإنما تعرف أمنيتك ، لو قد زرتك في المهاجرين من أهل الشام بقية الإسلام ، فيحيطون بك من ورائك ، ثم يقضي الله علمه فيك والسلام على أولياء الله »[١]

فخطاب معاوية المحوري في هذا النص هو خلط الأوراق وبيان صبغة شرعية لقتال الإمام من خلال بيان أن أنصاره من الشاميين أكثرهم من المهاجرين ، وليس هدف الرسالة التهديد كما هو الظاهر .

فإضاعة الحقيقة عن الناس هدف أهل الباطل من الانتهازيين الذين يحاولون الوصول إلى السلطة عن طريق الكذب والخداع ، فمتى كان أهل الشام من المهاجرين حتى يرفع معاوية صوته في خطابه .

ومعاوية يتوعد الإمام بالمهاجرين والأنصار بخطاب لا يوافق الواقع ولا يحكي عنه، وما يكشفه الواقع أنه «ليس معه من الأنصار إلا اثنان فقط ، النعمان بن يشير، ومسلمة بن مخلد تبعاه طمعاً في دنياه كابن العاص ، وكان مع الإمام تسعمئة من الأنصار ولا نعرف أحداً من المهاجرين كان مع معاوية ، وكان منهم مع الإمام ثمانيمئة ، وكان في جيش معاوية الأمويون والمنافقون الذين حاربوا رسول الله مع أبي سفيان ، وهذا الشيء بديهي وطبيعي يفرضه واقع الحال ؛ لأنَّ الإمام امتداد لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ومعاوية امتداد لأبيه أبي سفيان »[٢]

والإمام لا يترك هذه الرسالة ليكشفها الواقع فحسب وإنما يظهر زيفها وإيهامها للناس من خلال مصادر المعرفة لدى المسلمين ، إذ يقول في رده على هذه الرسالة :

«وزعمت أنك زائري في المهاجرين ، وقد انقطعت الهجرة حين أسر أخوك »[٣]

---

[١] الإمامة والسياسة : ١ / ١٠٠ .

[٢] في ظلال نهج البلاغة : ٥٤٣ –٥٤٤ .

[٣] الإمامة والسياسة : ١ / ١٠٠ .

فالنص يظهر مدى بداهة إجابة الإمام (عليه السلام) في رسالته لمعاوية ؛ لحياة الإمام وسيرته الطويلة الملتصقة بسيرة الإسلام من وهلتها الأولى لرفرفة جناح جبرائيل في غار حراء إلى انتصار الإسلام وعروج نبي الإسلام إلى المليك المقتدر ، ومدى سفسطة معاوية وأسلوبه في إيهام الناس الذين لم تكن لهم معرفة في قضايا الإسلام ومعارفه مما جعلهم أحد طرق الوصول إلى أهدافه وغاياته الكسروية .

إن زعم معاوية مكشوف ولا ينطلي على أهل الحق لأنَّه ليس معه مهاجر، لأنَّ أكثر من معه ممن رأى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) هم أبناء الطلقاء ، ومن أسلم بعد الفتح ، وقد قال (عليه الصلاة والسلام) :«ولا هجرة بعد الفتح »[١] .

والإشارة حين أسر أخاه ، يزيد بن أبي سفيان يوم فتح مكة وكان قد خرج في نفر من قريش يحاربون ويمنعون المسلمين من دخول مكة ، فأسر وادخله أبو سفيان داره فأمن (لأن من دخل دار أبي سفيان فهو أمن) [٢] .

فأراد الإمام (عليه السلام) بيان حقيقة أمر معاوية من جانبين إظهار إيمانه بسبب الخوف ؛ لكونه من الطلقاء ، وبيان كذبه في بيان المهاجرين ، وهذا ما يكشفه الواقع ، من جانب وجود المهاجرين ، وبيان عدم المؤامرة على الإسلام لو كانوا حقاً مؤمنين .

والواقع الذي يكشف عنه مصدر المعرفة التاريخي يخبر عن الواقع الحقيقي بأنَّ أكثر المهاجرين أو الأنصار كانوا في جبهة الإمام ، في مقاتلة معاوية ، كما اسلفنا وهذه الحقيقة يؤكدها أمير المؤمنين (عليه السلام) في رسالته إلى معاوية :

«ولئن أنْسَأ الله في أجلي قليلاً لأغزينَّك سرايا المسلمين ولأنهدنّ إليك في جحفل من المهاجرين والأنصار »[٣].

---

[١] من لا يحضره الفقيه : ٣ / ٣٦٠ ، والاستيعاب في معرفة الأصحاب : ٢ / ٨٣٧ ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة : ٣ / ١٧٢ .

[٢] عفا الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) عن أبي سفيان وآخرين ، وقال : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ينظر : سيرة ابن هشام : ٢ / ٢٦٧ .

[٣] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١٥ / ١٤ .

هذه الحقيقة التي يتوعد بها الإمام (عليه السلام) معاوية بعد أنْ يئس من هدايته إلى طريق الحق ؛ إذ هي كاشفة لواقع سرايا جيش الإمام وصفوته العظيمة القدر من المهاجرين والأنصار ، الذين ما زالوا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يواجهون الكفر والضلالة ، وهم يحملون ذات الأهداف والغايات والمنعة والقوة ؛ لإيمانهم بأنَّ الجبهة التي تواجههم ، هي نفسها أو هي امتداد لجبهة الكفر والشرك ، ولكن بوجه آخر يحمل ظاهراً الإيمان ، كما بيَّن ذلك أمير المؤمنين (عليه السلام) في كتابه إلى أهل الأمصار يقص فيه ما جرى بينه وبين أهل الشام :

« وكان بدءُ أمرنا أنَّا التقينا والقوم من أهل الشام ، والظّاهر أنَّ ربَّنا واحدٌ ، ونبيَّنا واحد، ودعوتنا في الإسلام واحدةٌ ، ولا نستزيدُهُم في الإيمان بالله والتَّصديق برسوله ، ولا يستزيدوننا ؛ الأمرُ واحدٌ إلاَّ ما اختلفنا فيه من دم عثمان ، ونحن منه براءٌ » [1]

وحقيقة كفر معاوية بيَّنها أحمد بن حنبل في مسائله : « مات والله معاوية على غير ملة الإسلام »[2] ، وهي حقيقة عرفتها القلوب الواعية ، والناظره للحق ، وقد أغفلتها قلوب الذين ظلموا .

ولِما للمهاجرين من قصب السّبق في الإسلام ، وما لهم من فضل في هداية الناس، ونصرة الإسلام ، وبما يتحلون به من منزلة رفيعة لقربهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، إذ يحاول أمير المؤمنين (عليه السلام) استثمار تلك المنزلة والفضل في رفع الأكنة في قلوب الذين ضلوا ، وتمردوا على وحدة المسلمين ، من خلال إرسال مبعوثه جرير [3]صاحب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى معاوية وهو يحمل رسالته التي جاء فيها :

---

[1] نهج البلاغة : ٥٢٥ .

[2] مسائل الإمام أحمد بن حنبل : ٤٠٨ .

[3] جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك البجلي ، صحابي مشهور ، أسلم هو وقومه في رمضان سنة ١٠ هـ ، شارك في معارك عدة منها معركة القادسية ، أرسله الإمام (عليه السلام) إلى الشام لأخذ البيعة من معاوية ، كانت وفاته سنة ٥١ هـ ، ينظر : سير أعلام النبلاء : ٢ / ٥٣١ – ٥٣٥ .

«وقد بعثت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله ، وهو من أهل الإيمان والهجرة فبايعه ولا قوة إلا بالله »[١] .

فالنص يظهر أن البيعة تكون لأهل الإيمان والهجرة لما يمتلكونه من خصال يتميزون به عن الآخرين من سلوك فيه رضا لله تجعلهم موضع ثقة وهداية للناس ، فضلاً عما تحمله هذه الخطوة الاستقرائية في الاستدلال وهي سائرة من الجزئي إلى الكلي [٢]، في كشف حقيقة أصحاب الإمام واستثمارها استثماراً حسياً مقارناً تجعل من أهل الشام في ريب مما هم فيه من غي وضلالة ؛ فأهل الإيمان والهجرة ، ليس مثل الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون في الشورى ؛ ولكن « الدوافع الذاتية التي تنبع من حب الإنسان لنفسه ، وتدفعه إلى تقديم صالحه على صالح الآخرين ، تحول دون استثمار الوعي العملي عند الإنسان استثماراً مخلصاً في توفير المصالح الاجتماعية ، وإيجاد التنظيم الاجتماعي الذي يكفل تلك المصالح وتنفيذ هذا التنظيم»[٣] .

ويؤكد أيضاً الإمام (عليه السلام) هذا المعنى في رسالته إلى الأشعث بن قيس في حديثه عن طلحة والزبير إذ يقول :

«وسرت إليهم فيمن بايعني من المهاجرين والأنصار ، فالتقينا »[٤]

فالنص يرسم صورة واضحة للحقيقة من أنْ أصحاب الإمام وأتباعه هم من أهل الإيمان ، والصفوة ؛ ليعود بذاكرة الأشعث ، ويرسم صورة الحقيقة للمتلقي القريب والبعيد ؛ بأنه سار على نفس الخطى التي سار عليها رسول الله (صلى الله عليه آله وسلم) في حفظ الدين والنصرة من المهاجرين والأنصار ، وهي ذات السيرة والنصرة في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما قاتل أهل الكفر من أجل رسالة السماء .

---

[١] العقد الفريد : ٤ / ٣٣٢ .

[٢] ينظر فلسفتنا : ٦٧ .

[٣] المذهب الذاتي في نظرية المعرفة : ٤١٢ .

[٤] الإمامة والسياسة : ١ / ١١١ .

وقد يتساءل القارئ عن الحقيقة لماذا أكد الجانبان التمسك بالمهاجرين ، وزعم معاوية أنَّ أصحابه من المهاجرين؟

فحقيقة المهاجرين مرتبطة في السبق إلى الإيمان ، والدفاع عن الإسلام ، وترك ما هو غالٍ ونفيس من اجل إعلاء كلمة الله ، وإظهار حقيقة الوجود ، وحقيقة خلافة الأرض ، وتسخيرها ، هذا عنصر القوة عند المهاجرين أثاره القران في سورة آل عمران ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1] فضلاً عن منزلتهم عند الله ، ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[2] ، وهذا يظهر دورهم الكبير في إظهار رسالة السماء ومنزلتهم عند الملك الجبار .

إنَّ ما للمهاجرين من سبق إلى الإيمان بالله والجهاد في سبيله وتركهم للباطل هو مقياس ظهور حقيقتهم ومنزلتهم في كل زمان ، وليس في زمان الإمام ومعاوية وحتى في وقتنا الحالي ، وكما يشير الدكتور علي الوردي :

«يجب على المسلمين اليوم أن يحمدوا ربهم ألف مرة ؛ لأنه لم يخلقهم تلك الفترة العصيبة ، ولو أن الله خلقهم حينذاك لكانوا من طراز أبي جهل أو أبي سفيان او أبي لهب أو لكانوا من أتباعهم على أقل تقدير ، ولرموا صاحب الدعوة بالحجارة وضحكوا عليه واستهزأوا بقرآنه ومعراجه »[3].

ويكمل الدكتور علي الوردي ويوجه تصوره إلى القارئ إذ يقول : «تصور يا سيدي القارئ نفسك في مكة أبان الدعوة الإسلامية وأنت ترى رجلاً مستضعفاً يؤذيه الناس بالحجارة ويسخرون منه ويقولون عنه مجنون ، وتصور نفسك أيضاً قد نشأت في مكة مؤمناً بما آمن به آباؤك من قدسية الأوثان ، ربتك أمك على هذا وأنت قد اعتدت عليه منذ صغرك فلا ترى شيئاً غيره ، ثم تجد ذلك الرجل المستضعف يأتي فيسب هذه

---

[1] سورة آل عمران : ١٢٣

[2] سورة التوبة : ١٠٠.

[3] مهزلة العقل البشري :٥٥ .

الأوثان التي تتبرك بها فيكرهه أقرباؤك وأصحابك وأهل بلدتك ، وينسبون إليه كل منقصة ورذيلة ، فماذا تفعل »[١] .

أي إن التضحية ونبذ المصالح الشخصية ؛ كانت الوسيلة التي اعتلاها هؤلاء الصفوة ، لأنَّ هدف الإسلام الذي رسمه للإنسان في حياته ، «هو الرضا الإلهي ، والمقياس الخلقي الذي توزن به جميع الأعمال إنما هو مقدار ما يحصل بهما من هذا الهدف المقدّس ، والإنسان المستقيم هو الإنسان الذي يحقق هذا الهدف ، والشخصية الإسلامية الكاملة هي الشخصية التي سارت في شتى أشواطها على هُدى هذا الهدف وضوء هذا المقياس وضمن إطاره العام »[٢] .

٧ – الناكثون:

النَّكْثُ: نَقض ما تَعقدُه وتصلِحُه من بَيعَةٍ وغيرها، نَكَثَه يَنْكُثُه نَكْثاً فانْتَكَثَ، وتَناكَثَ القومُ عُهودَهم: نقضوها[٣] ، والمراد بالناكثين اصطلاحاً هم أهل الجمل ؛ لأنهم نكثوا البيعة مع أمير المؤمنين (عليه السلام) وساروا إلى البصرة لقتاله [٤]، وفي الحديث الشريف : « أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علي بن أبي طالب بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين »[٥] ، وأراد بالناكثين أهل وقعة الجمل ؛ لأنهم كانوا بايعوه ثم نقضوا بيعته ، وقاتلوه ، وأراد بالقاسطين أهل الشام ، وبالمارقين الخوارج .

---

[١] مهزلة العقل البشري :٥٥.

[٢] المذهب الذاتي في نظرية المعرفة : ٤١٨ .

[٣] لسان العرب : ٢/ ١٩٦ .

[٤] ينظر : مجمع البحرين : ٢ / ٢٦٦ .

[٥] المستدرك على الصحيحين : ٢ / ١٣٩ .

وهؤلاء لم تكن لهم أيّة أهداف اجتماعية أو تطلعات إصلاحية كما يدعون ؛ وإنما دفعتهم مصالحهم الخاصة لنكث البيعة ؛ لأن الناظر إلى عهد أمير المؤمنين في أيام مقتل عثمان يرى أنَّه «لم تمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أو عليه ، فكان معه الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية ، وكان عليه جميع الولاة الذين أنتفعوا في عهد عثمان ، وجميع الطامعين في الانتفاع بالولاية والأموال العامة ، وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير »[١]

ولا بد أن نبحث عن الحقائق وإظهارها من خلال استقراء النصوص في الرسائل المتبادلة ، من خلال معايير المعرفة الحقة ، في ضوء نظرية المعرفة ومن استقراء تلك النصوص والتبحر في مضامينها ومعانيها ، ما نجده من حقائق يظهرها الإمام في إثبات براءته من مقتل عثمان في خطابه إلى طلحة والزبير اللذين نكثا بيعتهما للإمام واتهما الإمام بالمشاركة في قتل الخليفة عثمان ، إذ يقول (عليه السلام) في رسالته مخاطبا إياهما :

«وقد زعمتما أني قتلت عثمان ، فبيني وبينكما من تخلف عني وعنكما من أهل المدينة ، ثم يلزم كل امرئ بقدر ما احتمل »[٢]

فالإمام أراد إظهار حقيقة مقتل عثمان باطلاق الدليل الحسي من خلال حضور الشاهد من أهل المدينة ؛ لأنَّ أسس المنهج المعرفي في القرآن بني على وجود الشهود ، فالإمام أراد من خلال خطابه لطلحة والزبير بيان معيار ظهور الحقائق من خلال بيان المعرفة الحسي الشهودي في بيان المعارف وإظهار الحقائق ثم يظهر الإمام من خلال خطابه في إظهار الحقائق ، مقدار الخطأ الذي وقعا فيه من خلال نكثهما البيعة، وإخراج أم المؤمنين في المشاركة في قتاله ، ويضع موازنة بين نكث البيعة وتحريض عائشة لمقاتلة الإمام وبين قضية مقتل عثمان ؛ لكون إنَّ طلحة والزبير قد

---

[١] عبقرية الإمام علي : ٩٣ .

[٢] الإمامة والسياسة : ١ / ٩٠ .

بايعا الإمام بعد مقتل عثمان ، فما غدا مما بدا ، قد بايعوه في المدينة ونكثا بيعتهما في البصرة ، وكما يقول :

«وزعمتما أني آويت قتلة عثمان ، فهؤلاء بنو عثمان فليدخلوا في طاعتي ، ثم يخاصموا إلي قتلة أبيهم ، وما أنتما وعثمان ، إن كان قتل ظالماً أو مظلوماً؟ ولقد بايعتماني وأنتما بين خصلتين قبيحتين : نكث بيعتكما ، وإخراجكما أمَّكما ، فارجعا أيهما الشيخان عن رأيكما ، فإن الآن أعظم أمركما العار ، من قبل أن يجتمع العار والنار ، والسلام »[١].

إنَّ قضية مقتل عثمان ليست لها صلة في قضية نكث البيعة ، إذ إنَّ طلحة والزبير، لم يُظهرا الطلب بدم عثمان، إلّا بعد أن أيسا من الحصول على بعض الامتيازات في حكومة أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ولم يشيرا إلى المطالبة بدم عثمان ، إلا بعد أربعة أشهر من مقتله، فأين كان دم عثمان خلال كل هذه المدَّة؟ ولِمَ لم ينبسا ببنْت شَفةٍ للمطالبة بدمه، فهل استجدَّ جديد، حتى يكون سفك دم عثمان حراماً، بعد أن كان حلالاً طوال هذه الفترة[٢] ، فضلاً عن إن طلحة والزبير كانا جزءاً من المؤامرة ضد عثمان في التحريض والمشاركة في قتله ، يقول العقاد في ذلك : «خذ لذلك مثلاً علة طلحة وأصحابه الذين ثاروا على علي ليطلبوه بدم عثمان ، وهم لم يدفعوا عنه في حياته بعض ما دفع عليٌّ عنه ، وقد كان عثمان كثيراً ما يقول : ويلي من طلحة ... أعطيته كذا وكذا ذهباً وهو يروم دمي ، اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه »[٣] وهناك الإشارة إلى أن «بعد أن بويع الإمام علي (عليه السلام) بالخلافة طفق المعارضون ـ وعلى رأسهم معاوية ـ ينشئون الرسائل السرية الكثيرة ويبعثونها إلى الأمصار الإسلامية المختلفة ويؤلبون الناس على الخليفة الجديد ، ويحرضونهم للنيل

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ / ٩٠ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام) : ٢٦ .

(٢) ينظر : الزبيريون وحرب الجمل دراسة وتحليل ، محمد علي ، وعيسى قاسم ، مجلة رسالة القلم .

(٣) عبقرية الإمام علي : ٥٣ .

من قتلة عثمان ويستنفرون أنصارهم لمؤازرتهم والانضمام إلى حزبهم » [١]وجود دوافع في تحريض معاوية لهما في شعار كاذب في قضية مظلومية عثمان والمطالبة بدمه ، كما ذكرت الروايات في إرسال رسالة من معاوية إلى الزبير يحرضه على نكث البيعة كما جاء في الرسالة :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله بن الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان: سلام عليك، أمّا بعد، فإني قد بايعت لك أهل الشام، فأجالوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب، فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، فإنّه لا شيء بعد هذين المصرين، وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك، فأظهرا الطلب بدم عثمان، وادعوا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجدّ والتشمير، أظفركما الله، وخذل مناؤكما»[٢] .

من خلال هذه الرسالة يتَّضح الدور الكبير الذي لعبه معاوية في انحراف الزبير وهنا لابد من التساؤل كيف برر طلحة والزبير نكث البيعة؟ وهل قتل عثمان يبرر ذلك لهم ، وهل قتل عثمان كان بعد بيعة الإمام ! لكنما هو الطمع بعد أن يئسا من ولاية الكوفة والبصرة ، وما هو المبرر ، وهل كانا مكرهين كما أظهر في كتاب الصلح بين أصحاب الجمل ووالي الإمام عثمان بن حنيف على البصرة ، على أن يبعثوا رسولا إلى المدينة ، ولهذا كان جواب الإمام (عليه السلام) حازما ويقينياً مسبوقا بقسم :

«والله ما أكرها إلا كرها على فرقة ولقد أكرها على الجماعة وفضل »[٣].

ويؤكد أمير المؤمنين (عليه السلام) عدم الإكراه في البيعة ، على الرغم من كون البيعة عامة في مسجد رسول الله ، وأمام الناس جميعاً ، ويؤكد ذلك في رسالته لهما في خطاب يحمل صورة عقلية للحقيقة الواضحة إذ يقول :

---

[١] الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي : ٨٦

[٢] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١ / ١١٥ .

[٣] تاريخ الطبري : ٤ / ١٨٨ ، ورسائل الإمام علي (عليه السلام) : ٢١

«أما بعد : فقد علمتما ـ وإن كتمتما ـ أني لم أرد الناس حتى أرادوني ولم أبايعهم حتى بايعوني ، وإنكما لممَّن أرادني وبايعني ، إنَّ العامة لم تبايعني لسلطان غالب ، ولا لعرض حاضر ، فإن كنتما بايعتماني طائعين فارجعا وتوبا إلى الله من قريب وإن كنتما بايعتماني كارهين ، فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية ، ولعمري ما كنتما بأحق المهاجرين بالتقية والكتمان ، إنك يا زبير لفارس رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وحواريُّه وإنك يا طلحة لشيخ المهاجرين ، وإن دفعكما هذا الأمر من قبل أن تدخلا فيه ، كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما به »[١]

فالخطاب واضح يحمل كل معايير الحقيقة المعرفية على وفق مقاييس كانت في الوضوح والسهولة ، في التلميح إلى الحصول على السلطة ، فضلا عن الوقوع في موقع الشبهة في مورد النفاق الذي يعد أشد من الكفر في موردين لا ثالث لهما .

لقد بنيت فلسفة هؤلاء في نقض البيعة على فلسفة برجماتية قائمة «على أساس أنَّ الحق هو ما كان مفيداً أو ناجحاً أو نافعاً في الحياة »[٢] من وجهة نظر قاصرة ومحدودة عن هذه الحياة .

وهذا النكوث في البيعة من دون مبرر من قبل طلحة والزبير يؤكده الإمام في رسالة أخرى إلى الأشعث بن قيس جاء فيها :

«وقد كان طلحة والزبير أول من بايعني ثم نقضا بيعتي على غير حدث ، واخرجا أم المؤمنين فساروا إلى البصرة »[٣] .

ولهذا كانت الحقيقة المرة أنَّ طلحة والزبير كان هم أول من قادا الفتنة بين المسلمين ، وجعلا من أعداء الدين أن يتجرؤوا على خليفة المسلمين في الخروج وقتال، فضلاً عن ذلك جعلا عائشة تتجرأ على مقاتلة أمير المؤمنين .

---

[١] الإمامة والسياسة : ١ / ٩٠ .

[٢] نظرية المعرفة المدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات : ٢٧٠ .

[٣] الإمامة والسياسة : ١ / ١١١ .

إنَّ طلحة والزبير لم ينكثا البيعة مع أمير المؤمنين فقط ، وإنّما نقضا العهد مع والي الإمام على البصرة عثمان بن حنيف [١]، إذ يقول طه حسين في هذا الشأن :

«وكذلك لم يكتف هؤلاء بنكث البيعة التي أعطوها علياً ، وإنما أضافوا إليها نكث الهدنة التي اصطلحوا عليها مع عثمان بن حنيف وقتلوا من قتلوا من أهل البصرة الذين أنكروا نقض الهدنة وحبس الأمير وغصب ما في بيت المال وقتل من قتلوا من حراسه»[٢] .

أنَّ هذه الحقيقة المرة كانت من مرأى ومسمع المسلمين ؛ مما يجعلها حقيقة ثابتة غير قابلة للتغيير ، لكونها دخلت في موقع المحسوس من المشهور، لذا يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في رسالته إلى أبي موسى الأشعري :

«قوم نكثوا بيعتي وقتلوا شيعتي ، وأحدثوا في الإسلام هذا الحدث العظيم »[٣]

ومن منطلق الحقيقة ووضوح الرؤية لدى الإمام ، وخطأ طلحة والزبير وإصرارهما على نكث البيعة التي قال الله تعالى في شأن نكثها: ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[٤] يظهر طريق الحق الذي سار عليه الإمام ومدى الوهم الذي أصاب خصومه في نكث البيعة والخروج لمقاتلته .

وقد أشار الإمام إلى أبعاد انحراف هؤلاء عن الإسلام وشق نسيج الأمة في اجتماعهم على الباطل وابتعادهم عن حقيقة الإسلام ووضع أسس الصراع العسكري والفتنة بين المسلمين ، ولذا فالحق طريق يعرف بالمواقف لا بالناس ولهذا يقول أمير المؤمنين (اعرف الحق تعرف أهله)، وذلك بعد ما سأله رجل ذات يوم : أيمكن أن يجتمع طلحة والزبير وعائشة على الباطل؟ فقال : إنّك لملبوس عليك، إن الحقّ

---

[١] ينظر : تاريخ الطبري : ٤ / ١٨٧ – ١٨٨ .

[٢] الفتنة الكبرى علي وبنوه : ٤٥ .

[٣] الجمل أو النصرة في حرب البصرة : ١٣٠ .

[٤] سورة الفتح : ١٠

الفصل الرابع ـــــــ

الفصل الرابع ـــــــ

الخاتمـــــة

الخاتمة :

بعدما قطع البحث شوطاً طويلاً في دراسة الرسائل المتبادلة بين الإمام علي (عليه السلام) وخصومه ، لا بد أن نقف على أبراز ما توصلت إليه هذه الدراسة بشكل موجز :

- إنَّ ما تمتلكه هذه الرسائل من أهمية ، وحيوية ، وحركة ، وديمومة جعلها تمتلك عنصر المخاطبة الزمانية في أي وقت وفي أي مكان وكأنها صادرة من الإمام (عليه السلام) في هذا العصر ومن أجل الإنسان في زماننا هذا ، لتكون درساً ينتفع به جميع أفراد المجتمع ولمختلف شرائحه ؛ لذا تعد من كنوز التراث الإسلامي ، وليت أن هذه الرسائل وصلت إلينا كلها .

- أثبت رسائل الإمام (عليه السلام) من خلال دراسة مضامينها أنَّ المصدر الأساس في تلقي المعارف الإسلامية وفهم الإسلام عقيدة وتشريعاً ، وأدباً ، وأخلاقاً ، ورؤى كونية هو القرآن والسنة الشريفة .

- انطلق أمير المؤمنين (عليه السلام) في رسائله إلى خصومه من منطلق المعرفة الأول وهو التوحيد الذي يعد أساس العلم والمعرفة في الإسلام ، وهذه المعرفة تتم من خلال الأنبياء والرسل والسير على خطاهم هو تجسيد للإسلام وتسييره نحو مسيرته الارتقائية التكاملية ، مما يحقق أهدافه وغاياته المنشودة في هذا العالم ، فضلاً عن اعتماده على نوافذ الغيب في منطلق المعرفة على عكس خصومه الذين لم تكن لهم صورة واضحة عن منطلقات المعرفة ، وكيفية صياغتها من أجل الإنسان .

- اتضح من خلال الدراسة اختلاف الأساليب لاختلاف الأفكار الناتجة عن الرؤية الكونية القائمة على أساس الإيمان بالله والمعاد والنبوة .

- وجد البحث التزام خصوم الإمام بالأفكار الجاهلية والدفاع عنها ، وظهورها في أساليبهم ومضامينها من خلال الهجاء ، والكذب ، والتلفيق ، والعودة إلى العصبية والثأر وغيرها من موانع المعرفة الذي أثبتها البحث ، وهو ناتج عن ضعف الجانب الإيماني لديهم .

- أظهرت رسائل الخصوم التي بعثوها إلى الإمام (عليه السلام) ، أنَّ النظام الفكري لهم نظام مادي خالص أخذ فيه الإنسان منفصلاً عن مبدئه وآخرته ، محدوداً بالجانب النفعي من حياته .

- إنَّ من أهم العوامل التي تكمن وراء توفيق المجتمعات البشرية وانتصاراتها وانتكاساتها هي عوامل تربوية ، لذا حفلت رسائل الإمام (عليه السلام) بكم هائل من النصائح والمواعظ والإرشادات في هذا المجال حتى عدّت البعد الأول من الأبعاد المعرفية في الرسائل المتبادلة إلى مناوئيه .

- وجد البحث أن الغاية الرئيسة من رسائل الخصوم هو إيهام الناس وصرفهم عن الحقيقة ، وهي مرسلة لطبقة الشعب وليس للإمام من أجل الوصول لأهدافهم وغاياتهم في حب السلطة والتأمّر على الناس، لذا حرص الإمام (عليه السلام) على الإجابة عن تلك الرسائل لكشف الحقيقة وإبعاد الوهم عن الناس .

- أتفق خصوم الإمام جميعاً على ألا يساقوا بعصا الحق بيد الخليفة الشرعي ، وأن يتبعوا طريق الباطل ؛ خوفا من عدالة الإمام (عليه السلام) ، فكان معاوية صاحب اليد الطولى في هذه المؤامرة ، والناطق الرسمي لها وما الآخرون إلا أعوان وأنصار؛ مما كان له الانعكاس الواضح في كم نصوص الرسائل المتبادلة وعددها .

- وجد البحث من خلال دراسة الرسائل المتبادلة ، أنَّ وحدة المسلمين والمحافظة على بيضة الإسلام هي الحقيقة الكبرى التي جسدها وضحى من أجلها قادة الإسلام وربما كان أمير المؤمنين الإنسان الأول – في تاريخ البشرية – الذي

تجرع الغصة وسكت قبل فترة الحكم من اجل الحفاظ على قوة الأمة ووحدتها وسلامة العقيدة من تهديدات التي تحيط بها وهو لديه القدرة والمنعة ، لذا كانت رسائله حافلة بهذا المضمون من أجل الحفاظ على تلك الوحدة .

- إنَّ الأدب على وفق نظرية المعرفة يُعّد أداة لكشف الواقع ، ومنهجاً لإظهار الحق، وصورةً من صور المعرفة ، ووسيلة من وسائل النهوض بواقع الإنسان في مسيرته نحو التكامل البشري .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

****

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

- الأئمة الاثنا عشر دراسة موجزة عن شخصيتهم وحياتهم عليهم السلام ، الشيخ جعفر السبحاني ، دار جواد الأئمة (عليه السلام) للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط١، ٢٠١٥ م – ١٤٣٦ هـ .
- أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية ، السيد محمد باقر الصدر، إعداد وتحقيق لجنة المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر ، شريعة ، قم ، إيران ، ط ١ ، ١٤٢٥هـ .
- آداب إتباع الأئمة ، القاضي النعمان بن حيون التميمي المغربي (ت ٣٦٣ هـ) تحقيق مصطفى غالب ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٥ م .
- الآلهة والأبطال في اليونان القديمة ، أ.أ نيهاردت ، ترجمة د. هاشم حمادي ، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، سوريا ، ط١ ، ١٩٩٤ .
- الإبستمولوجيا دراسة تحليلية لنظرية العلم في التراث ، زينب إبراهيم ، دار الهادي، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٥هـ–٢٠٠٤ م .
- ابن تيميّة حياته عقائده ، صائب عبد الحميد ، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط٢ ، ١٩٩٧ م
- إثبات النبّوة من خلال آيات الوعيد والعتاب ، محمد خليل جيجك ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، د . ت .
- إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، القاضي نور الله الحسيني المرعشي التستري ،(ت ١٠١٩ هـ) ، منشورات مكتب آية الله العظمى المرعشي النجفي ، قم ، إيران ، د . ت .
- إحياء علوم الدين ، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) ، دار ابن الحزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٦هـ– ٢٠٠٥ م .

- الأخلاق دراسة في علم الاجتماع الأخلاقي ، د. حسين عبد الحميد احمد رشوان، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، مصر، ٢٠٠٨ م .
- الأخلاق في القرآن الكريم ، آية الله ناصر مكارم الشيرازي ، بمساعدة مجموعة من الفضلاء ، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، قم ، ط ٢، ١٤٢٦ هـ .
- أدب السياسية في العصر الأموي ، أحمد محمد الحوفي ، مطبعة النهضة ، مصر، ١٩٦٠ م .
- أدوات المعرفة في القران الكريم ، جواد أمين ، مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية ، قم ، إيران ، ط١ ، ١٤٣٥ هـ
- الأربعون ، السيد روح الله الخميني ، تعريب محمد الغروي ، مطبعة ستاره ، قم ، إيران ، ط ٥ ،١٤٢٦هـ-٢٠٠٥ م .
- أزمة العقل المسلم، د . عبد الحميد أحمد أبو سليمان ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الولايات المتحدة الأمريكية ، د . ت .
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، د . ت .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة ، عز الدين ابن الأثير علي الشيباني (ت٦٣٠هـ) تحقيق ، علي محمد عوض وآخرون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٢م .
- أسرار الحياة رواية تصور الحياة وحقيقتها وفق الرؤية الإسلامية ، د . نور الدين أبو لحية ، دار الأنوار للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٤٠ هـ – ٢٠١٨ م .
- الإسلام السياسي ، محمد سعيد العشماوي ، مكتبة المدبولي الصغير ، ط ٤ ، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م .
- الإسلام ومتطلبات العصر ، مرتضى مطهري ، دار الإرشاد للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط٢٠١٢،١م

- الإسلام يقود الحياة ، آية الله محمد باقر الصدر، وزارة الإرشاد الإسلامي ، طهران ، ط٢، ١٤٠٣هـ .
- الإصابة في تميز الصحابة ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢ هـ) ، تحقيق ،عادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٥هـ .
- أصحاب الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) والرُّواة عنه ، محمد هادي الأميني ، دار الكتاب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢ م .
- الأصفى في تفسير القرآن ، محمد حسين الفيض الكاشاني ، مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية ، قم ، ط١ ، ١٩٩٩م
- أصول المعرفة والمنهج العقلي ، د. أيمن المصري ، المركز الثقافي العربي ، د . ت .
- أضواء على النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر ، المقداد السيوري ، تعليق حيدر الوكيل ، مطبعة وفا ، قم ، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م .
- الأعلام ، خير الدين بن محمود الزركلي (ت ١٣١٠هـ) ، طبعة دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٩ م .
- أعلام الهداية (أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، لجنة التأليف في المعاونية الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) ، المجمع العالمي لأهل البيت ، قم ، ط٥، ١٤٣٠هـ.
- الأغاني ، أبو فرج علي بن الحسين الأصفهاني ، (٣٥٦هـ) ، تحقيق د. احسان عباس ، و د. إبراهيم السعافين ، والأستاذ بكر عباس ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٤ م .
- الاقتصاد الإسلامي ، سعيد علي العبيدي ، دار دجلة ، الأردن ، ط١، ٢٠١١م .
- اقتصادنا ، آية الله السيد محمد باقر الصدر ، لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الصدر ، شريعت ، قم ، إيران ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ.

- أمالي الصدوق ، الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي ، (ت ٣٨١ هـ) ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م .
- الأمالي للشيخ المفيد ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان البغدادي ، الملقب بالشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ)، دار التيار الجديد ، ودار المرتضى ، بيروت ، د. ت .
- الإمام الحسين (عليه السلام) سمو المعنى في سمو الذات ، عبدالله العلايلي ، دار مكتبة التربية، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٦ م .
- الإمام علي ، د. علي شريعتي ، ترجمة على الحسيني ، دار الكتاب الإسلامي ، قم ، إيران ، ط٢، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧ م .
- الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ادوار محوريّة وقيادة متميزة في الإسلام، عادل الأديب ، مطبعة المغرب ، العراق ، ط ،١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م .
- الإمام علي صوت العدالة الإنسانية ، جورج جرداق ، دار الفكر العربي ، بيروت، د . ت .
- الإمامة في الإسلام ، عارف تامر ، دار الأضواء ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م .
- الإمامة والسياسة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ) ، تحقيق ، علي الشيري ، انتشارات الشريف الرضي ، إيران ، ١٤١٣هـ .
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، آية الله ناصر مكارم الشيرازي ، مطبعة سليمان زادة ، قم ، إيران ، ط١ ، ١٤٢٦ هـ.
- أنسنة الحياة في الإسلام ، مرتضى مطهري ، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٤٣٠هـ –٢٠٠٩ م .
- الأنوار الجلاليّة ، نصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢ هـ) ، مجمع البحوث الإسلامية ، مشهد ، إيران ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ .

- الإيمان بالقدر ، د. علي محمد محمد الصلابي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، د . ت .
- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ، العلامة محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ) ، مؤسسة الوفاء ، بيروت ، د . ت .
- بحوث في الملل والنّحل دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الإسلامية ، آية الله جعفر السبحاني ، مؤسسة الإمام الصادق ، قم ، إيران ، د . ت .
- بداية المعرفة ، منهجية حديثة في علم الكلام ، الشيخ حسن مكي العاملي ، الدار الإسلامية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ،١٤١٣هـ .
- البداية والنهاية ، أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) حققه واعتنى به د. الدكتور عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت ،٢٠٠٢ م .
- البرهان في وجوه البيان ، إسحاق بن إبراهيم بن سلمان بن وهب الكاتب ، تحقيق حفني محمد شرف ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، د . ت .
- بصائر في نظرية المعرفة ، معتصم سيد احمد ، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية في حوزة الإمام القائم عجل الله فرجه العلمية ، ط١، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥ م .
- بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة ، العلامة المحقق محمد تقي التستري ، تحقيق مؤسسة نهج البلاغة ، دار أمير كبير للنشر، طهران ، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م .
- البيان والتبيين ، عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٢٥هـ) ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، مطبعة المدني ، مصر ، ١٩٩٨ م .
- تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥ هـ)، تحقيق ، عبد العليم الطحاوي ، مطبعة الكويت ، الكويت ، ط٢ ، د.ت.

- تاريخ ابن خلدون المسمى (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) ، عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، ط٣ ، ٢٠٠٦م .
- تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر، ط ١١ ، د . ت .
- تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ، د. محمود البستاني ، مجمع البحوث الإسلامية ، بيروت ، لبنان ،١٤١٠هـ- ١٩٩٠م .
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، د. حسن إبراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٧ هـ .
- تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك ، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، تحقيق وتعليق عبدأ علي مهنا ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٩٨ م .
- تاريخ الفلسفة الحديث ، أ . و . بن ، ترجمة عبد المجيد عبد الحليم ، مكتبة الانجلو ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٥ م
- تاريخ اليعقوبي ، احمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي البغدادي ، (ت ٢٩٢هـ) ، علق عليه ووضع حواشيه خليل منصور، دار الزهراء، قم ، إيران ،١٤٣٩ هـ .
- تاريخ مدينة دمشق ، الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي ، المعروف بابن عساكر(ت ٥٧١ هـ) ، دراسة وتحقيق علي شيري ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م .

- تحف العقول عن آل رسول صلى الله عليهم ، الشيخ أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني ، قدم له وعلق عليه الشيخ حسين الأعلمي ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، د . ت .
- تذكرة الخواص المعروف بتذكرة خواص الأمة في خصائص الأئمة ، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت٦٥٤ هـ)، تحقيق د. عامر النجار ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨ م .
- التربية الروحية (بحوث في جهاد النفس) ، السيد كمال الحيدري ، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط١ ،١٤٣١ هـ- ٢٠١٠م .
- ترجمة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) من تاريخ مدينة دمشق ، تصنيف أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي ، المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) ، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي ، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
- تزكية النفس ، آية الله السيد كاظم الحسيني الحائري ، دار البشير ، قم ، ط٣ ، ١٤٢٧هـ .
- التشريع الإسلامي مناهجه ومقاصده ، محمد تقي المدرسي ، دار المدرسي للطباعة والنشر ، ط١ ، ١٤١١هـ .
- تصنيف نهج البلاغة ، لبيب بيضون ، مكتب الإعلام الإسلامي ، طهران ، إيران ، ١٤٠٨ هـ .
- التعريفات ، علي بن محمد الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ) ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٧٨ م .
- التفسير السياسي للقرآن دراسة في المبادئ المعرفية ، أبو الحسن حسني وآخرون، مكتبة مؤمن قريش ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ٢٠١٨ م .
- تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ -٢٠٠٠ م .

- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن فرح الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ) ، تحقيق أحمد البردوني ، وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٨٤ ، ١٩٦٤م .
- التفسير الكبير، للإمام محمد فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط٣ ، ٢٠٠٤ م .
- تفسير الميزان ، محمد حسين الطباطبائي ، جامعة المدرسين ، قم ، إيران ، د. ت .
- تفسير فرات الكوفي ، أبو القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي (ت ٣٥٢هـ)، تحقيق محمد الكاظم ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت لبنان ، ط١ ، ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١ م .
- التكامل المعرفي أثره في التعليم الجامعي وضرورته الحضارية ، تحرير رائد جميل عكاشة ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ط ١ ،٢٠١٢ م
- التكامل في الإسلام : احمد أمين ، شركة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ط ١ ، ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١م .
- تنبيه الخواطر ونزهة النواظر ، أبو فراس المالكي الاشتري الحلي (ت ٦٠٥ هـ) ، دار التعارف ، ودار مصعب ، بيروت ، لبنان ، د ، ت .
- تهذيب الأحكام ، أبو جعفر محمد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) ، تحقيق السيد حسن الموسوي الخرسان ، دار التعارف ، ودار مصعب ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠١ هـ .
- تهذيب الأخلاق ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، قرأه وعلق عليه ، أبو حذيفة إبراهيم بن محمد ، دار الصحابة للتراث ، طنطا ، ط ١، ١٩٨٩ م .

- تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، الحافظ المتقن جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي (ت ٧٤٢هـ) ، حققه وضبط نصه وعلق عليه د. بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط٢ ، د . ت
- الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، جمع وتقديم محمد خلف الله ، مكتبة النهضة ، مصر ، ط ٢ ، د. ت .
- الثورات العلوية كتابة التاريخ وقراءة الشعر (٦١- ٣٢٩ هـ) ، د. محمد تقي جون ، منشورات معالم الفكر، الكاظمية ، ط١ ، ٢٠١٦م .
- جامع الأصول في أحاديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري (ت ٦٠٦هـ) ، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه الشيخ عبد القادر الارناؤوط ، دار ابن كثير ، د . ت .
- جامع السعادات ، الشيخ محمد مهدي النراقي ، انتشارات اسماعيليان ، قم ، إيران، ط ٦ ، ١٤٢٦ هـ .
- الجامع في تاريخ الأدب العربي ، الأدب القديم ، حنا الفاخوري ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٩٨٦ م .
- جدلية الصحابة بين النص والعقل والسيرة ، أبو الحسن حميد المقدس الغريفي ، مكتب أنصار الحجة ، الإسلامية ، ط١ ، د . ت .
- الجمل أو النصرة في حرب البصرة ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الملقب بالشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) ، تدقيق محمد كاظم الكتبي ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ط١ ، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م .
- جمهرة اللغة ، محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١ هـ) ، علق عليه ووضع حواشيه إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د . ت .
- جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة ،احمد زكي صفوت ، المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، د. ت .

- حسن التوسل في صناعة الترسل ، شهاب الدين الحلبي (ت ٧٢٥ هـ) ، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، د. ت
- الحق والباطل في نهج البلاغة ، الروضة الحيدرية ، العتبة العلوية المقدسة ، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١ م.
- حقيقة الإسلام وأصول الحكم ، محمد بخيت المطيعي ، مكتبة النصر الحديثة ، القاهرة ، مصر ، ١٩٣٥ م .
- حياة الإمام الحسين (عليه السلام) ، دراسة وتحليل ، باقر شريف القرشي ، تحقيق مهدي باقر القرشي ، دار جواد الأئمة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م
- حياة الحيوان الكبرى ، كمال الدين محمد بن موسى الدميري (ت ٨٠٨ هـ) ، ناصر خسرو ، طهران ، د . ت .
- حياة أمير المؤمنين بحوث في سيرته وفضائله وحكومته من طرق أهل السنة ، آية الله أصغر ناظم زادة القمي ، شريعت ، قم ، إيران ، ط٢ . د . ت .
- خصائص الوحي المبين ، يحيى بن الحسن الحلي المعروف بابن البطريق (ت ٦٠٠ هـ) تحقيق محمد باقر المحمودي ، شريعت ، قم ، إيران ، د . ت .
- الخطاب السياسي في الشعر الفاطمي ، دراسة أسلوبية ، د. عبد الرحمن حجازي،المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط١، ٢٠٠٥ م .
- الخطاب في نهج البلاغة بنيته وأنماطه ومستوياته دراسة تحليلية ، د. حسين العمري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ط ١ ،٢٠١٠ م .
- خمس لآلئ من كنوز نهج البلاغة ، حسين السيد علي الأعرجي ، دار المحجة البيضاء ، بيروت ، لبنان ،٢٠١٠ م .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، جلال الدين عبد الرحمن بن بكر السيوطي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، د . ت .
- دراسات في علم النفس الإسلامي ، د. محمود البستاني ، دار الباقر ، نجف ، العراق ، ط٤ ، ٢٠٠٨ م

- دراسات في نهج البلاغة ، محمد مهدي شمس الدين ، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم ، إيران ،٢٠٠٧ م .
- دراسات نقدية في أعلام الغرب إيمانويل كانط ، إعداد وتحرير ، د . أمير عباس صالحي ، العتبة العباسية المقدسة ، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية ، كربلاء ، ط ١ ، ١٤٤٠ هـ – ٢٠١٩ م .
- دراسة عامة في الإمامة ، الشيخ إبراهيم الأميني ، ترجمة كمال السيد ، مؤسسة أنصاريان ، قم ، إيران ،١٤١٦هـ– ١٩٩٦م .
- دروس في التربية الأخلاقية ، مركز نون للتأليف والترجمة ، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية ، ط ٥ ، ٢٠١٤ – ١٤٣٥م .
- دروس في الحياة ، آية الله ناصر مكارم الشيرازي ، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، قم ، ط١ ، ١٤٢٤ هـ .
- دروس في علم المنطق ، السيد حسين الصدر ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥ م .
- الدعاية الأموية المضادة للإمام علي (عليه السلام) دراسة في سياسية السَّب ، د. علي رحيم أبو الهيل الجابري ، دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع ، كربلاء ،العراق ، ،٢٠١٧ م .
- الدعاية والتضليل الإعلامي ، الأساليب والطرق ، د . فريد حاتم الشحف ، دار علاء الدين ، دمشق ، سوريا ، ط١ ، ٢٠١٥ م .
- دعائم الإسلام ، أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن احمد (ت ٣٦٣ هـ)، تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٣ م .
- دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة ، آية الله محمد باقر الحكيم ، العترة الطاهرة ، النجف ، العراق ، ط ٤ ،٢٠٠٧ م .
- ديوان أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، جمعه وشرحه ، د. محمد التّونجي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط ١، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م .

- ديوان أمير المؤمنين وسيد البلغاء والمتكلمين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، جمعه وضبطه حسين الأعلمي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م .
- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، شرحه وكتب هوامشه عبدأ مهنّا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ،١٤١٤ هـ .
- ديوان طرفة بن العبد (ت ٦٠ ق هـ) ، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط١,١٤٢ ، ٤هـ–٢٠٠٣م .
- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) تحقيق ، عبد الأمير مهنا ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت لبنان ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م .
- رسالة الأخلاق ، السيد مجتبى الموسوي اللاّري ، مركز نشر الثقافة الإسلامية في العالم ، إيران ، ط ٧ ،٢٠١٢ م .
- رسالة في الحكمين ، ضمن رسائل الجاحظ السياسية ، تحقيق ، علي أبو ملحم ، دار الهلال ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٨٧ م .
- رسائل الإمام علي (عليه السلام) ، د. كامل حيدر ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ط١، ١٩٩٥م .
- رسائل الإمام علي (عليه السلام) دراسة أدبية نقدية ، كامل حسن البصير ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ٢٠١٠ م .
- الرسائل السياسية بين الإمام علي (عليه السلام) ومعاوية : عبد الرضا الزبيدي ، دار الكتاب الإسلامي ، قم ، إيران ، ط ١، ١٣٧٩هـ – ٢٠٠٠م .
- الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، غانم جواد رضا، دار التربية ، بغداد ، ١٩٧٦ م .
- روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه للصدوق ، محمد تقي المجلسي ، تدقيق قسم التحقيق في مؤسسة الكتاب الإسلامي ، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي ، قم ، إيران ، ٢٠٠٨ م .

- سراج الملوك ، محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الفهري الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ) ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٥ م .
- سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار ، الشيخ عباس القمي (ت ١٣٥٩ هـ) ، مؤسسة الوفاء ، بيروت ، لبنان ، د . ت .
- سلوك وأخلاق الإسلام ، مرتضى مطهري ، دار الإرشاد للطباعة ، بيروت ، لبنان ، ط١، ٢٠١١م .
- سنن أبي داود ، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٥٧ هـ) ، تحقيق وتعليق سعيد اللحام ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، د .ت .
- السنن الكبرى ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيقهي (ت ٤٥٨هـ) ، دار المعرفة ، بيروت د . ت .
- سوسولوجيا المعرفة جدلية العلاقة بين المجتمع والمعرفة الدينية ، مجموعة من الباحثين ، مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع ،لبنان ، بيروت ، ط١، ١٤٣٢هـ –٢٠١١ م .
- سيد المرسلين صلى الله عليه وآله ، الشيخ جعفر السبحاني ، مؤسسة النشر الإسلامي ، قم ، إيران ، د . ت .
- سيدنا الخضر عليه السلام ، سيد سلامة غنمي ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٠م
- سير أعلام النبلاء ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، مؤسسة الرسالة ، الرياض ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١ م
- السيرة الحلبية ، علي بن برهان الدين الحلبي (ت ١٠٤٤هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٦ م .
- السيرة النبوية ، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت٢١٨ هـ)، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل ، بيروت، ط١ ، ١٤١١ هـ .
- السيرة والمغازي ، محمد بن يسار بن إسحاق (ت ١٥١هـ) ، دار العلم للملايين ، دمشق ، سوريا ، ١٩٩٤ م .

- السيف والسياسة ، صالح الورداني ، دار الجسام ، القاهرة ، مصر ، ط١ ، ١٩٩٦ م .
- شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، جمعه بشير يموت ، المكتبة الأهلية ، بيروت ، د . ت .
- شرح القصائد العشر ، أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي (ت ٥٢٠ هـ)، دار الأصمعي ، حلب ، سوريا ، ١٩٧٣ .
- شرح المقاصد ، مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني (ت ٧٩٣ هـ) ، تحقيق د.عبد الرحمن عميره الشريف الرضي ، قم ، إيران ، ط ١ ، ١٤٠٩ هـ .
- شرح نهج البلاغة ، كمال الدين بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٧٩ هـ)، دار حبيب للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ط٢ ،١٤٣٠ هـ .
- شرح نهج البلاغة ،عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد (ت ٦٥٦ هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٧٨ هـ – ١٩٥٩ م .
- شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، دراسة وتحقيق الدكتور سعود محمود عبد الجابر ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٩٨٤ م .
- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، نشوان بن سعيد الحميري (ت ٥٧٣هـ) ، تحقيق د . حسين بن عبد الله العمري ، ومطهر بن علي الإرياني ، ويوسف محمد عبد الله ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ، ودار الفكر دمشق ، سوريا ، ط١ ، ١٤٢٠هـ .
- شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ، الحاكم الحسكاني الحنفي (ت ٤٧٠هـ)، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٤م .
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١ هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩١٢ م .

- صحيح البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ)، تحقيق ، مصطفى ديب البغا ، اليمامة ، ودار ابن كثير ، دمشق ، ١٤١٠ هـ .
- صحيح الترمذي ، عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٩٧ هـ) ، مطبعة المكتبة السلفية ، المدينة المنورة ، ١٤٠٥ هـ
- صحيح مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٢ هـ .
- الصراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام ، نوري جعفر، مطبوعات النجاح ، د. ت.
- الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي (ت ٩٧٤ هـ) ، تحقيق ، عبد الرحمن التركي ، وكامل محمد الخراط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م .
- صور المستقبل العربي ، إبراهيم سعد الدين وآخرون ، مركز الدراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان ، ١٩٨٥ م .
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت ٧٥١ هـ) ، تحقيق محمد حامد الفقي ، المطبعة المحمدية ، القاهرة ، مصر، ١٩٣٥ م .
- الطفل بين الوراثة والتربية ، محمد تقي فلسفي ، تعريب وتعليق ، فاضل الحسيني الميلاني ، دار سبط النبي للطباعة والنشر والتوزيع ، قم ، إيران ، ط٢، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٥ م .
- ظهر الإسلام ، أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٩ م .
- عبقرية الإمام علي ، عباس محمود العقاد ، مؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة ، جمهورية مصر العربية ،٢٠١٢ م .

- العقد الفريد ، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٧ هـ) ، شرحه وضبطه وصححه ، أحمد أمين ، وأحمد زين ، وإبراهيم الابياري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د . ت .
- العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) ، نقله إلى العربية ، جعفر هادي ، مؤسسة النشر الإسلامي ، قم ، إيران ، د . ت .
- علي بن أبي طالب الحاكم الديني للدولة المدنية ، صالح الطائي ، منشورات معالم الفكر ، الكاظمية ، العراق ، ط١ ، ٢٠١٦ م
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت ٤٥٦هـ)، حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ط٥ ، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .
- الغارات ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي (ت ٢٨٣ هـ) ، تحقيق ، جلال الدين الحسني الأرموي المحدث ، مؤسسة الآثار الوطنية ، إيران ، د . ت
- غرر الحكم ودرر الكلم ، عبد الواحد الآمدي التميمي ، دار الثقافة ، النجف ، العراق ، د . ت .
- الفتنة الكبرى علي وبنوه ، طه حسين ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، مصر ، ٢٠١٢ م
- فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمة من ذريتهم عليهم السلام ، إبراهيم بن محمد الجويني الخرساني (ت ٧٢٢هـ)، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي ، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٨ هـ .
- الفصول المهمة في أصول الأئمة (عليهم السلام) تكملة الوسائل ، محمد بن الحسن الحر العاملي ، تحقيق وإشراف محمد بن محمد الحسين القائني ، مطبعة نكين ، قم ، إيران ، ١٤١٨ هـ .
- الفكر الاقتصادي في نهج البلاغة ، محسن باقر الموسوي ، دار الهادي ، بيروت، لبنان ، ط١ ،٢٠٠٢.

- الفلسفة الإسلامية ، رجاء احمد علي ، دار المسيرة ، عمان ، الأردن ، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م
- فلسفة الالتزام في النقد الأدبي ، بين النظرية والتطبيق ، د. رجاء عيد ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٥ م
- فلسفة التربية الإسلامية ، دراسة مقارنة بين فلسفة التربية الإسلامية والفلسفات التربوية المعاصرة ، د . ماجد عرسان الكيلاني ، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- فلسفة العلوم بنظرة إسلامية ، د. احمد فؤاد باشا ، دار المعارف ، مصر ، ط١ ،١٤٠٤هـ- ١٩٨٤.
- الفلسفة شرح كتاب الأسفار الأربعة الإلهيات بالمعنى الأعم ، السيد كمال الحيدري ، تعليق الشيخ قيصر التميمي ،مؤسسة الإمام الجواد للفكر والثقافة ، بغداد ،١٤٣٥- ٢٠١٤ م .
- فلسفتنا ، آية الله محمد باقر الصدر ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، ط٢، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م .
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، القاهرة ط١١ ، د . ت.
- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط٥ ،١٩٦٧ م .
- في ظلال نهج البلاغة ، محمد جواد مغنية ، حققه وعلق عليه سامي الغريري ، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي ، ط٤ ، ١٤٢٨ هـ -٢٠٠٧م .
- قادتنا كيف نعرفهم ، السيد محمد هادي الحسني الميلاني ، تحقيق وتعليق محمد علي الميلاني ، شريعت ، قم ، ط ١ ، ١٤٢٦ م .
- قطعة من كتاب الفتوح ، أحمد بن أعثم الكوفي المتوفى بعد سنة ٣٢٠ هـ ، تحقيق الشيخ قيس العطار، دار الكفيل للطباعة والنشر ، كربلاء ، العراق ، ط ١ ،٢٠١٧م .

- الكافي ، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٩ هـ)، تحقيق علي أكبر الغفاري ، دار الكتب الإسلامية ، طهران ، د . ت .
- كامل الزيارات ، أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه القمي (٣٦٨ هـ) ، تحقيق الشيخ جوادي القيومي ، مؤسسة نشر الإسلامي ، قم ، إيران ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ .
- الكامل في التاريخ ، عز الدين بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير(ت ٦٣٠ هـ)، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، د.ت .
- كتاب الأخلاق ، أحمد أمين، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط٣، ١٩٣١.
- كتاب الخصال ، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالصدوق (ت ٣٨١ هـ) ، صححه وعلق عليه علي أكبر غفاري ، طبعة جماعة المدرسين في الحوزة العلمية ، قم ، إيران ، ١٤٠٣ هـ.
- كتاب العلل من المحاسن ، أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي ، (ت ٢٧٤ او ٣٨٠ هـ) ، تحقيق السيد مهدي الرجائي ، المجمع العالمي لأهل البيت إيران ، ١٤٣٢هـ -٢٠١١م .
- الكتاب والقرآن قراءة معاصرة ، د. محمد شحرور ، الأهلي للطباعة والنشر والتوزيع ، سورية ، دمشق ، د . ت .
- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، محمد علي التهانوي المتوفى بعد ١٧٤٥ هـ ، تحقيق رفيق عجم ، وعلي دحروج ، مكتبة لبنان ، ١٩٩٦م .
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، علاء الدين علي المتقي بن حسام الهندي (ت٩٧٥هـ) ، تصحيح صفوت السقا ، مكتبة التراث الإسلامي ، بيروت ، ١٣٩٧هـ .
- كنز الفوائد ، أبو الفتح الشيخ محمد بن علي بن عثمان الكراجكي الطرابلسي (ت ٤٤٩ هـ) ، إعداد عبد الله نعمة ، دار الذخائر ، قم ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ .

- كنز الكتاب ومنتخب الآداب ، أبو إسحاق بن إبراهيم بن علي بن أحمد بن علي الفهري الشريشي المعروف بالبونسي (ت ٦٥١ هـ) ، تحقيق ودراسة حياة قارة ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة ، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤م .
- لسان العرب ، أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١هـ) ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٦ م .
- لمحات من الصراع السياسي في الإسلام العهد الأموي ، د. محمد بحر العلوم ، دار الزهراء بيروت ، ط١، ٢٠٠٧ م .
- مأساة الزهراء عليها السلام ، جعفر مرتضى العاملي ، دار السيرة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٧ هـ– ١٩٩٧ م
- مبحث ولاية الفقيه ، محمد الصدر ، مطبعة البصائر ، لبنان ، ط١ ، ٢٠١٣ م.
- المترفون وصناعة الفساد ، إشكالية الترف في الدين والسياسة ، قراءة من منظور قرآني ، عارف هنديجاني ، جمعية القرآن الكريم ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠١٤م .
- مجمع البحرين ، فخر الدين الطريحي (ت ١٠٨٥ هـ) ، تحقيق أحمد الحسيني، دار المرتضوي ، طهران ، ط٣ ، ١٤١٧ هـ .
- مجمع البيان في تفسير القرآن ، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط٨ ، ١٤٢٦ هـ .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، نور الدين علي بن أبو بكر الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ) ، دارالكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د . ت .
- مجمل اللغة ، أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا اللغوي (ت ٣٩٥ هـ) ، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان ، مؤسسة الرسالة ، د . ت .
- محاضرات في الدين والاجتماع ، مرتضى مطهري ، مطبعة القلم ، إيران ، قم ، ط ٢ ، ١٤٢٩ – ٢٠٠٨ م .

- المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء ، محمد بن المرتضى المدعو بالمولى محسن الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ) ، صححه وعلق عليه ، علي أكبر الغفاري ، مكتبة الصدوق ، طهران ، إيران ، ١٣٣٩ هـ ش .
- المدارس الفلسفية في العصر الإسلامي ، السيد كمال الحيدري ، مؤسسة الهدى للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣ م .
- مدخل إلى علم السياسة ، موريس دوفرجيه ، ترجمة د . جمال الأتاسي ، د. سامي الدروبي ، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع ، سوريا ، د . ت .
- المدرسة القرآنية ، محمد باقر الصدر ، مكتبة سلمان المحمدي ، بغداد ، ط ١ ، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م .
- المذاهب الإسلامية ، جعفر السبحاني ، مؤسسة الصادق ، قم ، إيران ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ .
- المذهب الذاتي في نظرية المعرفة ، السيد كمال الحيدري ، دار فراقد ، قم ، إيران ، ط٢ ، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م .
- المراجعات ، السيد عبد الحسين شرف الدين ، دار التعارف للمطبوعات ، لبنان ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، ط ٥، ١٩٧٣م .
- مسائل الإمام أحمد بن حنبل ، رواية إسحاق بن إبراهيم بن هانئ النيسابوري ، أعدها للنشر أبو الأشبال أحمد بن سالم المصري ، دار التأصيل ، ودار المودة ، د . ت .
- المستدرك على الصحيحين ، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدون بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري ، المعروف بابن البيع (ت ٤٠٥ هـ) ، تحقيق ، مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م .

- المستصفى في أصول الفقه ، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق حمزة بن زهير حافظ ، شركة المدينة للطباعة والنشر ، جدة ، ١٤١٣ هـ.
- المستطرف في كل فن مستظرف ، شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي ، دار صادر ، بيروت ، د . ت .
- المسند ، الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) ، شرحه وصنع فهارسه حمزة أحمد الزين ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤١٦هـ -١٩٩٥م .
- مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي ، دراسة نقدية في ضوء الإسلام ، د. عبد الرحمن بن زيد ، مكتبة مؤيد، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ط١ ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .
- مصادر المعرفة ووسائلها في القرآن الكريم ، د . محمد عياش الكبيسي ، مطبعة كلية الشريعة ، جامعة قطر ، د . ت .
- مع الفلسفة اليونانية ، د . محمد عبد الرحمن مرحبا ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٨ م .
- المعاد رؤية قرآنية ، كمال الحيدري ، مؤسسة الإمام الجواد للفكر والثقافة ، الكاظمية ،العراق، ١٤٢٥ هـ -٢٠١٤م .
- المعاد والقيامة في القرآن ، جوادي آملي ، ترجمة دار الصفوة ، دار الصفوة ، بيروت ، لبنان ، ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤ م .
- معالم الإسلام الأموي من قدح في الفترة النبوية الطاهرة إلى استباحتها ، كمال الحيدري ، مؤسسة الإمام الجواد للفكر والثقافة ، الكاظمية ، العراق ، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤ م
- معالم النظام السياسي ، الفلسفي ، الإسلامي ، العلماني ، د . أيمن المصري ، مطبعة الكوثر ، ط١ ،١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م .
- معاوية بن أبي سفيان ، محمود العقاد ، نهضة مصر ، القاهرة ، ط ٦ ، ٢٠٠٦م.

- معجم البلدان ، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ)، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٩ هـ- ١٩٧٩ م .
- المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية ، والفرنسية ، والانكليزية واللاتينية ، جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، لبنان ، ١٩٨٢م
- المعجم الكبير ، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٦ م .
- معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ، جلال الدين سعيد ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، ٢٠٠٤ م .
- معرفة القرآن ، مرتضى مطهري ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، د . ت .
- مفاتيح الجنان ، الشيخ عباس القمي (ت ١٣٥٩هـ) ، ذوي القربى ، قم ، إيران ، ط٤٢، ١٤٣٩هـ.
- المفردات في غريب القرآن ، أبو القاسم الحسيني بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) ، تحقيق صفوان عدنان الداودي ، دار القلم ، بيروت، ط١ ، ١٤١٢هـ .
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د. جواد علي ، ساعدت جامعة بغداد على نشره ، ط ٢ ،١٤١٣ هـ _ ١٩٩٣م.
- مفهوم الحق في البنية السياقية لخطب الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة ، صلاح مهدي الزبيدي ، الحضرة العلوية المقدسة ، النجف الأشرف ، د. ت .
- مقاتل الطالبيين ، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ) ، الفجر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٩ م .
- مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (ت ٨٠٨هـ) ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٨٤م .

- مقدمة في الفلسفة العامة ، د. يحيى هويدي ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة، ط٩ ،١٩٨٩ م .
- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ، د. محمد عبد الرحمن مرحبا ، عويدات للنشر والطباعة ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٧ م.
- من لا يحضره الفقيه ، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي ، المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ) ، تحقيق علي أكبر الغفاري ، مؤسسة النشر الإسلامي، قم . د . ت .
- مناقب آل أبي طالب ، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني (ت ٥٨٨هـ)، دار الأضواء ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٩٩١ م .
- مناهج النقد الأدبي السياقية والنسقية ، د. عبد الله خضر حمد ، دار القلم ، بيروت ، د . ت .
- المنطق ـ الفلسفة ، مرتضى مطهري ، ترجمة حسن علي الهاشمي ، مؤسسة مسلم بن عقيل ، النجف ، ط١ ، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧م .
- المنطق ، محمد رضا المظفر، مطبعة المعراج ، قم ، إيران ، ط٧ ، ١٤٢٩هـ .
- المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه ، محمد تقي المدرسي ، دار محبي الحسين (عليه السلام) ، طهران ، ط١، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣ م .
- المنهج الأخلاقي وحقوق الإنسان في القرآن الكريم ، يحيى بن محمد حسن زمزمي ، مطبعة جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٢٤ هـ .
- المنهج الجديد في تعليم الفلسفة ، محمد تقي مصباح اليزدي ، مؤسسة النشر الإسلامي ، إيران ، ط١، ١٤٠٧ هـ.
- المنهج السياسي عند الإمام علي (عليه السلام) ، عبد الهادي عاصي ، دار الأمير للثقافة والعلوم ، بيروت ، لبنان ، ط١ ،١٤١٧ هـ –١٩٩٦ م
- منهجية التكامل المعرفي ، مقدمات في المنهجية الإسلامية ، فتحي حسن ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الولايات المتحدة الأمريكية ، د . ت .

- منية المريد في أدب المفيد والمستفيد ، الشيخ زين الدين بن علي الجبعي العاملي، المعروف بالشهيد الثاني (ت ٩٦٥ هـ) ، تحقيق رضا المختاري ، مكتب الإعلام الإسلامي ، قم ، إيران ، ط ١ ، ١٤٠٩ هـ .
- مهزلة العقل البشري ، د. علي الوردي ، دار ومكتبة دجلة والفرات ، بيروت ، البنان ، د . ت .
- الموافقات في أصول الفقه ، إبراهيم بن موسى محمد اللخمي الغرناطي (ت٧٩٠هـ) ، تحقيق بن حسن آل سلمان ، دار بن عفان ، السعودية ، ط١ ، ١٩٩٧ م
- موسوعة أعمال عباس محمود العقاد ، عباس محمود العقاد ، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان ، د . ت .
- الموسوعة الإسلامية العامة ، د . محمود حمدي زقزوق ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣ م
- موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، باقر شريف القرشي ، تحقيق ، مهدي باقر القرشي مطبعة الوردي ، النجف ، ط٤ ، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م .
- موسوعة التاريخ الإسلامي ، الشيخ محمد هادي اليوسفي القروي ، أضواء الحوزة، لبنان ، ١٤٣٠هـ- ٢٠١٢ م
- موسوعة العقائد الإسلامية في الكتاب والسنة ، المعرفة ، محمد الريشهري ، بمساعدة رضا برنجكار، دار الحديث للطباعة والنشر ، قم ، إيران ،١٤٢٩هـ .
- موسوعة الغدير في الكتاب والسنة والأدب ، الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني (ت ١٣٩٠هـ)، تحقيق مركز الغدير للدراسات الإسلامية بإشراف آية الله السيد محمود الهاشمي الشاهرودي ، مؤسسة دار معارف الفقه الإسلامي ، قم ، إيران ، ط ٢ ، ٢٠٠٤ م .
- موسوعة الفلسفة عند العرب ، جيرار جهامي ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، د . ط

- الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي الاجتماعي ، كميل الحاج ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٠م .
- الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية (عربي ـ إنكليزي)، د. إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي ، مكتبة الكتب العربية ، د . ت .
- موسوعة علم النفس وتحليل النفسي ، فرح عبد القادر طه وآخرون ، دار سعاد الصباح ، الكويت ، ١٩٩٣ م .
- النبوءة في الشعر العربي الحديث من ١٩٤٧ – ١٩٧٠ ، دراسة ظاهراتية ، د. رحيم عبد علي فرحان الغرباوي ، تموز للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ط ١، ٢٠١٢ م .
- النظام السياسي في الإسلام ، النظرية السياسية نظام الحكم . د. عبد العزيز عزت الخياط ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م .
- النظام المعرفي في الفكرين الإسلامي والغربي ، د. عبد العزيز بو الشعير ، منتدى المعارف ، بيروت ، ط١، ٢٠١٤ م.
- نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثنى عشرية ، تحليل فلسفي للعقيدة ، د. أحمد محمود صبحي ، دار النهضة العربية ، للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م .
- نظرية المعرفة ، زكي نجيب محفوظ ، مؤسسة الهنداوي ، المملكة المتحدة ٢٠١٧ م .
- نظرية المعرفة ، محمد عبد الحميد القطاونه ، جامعة الملك فيصل ، السعودية، ١٤٣٥هـ .
- نظرية المعرفة المدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات، محاضرات الشيخ جعفر السبحاني ، بقلم حسن محمد مكي العاملي ، مؤسسة الإمام الصادق ، قم ، إيران ، ١٤٢٤ هـ .

- نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ، د. راجح عبد الحميد الكردي ، مكتبة مؤيد، المملكة العربية السعودية ، ط١ ،١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م .
- نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ، دراسة مقارنة ، عبد الزهرة تركي فريح الفتلاوي ، دار الضياء للطباعة ، النجف ، ط١ ،١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م .
- نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين ، د. محمود زيدان، مكتبة المتنبي ، المملكة العربية السعودية ، ط١، ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م .
- نظرية المعرفة في الإسلام دراسة مقارنة لأهم الأسس والمفاهيم المتعلقة بنظرية المعرفة في الإسلام وبقية المذاهب الفلسفية الأخرى ، د. جعفر عباس حاجي ، مكتبة الألفين ، الكويت ، ط ١، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦ م .
- نظرية المعرفة في القران ، آية الله جوادي آملي ، ترجمة دار الإسراء للتحقيق والنشر ، دار الصفوة ، بيروت ، لبنان ، د . ت .
- نظرية المعرفة في القران الكريم وتضميناتها التربوية ، د. احمد محمد حسين الدغشي ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، ط١ ، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢ م .
- نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة ، عادل السكري ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٩٩ م .
- نظم درر السمطين في فضائل المصطفى والمرتضى والبتول والسبطين ، جمال الدين محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد الزرندي الحنفي المدني (ت ٧٥٠هـ)، تحقيق علي عاشور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، ط ١، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤ م .
- نفحات القرآن ، أسلوب جديد في تفسير الموضوعي للقران الكريم ، ناصر مكارم الشيرازي ، بمساعدة مجموعة من الفضلاء ، مطبعة سليما نزاده ، قم ، إيران ، ط١ ، ١٤٢٦ هـ .
- نفحات الولاية شرح نهج البلاغة ، شرح عصري جامع ، ناصر مكارم الشيرازي، دار جواد الأئمة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١م .
- نهج البلاغة ، شرح محمد عبده ، ذوي القربى ، قم ، ط١ ،١٤٢٧ هـ.

- نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب عليه السلام، مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر ، قم ، إيران ، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٦ م
- نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة ، محمد باقر المحمودي ، مطبعة النعمان، النجف ، ط١ ،١٣٨٧ – ١٩٦٨ م .
- نوادر الراوندي ، فضل الله بن علي الحسيني الراوندي (ت ٥٧١ هـ) ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، العراق ، ط ١ ، ١٣٧٠ هـ .
- وحدة المعرفة ، د. محمد كامل حسين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د . ت .
- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة ، محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن الحسين الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ) ، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) ، قم ، ط٢ ، ١٤١٦ هـ .
- وقعة صفين ، نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢ هـ)، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، المؤسسة العربية الحديثة ، مصر ، القاهرة ، د . ت .
- الولاء والبراءة في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف ، محمد بن سعيد بن سالم القحطاني ، دار طيبة ، الرياض المملكة العربية السعودية ط١، د . ت .
- ينابيع المودة ، سليمان بن إبراهيم الحسيني البلخي القندوزي الحنفي(ت ١٢٩٤هـ) ، صححه وعلق عليه علاء الدين الأعلمي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان، ط١، ١٩٩٧ م .

الرسائل والأطاريح :

- أسلوب الردع في القران الكريم ، عبد الله احمد حسين الزيوت ،أطروحة دكتوراه ، جامعة اليرموك ، كلية الشريعة ، اربد ، الأردن ، ٢٠٠٨ م .
- الايجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام ، علي شواخ اسحاق ، أطروحة دكتوراه ، جامعة القديس يوسف ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، بيروت ،١٩٨١م.
- الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي (٩٢ هـ- ٦٦٨ هـ)، نادر فرح زيارة ، رسالة ماجستير ،الجامعة الإسلامية ، كلية الآداب ، غزة ، ٢٠١٠ م .
- التنظيم الاجتماعي في الفكر الإسلامي ، فكر الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنموذجا ، دراسة تحليلية ، نضال عيسى كريف ، أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، ٢٠٠٨ م .
- الخطاب الإيبستمولوجي في الفكر الفلسفي العربي المعاصر حدوده وآفاقه ، حموده السعيدي ، أطروحة دكتوراه ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية ، الجزائر، ٢٠٠٣ م .

البحوث والدوريات :

- استحداث الخليفة معاوية بن أبي سفيان لنظام ولاية العهد وردود الأفعال التي واجهته (٤١- ٦٠ هـ / ٦٦١ – ٦٨٠ م) ، بدر هلال العلوي ، وخلود بنت سالم باحشوان ، مجلة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية ، جامعة السلطان قابوس .
- تأصيل استشراف المستقبل من خلال السنة النبوية ، د. محمد سيد أحمد شحاته ، مؤتمر جامعة القصيم ، بعنوان الفتوى واستشراف المستقبل .
- التحولات السياسية في عهد معاوية بن أبي سفيان (دراسة لطبيعة العلاقات بين القيادتين السياسية والعلمية) ، سباهتش عمر ، مجلة إسلامية المعرفة ، العدد ٢٠ .

- التضليل الإعلامي في بث المعلومات ، د. عبد الحسين كاظم مريخ العطواني ، مجلة الباحث الإعلامي ، العدد ٤٠ .
- التعصب وعلاقته بالهوية الاجتماعية والمكانة الاجتماعية لدى العاطلين عن العمل ، د . بشرى عناد مبارك ، مجلة الفتح ، العدد ٥٣ ، نيسان ، ٢٠١٣م .
- دور التشبيه الدلالي في نهج البلاغة ، د. علي زيتون ، مجلة المنهاج ، العدد ٢، لسنة ٢٠١٠ م.
- الزبيريون وحرب الجمل دراسة وتحليل ، محمد علي ، وعيسى قاسم ، مجلة رسالة القلم ، العدد ٣٣ ، نيسان ، ٢٠١٦ .
- السياق الثقافي في الرسائل المتبادلة بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية ،أحمد جاسم مكي ، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية ، العدد ٤ ، لسنة ٢٠١٦ م.
- الظاهرة الأدبية في ضوء نظرية المعرفة القرآنية ، عباس المناصرة ، مجلة الثقافة الجزائرية العدد ٢ ، لسنة ٢٠١٨ م .
- في أهمية الدرس المعرفي ، عبد الوهاب المسيري ، مجلة إسلامية المعرفة ، المعهد العالي للفكر الإسلامي، العدد ٢٠ ، سنة ٢٠٠٠م .
- مصادر المعرفة في القران الكريم والفلسفات التربوية ، دراسة مقارنة ، د. عماد عبد الله محمد الشريفين ، د. أحلام محمود علي مطالعة ، د. رائدة خالد نصيرات، مجلة كلية الشريعة جامعة اليرموك ، اربد ، الأردن ، العدد ٢ لسنة ٢٠١٣م.
- معركة الجمل في منظور نخبة من المستشرقين ، د . حاتم كريم جياد ، مجلة الدراسات استشراقية ، العدد ٧ ، لسنة ٢٠١٦ م .
- المنهج المعرفي في القرآن ، محمد صالح عطية ، مجلة كلية العلوم الإسلامية ، جامعة بغداد ، العدد ١ ، لسنة ١٩٩٦ م
- موانع المعرفة ، علي عباس الموسوي ، مجلة بقية الله ، العدد ١٢١ ، سنة ٢٠١٩ م

- نظرية المعرفة من المنظور الإسلامي ، مسعود جميل احمد ، عصام محمد عبد ماجد ، مجلة العلوم والبحوث الإسلامية العدد ١٥ ، سنة ٢٠١٤ .
- الوهم وأثره في السلوك الإنساني ، دراسة نفسية تربوية إسلامية ، د . انشراح أحمد توفيق اليبرودي، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات التربوية والنفسية ، المجلد الثاني والعشرون ، العدد ٤ أكتوبر ، ٢٠١٤ م .

المواقع الالكترونية :

- الإسلام دعوة سلام لا حرب ، مسعود صبري ، مقالة على موقع إسلام أون لاين، ١٧ مارس ٢٠١٦ . https://islamonline.net/15773
- التقليد الأعمى ذلك السلاح الفتاك ، أسباب وعلاج ، د. سلام عمر ، مقالة على موقع بصائر ٨ / ٩ / ٢٠١٨ م . https://basaer-online.com
- Epistemology , Neta, Ram , Stanford Encyclopedia of Philosophy . https://plato.stanford.edu/entries/epistemology/

Ministry of Higher Education and Scientific Research

Karbala University

College of Education for Humanities

Department of Arabic Language

Exchanged messages between Imam Ali (peace him) and his opponents' study in the knowledge of theory

Thesis submitted by

ThamerJassim Mohammed Ali Al-Delphi

To the Council of the College of Education for Humanities - University of Karbala

It is part of the requirements for a PhD degree in Arabic Language and Literature / Literature

Supervised by

Prof. Dr. Hasan Habib Azar Al-Karaite

September 2020

Abstract

The people who study Arabic literature in long time of history that to look for it from the industry and art, and they are often considered nothing, but an amusement tool or a ritual instrument,method of showing ingenuity, or a means of achieve goals similar to something of an art of sewing and embroidery, or sweetening and softening, or As a manifestation of dressage - in its' broadest sense - verbal or rhetorical policy in the manufacture of statement and creator.

The people who look at the Islam literature, theycan see that it is a fine literature that stems from the philosophy of human creation in the succession of the earth, and the harnessing of its' energies. This literature is not normal literature and adheres to the path of the righteous, and does not escape in the mazes of pre-Islamic, nor descend into the dissolution of the passions and misguidance, heading wherever it goes, the Quran and the prophetic biography its plan and its' approach, its' awareness and its' adornment, the reality and the truth live, through faith and belief, and God has spread the whole earth a field of honesty and a platform for defiance.

This literature iscarrying a message, pursues a path and seeks a goal, and does not accept that it is a goal for itself; It is the call of Islam to think, contemplate, and seek knowledge. Without this perception, Islamic literature continues to suffer from refraction and complain of being lost in a world, where efforts to fight Islam have united and met with its hostility.In front of this open hostility, Islamic literature is not able to derive its' strength, and it continues to seek the nice word and the fresh phrase, and it leaves its' knowledge and goals. Literature does not expand with the breadth of life and its' various aspects as well as aspects of life.

All of these need a bold step and a bit of revolution in thinking and an adventure in order to free it from the families of its' monopolists, its' history and its' definition. The people who dug trenches around it that could be crossed only by risks, and erected marquees around it that only those who dressed in literature would enter it; Perhaps my supervisor professor Dr. Hasan Habib, was at the front of this bold step. He encouraged me towards expressing and following this path to do this kind of work. (The messages exchanged between Imam Ali (peace of him) and his opponents were a study of knowledgeoftheory. Also, the scientific council of Arabic language

department in this study in its' final form and putting this study in the right steps.

The prestigious position that the theory of knowledge occupies among human sciences, as it is the cornerstone of all knowledge and theory adopted by human, made; as if it was the most glorious of science and its alphabet and the basis of all knowledges.

The importance of this study is the need of the Islamic nation to re-explore its scientific, intellectual, literary fortunes and the need of the individual Muslim to refer to his identity. Also, Islamic rooting for the various sciences base of studies and giving them a spiritual and moral character, in addition to the scientific character, as well as providing a realistic model in which the theory of cognitive integration between Literature, science and reality, in which it eliminates all doubts that hover over the possibility of applying this theory, and opens doors for more research that the owner seeks to establish for Islamic science.

The study was toadopt the analytical approach to present the theory of knowledge in analysing the messages that circulated between the two parties and showing the truth and dimensions. These messages seek to show as well as showing the premises of knowledge and blocking it, and showing the way of thinking through the literary text of the messages, which is the approach that we follow in the theory of literary knowledge, that showing the relationship that There exists between a human who knows the thing and the known thing an emotional relationship.

In order to make a forward progressive breakthrough, we have to make a change in the study of literary activity and reach the cognitive goals that the messages were targeting. Because the knowledge is the goal of a human and it is their supreme goal, theywere seeking throughout the ages so the study was not looking for the aesthetic of the literary text as much as its search for the knowledge contained in those texts that it was put for it and as much as it included the knowledge and the statement of what it corresponds of the illusion for the appearance of the truth that the theory of knowledge.

The study was carried out on a preamble, four chapters and conclusion, which included the preamble: Explaining what the theory of knowledge was. The first chapter studied the basics of knowledge in three topics: first, the knowledge of

the Creator; second, the knowledge of prophecy, while the third topic was to ensure knowledge of the hostile.

The second chapter was monitored the knowledge and its' pests. It was on three topics; first, pre-Islamic impact; second, love of the world; third, rust of the heart.While the third chapter was to the cognitive dimensions and it was on three topics as well: first, the political dimension; second, the educational dimension, while the third topic was studied: the economic dimension, and the fourth chapter was studied the truth and delusion as a starting point for studying the phenomenon of peace and war, the behaviour of delusion and truth, and preference. The conclusion was concluded with the most prominent results of the research.

ThamerJassim Mohammed